رواية

محسن الرملي

أبناء وأحذية

مدونة ابو عبدو

رواية

Author: **Muhsin Al-Ramli**	اسم المؤلف: محسن الرملي
Title: **Abnaa wa Ahaziya**	عنوان الكتاب: أبناء وأحذية
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2018**	الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al-Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141 www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 961 706 15017 + 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول dar@almada-group.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار al-madahouse@net.sy ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

محسن الرملي

أبناء وأحذية

.. إلى الذين بَعثَرَت الأقدارُ أحلامَهم؛ فرمَّمُوها بأُخرى.
.. وإلى أرواح أبنائي الذين ماتوا وهم أَجِنَّة.

- 1 -

انتقامًا من موت طِفلتي في العراق، أنجبتُ سبعةً وعشرين طفلًا في إسبانيا وكولومبيا.

غيَّر موتُها مَجرى حياتي ومصيري... ويستحيل عليَّ نسيان تلك الليلة المريرة في بغداد. كنت أحمل جُثَّتها الصغيرة في صندوق أحذيةٍ كارتونيٍّ، وأسير وحيدًا في الأزقَّة الآسِنَة والساحات المكتظَّة بالساهرين والمُشَرَّدين والكلاب السائبة، عابرًا الجسر، مفكِّرًا في القفز إلى النهر معها، متوقِّفًا في شارع الكُتب الخالي إلَّا من الفئران، ومحدِّثًا إيَّاها عن ذكرى خطواتي فيه مع أمها، مرورًا بمقهى أبي المفضَّل، وتهنئة صاحب لي بالحذاء الجديد، وهو لا يعلم بأن الذي أحمله في تلك العُلبة هو جثمان طفلتي وليس حذاءً... لحظتها، تمنَّيتُ لو أنه أطلق على قلبي رصاصة بدل كلمة «مبروك».

آنذاك، كنت في الخامسة والعشرين من عمري، جنديًّا أؤدِّي الخدمة الإلزامية، بعد تَخرُّجي أنا وزوجتي (زَهراء) من قسم المسرح في كلية الفنون الجميلة. وأعتبر نفسي محظوظًا؛ لأن وحدتي العسكرية في ميناء (خور الزبير) في البصرة، فصيل حماية الموانئ. أتناوب الخفارات مع ثلاثة جنود آخرين على «دوشكا» منصوبة فوق تلَّةٍ عند أطراف الميناء، فيما غالبية زملائي ساقتهم مصائرهم العسكرية إلى وحدات قتالية في مواضع خطرة على الحدود وفي الجبال والصحاري.

كنَّا في حالة إنذار قصوى، لوصول بواخر أخرى مُحَمَّلة بالأسلحة، حين اتَّصلتُ بالسيدة الأرملة أم حسين، التي تؤجِّر لنا غرفة في بيتها

البغدادي القديم منذ أن تزوَّجنا أنا وزهراء قبل تخرُّجنا بأشهر، على الرغم من معارضة عائلتينا.

أمرني الضابط بالذهاب إلى مقرِّ الوحدة لجلب البريد العسكري، فوجدتها فرصة نادرة للاتصال، وكانت صدفة رائعة أن أجد نائب ضابط طيب في (مكتب القَلَم) وأمامه جهاز تليفون أرضي مدني، رَجَوْتُه أن يسمح لي باتِّصال سريع كي أطمئنَّ على زوجتي التي تركتها منذ عشرين يومًا حاملًا في شهرها الثامن، ولم أجد أيَّة وسيلة للتواصل معها أو الذهاب لرؤيتها، بسبب حالة الإنذار التي نحن فيها.

أخبرتني أم حسين بصوت عالٍ ومضطرب ومتلهِّف للحديث معي، بأن زهراء في مستشفى الولادة منذ يومين، وتعاني -وحيدةً- آلام مخاض متعثِّر، ولم تَزُرْها إلا مرة واحدة سريعة؛ لأنها لا تستطيع ترك أطفالها الأربعة وحدهم في البيت طويلًا. قالت: لا بُدَّ أن تأتي أنتَ، كيفما كان، ومهما كلَّف الأمر، فهي بأشد الحاجة إليك، وأن الأطباء أيضًا يريدون أحدًا من ذويها كي يوقِّع على أوراق تخوِّلهم القيام بعملية جراحية.

حال انتهاء المكالمة خرجتُ مسرعًا، أكاد أترنَّح أو كنت كذلك فعلًا. جلستُ على الأرض أمام الباب ورحتُ أُدخِّن، فتبعني نائب الضابط، بعد أن رأى صدمتي إثر المكالمة. أعطاني حقيبة البريد التي نسيتها على مكتبه وسألني عن الأمر، فأخبرته بإيجاز، وأنا أعبُّ الدخان في صدري. ربَّتَ على كتفي، ثم سأل بعد تفكير: ماذا ستفعل؟

- لا أدري، فالإجازات ممنوعة الآن، ووحدات سيطرات ودوريات الانضباط العسكري في كل الطُّرق، وعقوبة الهاربين هي الإعدام.

صمتَ. دار حولي، ثم دخل إلى مكتبه وعاد حاملًا قنِّينة ماء صغيرة، قدَّمها لي، وقال: اسمع، لديَّ مأمورية إيصال بريد عسكري إلى بغداد غدًا، وكنت أنتظرها كفرصة لرؤية أولادي، ولكن، إن استطعتَ أن تُقنع الضابط المسؤول عنكَ بالأمر؛ سأتنازل لك عنها.

نظرتُ إلى وجهه أعلاي وهو واقفًا بجواري ووجهه وسط السماء.

شعرتُ وكأنه ملاك هبط عليَّ منها، واختلطت الغيوم خلف رأسه بغيوم الدمع في عينيَّ.. فوجدتُ نفسي أهبُّ واقفًا وأعانقه.

- 2 -

طوال الطريق، كنت أفكِّر في زهراء، حبِّي الوحيد، امرأة حياتي، التي لن أتردَّد لحظة لأفديها بحياتي إذا تطلَّب الأمر. شبيهتي التي ساقها القدر لي، أو أننا نحن الذين طوّعنا قدرنا على الرغم من معارضة كل المحيطين بنا من ناس وظروف. كانت هي تدرس في كلية الشريعة؛ تنفيذًا لرغبة والدها رجل الدين، خِرِّيج الحَوْزَة في النَّجَف، وأنا أدرس في كلية التربية الرياضية؛ تنفيذًا لرغبة والدي الشُرطي... ليست رغبته تمامًا، ولكنها كانت الأقرب إليها، حل وسط بين ما أراده وما كنت أريده، فالمسرح هو حلمي منذ الصغر، واشتركتُ في كل الأعمال المسرحية المدرسية في الابتدائية، وفي الثانوية أنشأتُ فرقة من أصدقائي، وكنَّا نطوف بأعمالنا لعرضها في القرى المجاورة ومدارسها. تنعشنا نظرات الدهشة والإعجاب، ويحلِّق بنا التصفيق صَوْبَ سماوات الحلم بالشهرة مستقبلًا لنكون نجومًا، لكن أبي عارض وغضب، ورفض قطعيًّا أن أتخصَّص بالمسرح في دراستي الجامعية. كان يريدني أن أدخل كلية الشرطة لأتخرَّج منها ضابطًا يفاخر به، وهو الذي أمضى حياته شرطيًّا، تتحكَّم به أوامر الضباط الأصغر منه سِنًّا.

تلك إحدى عُقَدِه النفسية التي أراد حلَّها بواسطتي، والعُقْدَة الأخرى هي ريفيَّته، تؤذيه النظرات والتعليقات والتعاملات الفوقية لأبناء المدينة العاصمة تجاهه؛ لذا -منذ ولادتي، بعد خمسة أعوام من ولادة أختي «انضباط»- كرَّس كل جهوده لكي أكون كما يريد، فمقابل فشله الدراسي واضطراره للتطوُّع كشرطي، حرص على متابعة دراستي وحل الواجبات المدرسية معي، ومقابل ريفيَّته حرص على توفير أفضل الملابس والأحذية واللُّعَب لي. هذا إلى جانب تربيتي على النظام في الأكل

والشرب والحركة، بحيث أنه كان يوقظني فجرًا لأمارس بعض التمارين الرياضية العسكرية، وفي المناسبات الخاصة يهديني بذلات ضابط شرطة أو بحَّارة وجنرالات، ويأخذني إلى محلات التصوير لالتقاط الصور لي فيها. سَمَّى أختي «انْضِباط»؛ لأن زملاءه كانوا ينادونه «أبو انضباط» حتى قبل أن يتزوَّج أمي؛ ذلك أنه كان شديد الالتزام بتأدية المهام بدقة عالية، وتطبيق تفاصيل المهنة بحذافيرها، كنوع من الدفاع عن كبريائه وكرامته التي قد يجرحها بكلمة ضابط صغير. كان يعامل أمي وأختي بحزم مشابه. يُلقي عليهنَّ الأوامر بإيجاز، ويحاسبهنَّ بشدة على أي تقصير في تنفيذها، وعلَّمني أن أفعل معهنَّ الشيء نفسه، موكلًا إليَّ مهمة أن أكون رجل البيت في غيابه. من حسن الحظ أنني وُلِدتُ قويَّ البنية مثله؛ ممَّا أتاح له مساحة أوسع وأقسى في تدريباته لي، وأعانني بدني على احتمالها.

لم يكن يروق له شغفي المبكِّر بالمسرح. يعتبر ذلك مجرد ألعاب صبيانية جانبية ستنتهي بانتهائي من المدرسة وافتراقي عن زملائي فيها، وبشكلٍ ما، كان يزهو بنفسه عندما يحضر بعض مسرحياتي ويشهد تصفيق الناس لي،- إلَّا أنه كان ينصحني بألَّا آخذ أدوار الفقراء والمتسكعين والمحكومين، وإنما أدوار الأقوياء، كالملوك والأمراء والضبَّاط والتجَّار وغيرهم، وكان يقول لي: «لا تعجبني رؤيتك تحت سلطة أحد أو أقل من أحد... حتى وإن كان ذلك مجرد تمثيل في مسرحية ساذجة، ألا ترى بأنني أسميتكَ (أمير)؛ لكي تكون آمرًا وليس مأمورًا.. تذكَّر ذلك».

لكن الذي أتذكَّره، هو أنني كنت أُحب المسرح؛ لأنه الصيغة الوحيدة التي أستطيع أن أكون فيها أنا نفسي كما أريد، لا كما يريد أبي. أكتب شخصيات أود لو أكونها، وأجسِّدها، بل أعيشها بحرية، دون خشية أن يحاسبها الناس. في المسرح أستطيع خلق نماذجَ مختلفةٍ من أصدقاء وإخوة أفتقر إلى وجودهم في الواقع، وأستطيع أن أجعل الأخ يصادق ويحب أخته البنت، ويتبادل معها الأفكار والأدوار، دون الخوف من تصنيفات وتحذيرات الأب والناس في القرية.

من حسن حظي أن كلية الشرطة، في سنة تخرجي من الثانوية، لم تفتح القبول لطلبة جُدُدٍ؛ لاكتفاء الدولة بالعَدد الموجود، ذلك أن أغلب الشباب كانوا يتَّجهون إليها؛ تهرُّبًا من الكلية العسكرية ومن التجنيد الذي سينتهي بهم في جبهات الحرب الدائرة مع إيران، فكانت الشرطة هي الضمان الوحيد لتجنُّب السَّوْق إلى الحرب.

أغاظ ذلك والدي، ولعن الحظ النحس على إفشال مشروعه الذي اشتغل عليه منذ ولادتي، لكنه لم يفقد الأمل. اقترح عليَّ -بل ودفعني- للتسجيل في كلية التربية الرياضية، قائلًا بأن التحويل منها لاحقًا إلى كلية الشرطة سيكون أسهل. كان معدل درجاتي المتوسط لا يؤهِّلني للدخول إلا إلى كليات لا تكترث بالعلامات الدراسية بقدر التركيز -أوَّلًا- على الموهبة والمهارات في اختصاصها، ومنها كلية الفنون، التي ما إن أخبرته برغبتي بها، حتى استشاط وزمجر وأرعَد وهدَّدني بطردي من البيت ومن حياته، والتبرُّء مني إلى الأبد إن دخلتها. قال بأنه لا يريد أن يرى ابنه مَسخَرة وفُرجة للناس، يُلقي النكات ويقوم بالحركات السخيفة كي يُضحكهم عليه، أو يرقص هازًّا مؤخرته أمامهم كي يمتِّعهم في مساء عابر من حياتهم. قال بأن الفنانين لا مستقبل لهم في هذا البلد، ولا قيمة ولا مكانة ولا سمعة جيدة، وكم عثر خلال دورياته الأمنية، على سكارى منهم يتطوَّحون في الشوارع آخر الليل، وكم شهد تحقيقات مع فنانين بِتُهَمِ الإخلال بالأخلاق العامة.

على الرغم من أنني دخلت كلية التربية الرياضية، كما أراد، إلا أن خيبته كانت كبيرة، ولأنه عنيد لا يستسلم بسهولة؛ سارع إلى اتخاذ احتياطاته لتحقيق حلمه بأن يكون له ابنٌ ضابطٌ في الشرطة. ولأن أمي لم تنجب سوانا، أنا وأختي انضباط، وبصعوبة، بعد مراجعات كثيرة ومكلِّفة للأطباء والفقهاء ودجَّالات السِحر؛ تزوَّج من امرأة بغدادية، ونقلنا من القرية إلى بيت مجاور لبيتها، وبذلك حقق انتصارًا آخر ضد عقدته الأخرى كونه ريفيًّا.

كم رأيتُ أمي باكية بعدها. أجدها تبكي وحيدة في المطبخ أو الصالون أو غرفة نومها أو في الحديقة، وحالما تراني تسارع بمسح دمعها والتظاهُر بأنها بخير، مدعية في كل مرة شيئًا مختلفًا لتبرير دمعها: بَصَل، صُداع، أُغنية، ذِكرى... وما إلى ذلك، لكنني كنت أراها تذبل شيئًا فشيئًا بصمت واستسلام. ومع ذبولها، راح إعجابي وحبي لأبي يذبل أيضًا، بل ويتحوَّل في بعض الأحيان إلى غضب مكبوت، وحتى مَقت له... أعترف بأنني تمنَّيتُ موته أكثر من مرة.

- 3 -

كنت أقضي معظم وقتي في كلية الفنون الجميلة، بعد أن أُنهي دروسي في كلية التربية الرياضية، والتي لا تتجاوز الأربع ساعات يوميًا في أقصى حال، عدا أنها لم تكن صعبة عليَّ ولا تتطلب الكثير من الدراسة النظرية؛ فأغلبها تدريبات عملية، وفي هذا كنت متميِّزًا في فرع الألعاب الفردية الذي أنتمي إليه؛ لأنني أصلًا قد تمَّ قبولي فيه بسهولة؛ كوني حاصلًا على عدَّة ميداليات في المسابقات المدرسية وبطولات الجودو المحليَّة.

أتسلَّل دائمًا مع آخر الطلبة الداخلين إلى الدروس التطبيقية فقط إلى صالة التدريبات المسرحية، بِغَضِّ النظر عن المرحلة الدراسية أو الموضوع أو الأستاذ، أجلس في عتمة المقاعد الخلفية، وأستمتع كثيرًا بمتابعة دروس الأداء الحركي والصوتي: تفاصيل التحكُّم بطبيعة التعابير والإشارات، الصوت وطبقاته، حركات الجسد وأهميَّة كل التفاتة، وكنت أتمرَّن على ما تعلمته في كل مرة، حال عودتي إلى البيت وإغلاق باب غرفتي خلفي. كانت دروس الدكتور ياسين هي أكثر الدروس جذبًا لي، وشخصيته كذلك. في الأربعين من عمره، شخصية معروفة ومتميِّزة في الوسط المسرحي. أنهى دراسته للدكتوراه في الإخراج المسرحي من ألمانيا، وعاد قبل عامين، مندفعًا لإحداث تحوُّلٍ حداثويٍّ تامٍّ في المسرح العراقي، مفعم بالحماسة لمشروعه ومجنون

في عشقه للمسرح، فحتى طريقة حديثه ومشيه كانت مسرحية، وعلى الرغم من أنه لم يكن اجتماعيًّا، وحادَّ المزاج، إلا أنه كان محطَّ أنظارنا نحن الشباب. نراقبه حتى في طريقة طلبه وتناوله للقهوة في نادي الطلبة في الكُلية، عدا أن أغلبنا راح يقلِّد طريقته المتمرِّدة، المتنوِّعة والفريدة في اختيار توليفات ملابسه، والسلسلة الفضية كبيرة الحلقات في عنقه، والأخرى في رسغه، وشعره المبعثر الطويل. بحيث أنني -ومنذ ذلك الحين- قرَّرتُ أن أترك شعري طويلًا ومبعثرًا، وفي ذلك أيضًا نوع من بدايات التمرُّد على تعاليم أبي، الذي كان يحرص على قَصِّ شعري خفيفًا مثل العساكر دائمًا.

في إحدى المرات التي تسللتُ فيها إلى دروسه، قال حال وقوفه أمامنا على خشبة مسرح التدريب، بأنه ينوي إخراج مسرحية (هاملت) بطريقة مبتكرة وفريدة، بأسلوبه الخاص؛ ليشارك بها في مهرجان المسرح الجامعي الذي سيقام بعد شهرين، ولن يرضى بأقل من الجائزة الأولى؛ لذا شرع باستدعاء الطلبة تباعًا للصعود على المسرح معه؛ كي يختار الأنسب منهم لأداء الشخصيات. يطلب من الطالب أو الطالبة الصاعدة، ترديد عبارة ينتقيها من عبارات المسرحية، التي بدا وكأنه يحفظها كاملة، وأن يقوم الطالب بأداء تمثيلي يتناسب وتلك العبارة، ثم يأمر الذين يعجبونه بالوقوف جانبًا قربه، فيما يعود البقية إلى مقاعدهم. فكرتُ بالتسلل هاربًا قبل أن يصل إليَّ الدور كي لا يكتشف بأنني لست طالبًا هنا، لكن أجواء الاختبار شدَّتني بقوَّة، بحيث صرت أؤجِّل الهروب، قائلًا في نفسي التي هيمن عليها الفضول: «بعد الطالب التالي، ثم التالي...»، إلى أن وجدتُ الدور يصلني دون أن أنتبه، والدكتور ياسين يصيح بي: أنت.

فزعتُ، وكدتُ أن أُلقي بنفسي خارج الباب القريب، كمن يلقي بنفسه في النهر إثر حريق شبَّ في ثيابه، لكنني وجدت نفسي منقادًا لسطوة ندائه، فكانت من نصيبي عبارات هاملت الشهيرة: «أكون أو لا أكون،

تلك هي المسألة. أيهما أنبل للعقل: أن يحتمل ضربات القدر الغاشم، أم أن يُشهر سلاحه بوجه بحر من المصائب، ويكافح حتى يُقضى عليه...». خرجَت من أعماقي بصدق وقوة أدهشتني حتى أنا نفسي، شعرت بها تنبجس مُخَضَّبَةً بكل قطرة في دمي، وتُحرِّك كل خلية في بدني، وفي لحظة من أدائها، التفتُّ نحو الدكتور صائحًا بها، محدِّقًا في عمق عينيه. شعرت وكأنني لستُ أنا، أو الأصح، بأنني أنا الحقيقي ولم أنتبه إلا إلى هتافه: «رائع، رائع. قف هناك». فوقفت بقلب مرتجف إلى جانب الطالبة الجميلة ذات الشّعْر القصير، التي اختبرها بإحدى عبارات شخصية أوفيليا، حبيبة هاملت. وفي ختام الاختبار، كانت حصيلة اختياره أربعة طلاب فقط. راح يتحرَّك جيئة وذهابًا، من أقصى المسرح إلى أقصاه، يفكر ويهرش شعفة شعره الطويل، ثم نظر إلى الساعة في معصمه وقال: حسنًا، لدينا وقت لإعادة الاختبار.

راح ينادي على الجالسين تباعًا، يختبرهم بسرعة وعصبية، بحيث أنه كان يصرف الذي لا يعجبه طردًا بنبرة تكاد تكون مُهينة؛ مما جعل الطالبة الثالثة تردُّ عليه مغتاظةً، وهي تشير إلى ذات الشعر القصير التي تقف جواري ضمن الذين اختارهم، قائلة: ولكن هذه ليست طالبة معنا.

توقَّف الدكتور ياسين كأنه يصحو من حلم، قطعَت عليه العبارة تركيزه في الذي كان يعمله، فنظر إلينا باستغراب، ثم ردَّد بارتباك: «نعم؟ حقًا؟ ماذا؟»، وبعد برهة سألنا: «ومن أيضًا؟ أنت؟ أنت؟ أنت؟»، فاعترفتُ له أنا أيضًا، وعندها تأجَّج انزعاجه وغضبه أكثر، وبدا كأنه سيضربنا وهو يصيح بنا بلغة فصيحة وأسلوب مسرحي: «اللعنة، هيا اخرجوا من هنا... اغربوا عن وجهي أيها السلاحف»، فقفزنا من على خشبة المسرح وخرجنا مسرعين بصمت. سرنا، شبه مهرولين، أنا والفتاة ذات الشعر القصير، متحاذيَيْن عبر الممرَّات، مطأطئي رأسينا دون كلمة؛ لكن إيقاع خطواتنا كان متناسقًا على إيقاع كعبيها، واستمر سيرنا عبر

الدرب الذي في الحديقة وسط التماثيل والطلبة إلى أن خرجنا من الباب الرئيسي للكلية، ووجدنا نفسينا على الرصيف، فتوقفنا. نظرنا إلى بعضنا وانفجرنا معًا بضحك صاخب حتى انحنى ظَهرانا وسط نظرات الاستغراب، وابتسامات العابرين والواقفين قُربنا، فابتعدنا مواصلين الضحك ومتجاورين في السير، ثم عبرنا الشارع المحاذي للكلية، ووقفنا على الرصيف المقابل بعد أن هدأت قهقهاتنا، التي كانت تتكرَّر كلما نظرنا إلى بعضنا، أو كرَّر أحدنا كلمة «سلاحف». كنا نرتدي الزيَّ الجامعي الموحَّد الذي كان مفروضًا آنذاك: قميص أبيض وبنطلون أو تنورة رمادية. سألتني من أي كلية أنا، فاستغربَت عندما أخبرتها بأنني من كلية التربية الرياضية.

- ما كنتُ أتخيَّل أبدًا بأن الرياضيين لديهم أدنى اهتمام بالثقافة والفنون، وإنما مجرد عُمَّال يشتغلون في خدمة عضلاتهم.

- لستُ رياضيًّا في الجوهر، وإنما هي تدريبات أبي ورغبته.. جوهري وحلمي ورغبتي الحقيقية هي المسرح... وأنتِ؟

- أنا من كلية الشريعة.

ففاجأني ذلك، ووجدتني أردُّ متهكِّمًا على الفور: من الشريعة وتستغربين من كوني من الرياضية!

وهنا عاودنا الضحك معًا. ثم قالت: وأنا مثلك، لست شريعية في الجوهر، وإنما هي تدريبات أبي ورغبته، أما جوهري وحلمي ورغبتي الحقيقية فهي المسرح.

التقت عيوننا للحظة صمت ودهشة، قطعتُها بالقول: والآن؟ ما العمل بعد هذه الفضيحة؟

- لا أدري؛ ولكنني لا أستطيع التخلِّي عن المجيء إلى هنا.. لديَّ فائض من الوقت، وأحفظ القرآن كاملًا، وكل دروس كليتي بدائية بالنسبة لي؛ لأنني أعرف مسبقًا كل هذا الذي يدرسونه لنا وأكثر، منذ صغري.

- وأنا كذلك...

فكَّرتُ، ثم اقترحت عليها: ما رأيكِ أن نذهب الآن ونشرب أو نأكل شيئًا ونتحدث بالأمر؟

نظرَت إلى ساعتها. كانت الثانية بعد الظهر تقريبًا، فقالت: طيِّب، وأنا جائعة بعض الشيء، ما رأيك أن نذهب إلى نادي الطلبة السودانيين؟ هو هنا خلف مبنى كلية الفنون، إنه هادئ ونظيف ورخيص، وأنا أرتاده غالبًا، وأجلس للقراءة ساعات طويلة في مقهى حديقته.

حين دخلنا، وأنا أتبعها، توجَّهَت مباشرة إلى نافذة البيع الواسعة المُطِلَّة على مقهى الحديقة، وحيَّت من خلالها رجلًا سودانيًا نحيلًا في الخمسين من عمره أو أكثر.

- مرحبًا يا عم فتحي، من فضلك سندويتشين فلافل وكوبايتين شاي من يدك الحلوة.

أخبرتني بأنها تمنَّت لو أن الدكتور ياسين أعطاها من عبارات شخصية أخرى، وليس أوفيليا الفتاة الرقيقة. فقلت لها: ولكنك أديتِها بشكل ممتاز وقَبِلك الدكتور؟ فقالت: نعم، مثلتها ولكنها لا تمثِّلني.

- أكنتِ تريدين دور الأم الخائنة جرزود مثلًا؟

- لا، ولا هذه... كنت أريد دور هاملت.

فضحكنا معًا، على الرغم من جدِّيتها فيما قالته، ثم سحَرَتني بطريقة حديثها عن هاملت ورؤيتها له: مشهد الكينونة يجذب كل المسرحيين الحقيقيين، وشخصية هاملت تمسُّ أعماق الجميع، قَلِقَة، رومانسيَّة، متمرِّدة.. بل وتبدو كممثل أصلًا، مزيج الشَّك، القلق، القوة، الضعف، الإقدام، التردُّد، الرقَّة، العنف، الوضوح، الغموض، الحكمة، الجنون.. تقلُّبات معادلة القوة والضعف، قوته في لحظات الضعف، ضعفه في لحظات القوة، زعزعة عرش أُمه، خوضه لمعركة خاسرة.. فيه تجسيد لواحد من أبرز نماذج الفجيعة الإنسانية.

واستمرَّت جلستنا لأربع ساعات في المقهى، دون توقُّف عن الحديث، بحيث عرفنا بعضنا جيِّدًا.

- 4 -

زهراء هي الأخرى، دخلَت كلية الشريعة استجابة لضغط أبيها وأمره، ليس لديها أخ، وإنما ثلاث أخوات. والدها رجل الدين، كان يحلم بأن يخلفه ولد في الفقه والوجاهة، وبما أن الله لم يرزقه بولد؛ فقد زوَّج ابنتيه الكبيرتين لاثنين من طُلَّابه في الحوزة الدينية، ودفع الصغيرتين لدراسة الشريعة والفقه، واحدة في معهد في النجف حيث يعيشون، أما الصغرى، زهراء، فقد نقلتها قرعة القبول الإدارية إلى بغداد. أقلق ذلك والدها، لكنه تقبَّله باحتساب المؤمن، على أمل التمكُّن من نقلها لاحقًا إلى النجف، وإلا فالاصطبار على ذلك أربعة أعوام. أما هي، فقد كانت سعيدة بهذه الفرصة التي تُبعدها عن الجو المحافِظ، بل والخانق الذي نشأت فيه، وفي سفرها الأسبوعي بين النجف وبغداد في الحافلات، كانت تجيء وتذهب بالحِجاب والعباءة، ولكنها ما إن تنزل في بغداد وتبتعد قليلًا عن أعين المسافرين معها، حتى تخلعهما، كاشفةً عن شَعر ناعم وقصير كالأولاد، تعتزُّ به، وقوام ممشوق، تعرف قوة جاذبيته من خلال نظرات العابرين جوارها. هي مِثلي، شغوفة بالمسرح منذ طفولتها، تخبِّئ صور الفنانين تحت وسادتها وفي دفاترها المدرسية، تغيِّر ملابسها وتضع المكياج وتمثِّل لساعات طويلة أمام المرآة في غرفتها، كما تشارك في بعض أعمال المسرح المدرسي في طفولتها. كانت سعيدة بهذه النقلة العملاقة في حياتها. تقيم في القسم الداخلي للبنات، وفيه تلبس ما تشاء وتخرج في المساءات للتجوال، بأبهى سفورها في بغداد، ترتاد أسواقها ومسارحها ومكتباتها والمقاهي، وتنتهز أية فرصة للذهاب إلى كلية الفنون الجميلة القريبة من كليتها، وتحديدًا، إلى قسم المسرح، حيث تعارفنا في تلك الصدفة -المسرحية- العجيبة، التي كان يطيب لنا إعادة روايتها بمتعة وضحك لكل من نتعرَّف عليه.

- ما العمل؟

- من رأيي أن نذهب لمقابلة الدكتور ياسين غدًا، نعتذر له، ونشرح سبب اختراقنا لدروسه، ومدى حبنا للمسرح.

- وإن وجدنا تفهُّمًا وتسامحًا منه؛ سنطلب الإذن لحضور دروسه وتدريباته، ونعِده بالجلوس في الزوايا الخلفية دون أي إزعاج.

- اتَّفقنا... ولكن، أخشى أن يضربنا هذه المرة.. اغربوا عن وجهي أيها السلاحف.

وضحكنا.

في اليوم التالي، التقينا أمام بوابة كلية الفنون في موعدنا، فكلانا كان يفضِّل دروس الدكتور ياسين أكثر من بقية الأساتذة التقليديين، اختلافه، غرابته، ثقافته ورؤيته الجديدة للمسرح، كانت كلها تجذبنا إليه كشباب أكثر من سواه.

قبل الدخول إلى الكلية، تداولنا أي الخيارين أفضل: أن نتبعه عند الخروج من أحد دروسه إلى أن يدخل مكتبه ثم ندخل عليه، أم أن نجلس في نادي الكلية إلى أن يجيء لاحتساء قهوته؟ وفي تلك الأثناء، لمحناه قادمًا للخروج، فسارعنا بالاستدارة نحو الشارع مولِّين ظهرينا للبوابة، إلى أن خرج وواصل سيره على الرصيف، شارد الذهن كالعادة، غير منتبه ولا مكترث بما حوله، فنظرنا إلى بعضنا ووجدنا أننا متفقين على اللحاق به، دون أن ننطق بذلك.

تبعناه مسافة مائة متر تقريبًا، وحين صرنا في منطقة هادئة، تكاد تكون خالية من المارة، باستثناء السيارات المارقة في الشارع. نظرنا إلى بعضنا، وقرَّرنا أنها اللحظة المناسبة للحديث معه، فهُنا، حتى لو صاح بنا غاضبًا وطردنا، لن يكون في الأمر أي لفت انتباه ولا فضيحة، كما لو كان في مكتبه أو في نادي الكلية مثلًا.

أسرعنا، ولم تعد تفصلنا عنه سوى بضعة خطوات، فهتفتُ به، بصوت خرج متحشرجًا وناشفًا، بالكاد يكون مسموعًا: دكتور ياسين.

لم ينتبه. عندها نادته زهراء بصوت أصفى وأعلى، فتوقَّف والتفت إلينا. حيَّتْه زهراء بلطف وقالت: نحن الذين كنَّا بالأمس في..

فقاطعها: آه، نعم.. تذكرت.

- جئنا لنعتذر من حضرتك. نحن آسفان جدًّا جدًّا لما حدث.. الأمر هو أن..

فقاطعها ثانية: حسنًا، حسنًا لا بأس.

واستدار يهمُّ بالمغادرة، فأمسكته زهراء من ذراعه، واستغربت أنا جرأتها؛ لكنها كانت مصيبة فيما فعلت، وكما أخبرتني لاحقًا أنها فكرت باستثمار لحظة هدوئه تلك، وكانت على حق.

- عفوًا دكتور، نريد التحدُّثَ معك، فلو منحتنا من وقت حضرتك خمس دقائق، سنكون شاكرين.

نظر إلينا وفكَّر قليلًا، فقالت له: أرجوك.

- حسنًا، نعم.. لديَّ وقت الآن.

ففاجأتني مرة أخرى بجرأتها وهي تقول: ما رأي حضرتك أن نتناول الشاي هنا في مقهى قريب سيعجبك.

- حسنًا، حسنًا.. نعم، ليس لديَّ دروس حتى الرابعة مساءً.

قادتنا إلى نادي الطلبة السودانيين، وطلبت من العم فتحي أقداح الشاي. جلسنا على الطاولة ذاتها التي جلسنا عليها بالأمس في مقهى الحديقة. كنت أكثر ارتباكًا منها، وقلبي أشدَّ اضطرابًا حتمًا؛ لذا تكفَّلت هي بالحديث، وأخبرته بكل شيء عنّا: حبنا للمسرح، وإجبار والِدَيْنا لنا على الدخول في كليات واختصاصات لا نحبها، ورغبتنا الشديدة بالحضور إلى دروسه وتدريباته، وأهمية ذلك لنا.

أجادت زهراء طرح قضيتنا بنبرة جادة، بل ومؤثِّرة، وحتى عذبة كما بدت لي، بحيث شدَّت كل انتباه الدكتور ياسين واهتمامه. كنت أرقب ذلك في عينيه وطريقة إصغائه. لم ألحظ عليه أية لحظة شرود عرفتها عنه. هادئًا وجادًّا ومتفاعلًا مع كل ما قالته، بل ومعجبًا، وأنا أشَدُّ منه إعجابًا بها.

قال: حسنًا، حسنًا.. نعم، يمكنكما المجيء إلى دروسي متى شئتما، وحتى الدخول مجانًا إلى أي عرض مسرحي أقدِّمه خارج النطاق الأكاديمي.

فابتهجنا، وشعرنا بقرب حقيقي كبير بيننا، فوضعت زهراء كفَّها على ذراعه القريبة منها وهي تشكره بحرارة، وأضاف: ولكن لماذا لا تنتقلان رسميًّا للدراسة في قسم المسرح عندنا، بدل أن تُضَيِّعا عمريكما في ميدان لا تحبَّانِه؟

فاجأتنا الفكرة، ثم أجبناه بأننا، عدا جهلنا بإمكانية وكيفية ذلك إداريًّا، فإن المعضلة الأكبر هي رفض آبائنا، فقال: وأنا كذلك، كان أهلي معارضين لي، ولكنني تمرَّدتُ عليهم. الأهل هكذا دائمًا يخشون على أبنائهم من كل تغيير جديد مختلف عمَّا عهدوه؛ لكنهم بعد أن يصبح الأمر واقعًا سيسامحون.. بل وقد يتحوَّلون للدعم.

بُحْنَا له بشكِّنا أن يكون أبَوَيْنا من هذا النوع. فقال: إذا كان حب الفن حقيقيًّا فيكما، فسوف تتمرَّدان حتمًا. ما قيمة الفن والحب إذا كانا مُهادِنَيْن ومنافقين للتقاليد! هما إبداع، والإبداع ابتداع وتجديد. محاولات هَدم وبناء متواصلة لتغيير الواقع. الفن حُبٌّ والحُبُّ فنٌّ، ودليل حقيقتهما هو فرض نفسيهما مهما تكن الصعوبات والعوائق. على أية حال، فكِّرا في الأمر.. وأنا من طرفي سأقف معكما وأساعدكما بكل ما يتعلَّق بتسهيل القبول في كليتنا.

ترك لنا كلماته بعد أن تركنا في دوامة تفكير جدِّيٍّ بما قال، بحيث لم يعد الجلوس مناسبًا مع حالة التفكير الساخنة التي أثارها فينا؛ فقرَّرنا المشي ومواصلة النقاش. وصلنا إلى (كورنيش الأعظمية)، ولم نجلس على أحد المقاعد المطلة على ضفة النهر، وإنما واصلنا التمشِّي والحديث هناك حتى غروب الشمس.

-5-

رحنا نحضر كل دروس الدكتور ياسين، بما فيها النظرية، ولا يفوتنا أي عرض له أو يشيد به خارج الأكاديمية، أو محاضرة يلقيها أو مقالة يكتبها. نلتقي به كثيرًا في نادي الكلية، ونذهب برفقته إلى نادي الطلبة السودانيين،

أصبحنا أصدقاء فعلًا، بل إننا وجدنا فيه الأب الذي نريده، الذي نختاره بدل الآباء المفروضين علينا. كانت أفكاره طازجة ومختلفة فهو أكثر الأساتذة جِدَّةً، عائدًا لتوِّه من الغرب، في وقت كان فيه العراق كله محاصَرًا بالدكتاتورية والحرب، فكان غربيًّا حديثًا يعيش في بقعة شرقية تتمسَّك بالماضي؛ لذا شعرنا به كنسمة هواء عليلة تدخل علينا في حجرة خانقة، أَحَبَّنا وأحببناه.. وحتى صرنا نناديه أحيانًا، فيما بيننا، بـ «سِينو»، التسمية التي أخبرنا بأنهم كانوا ينادونه، أو يدلِّعونه، بها هناك في الغَرب، وأنه يحبها، وإن كنتُ أنا لم أجرؤ على حذف لقب (دكتور) كما تفعل زهراء... ولشدة إعجابنا به كنَّا نتقبَّل، بل نتشرَّب ونتبنَّى كل آرائه وأقواله وسلوكياته، وأخذتُ أقلِّده في كل شيء تقريبًا، بما في ذلك طريقة التدخين.وعدم كوي الملابس، ولم أعد أُمشّط شَعري الطويل بأكثر من مَسحات بأصابعي.

زهراء كانت أسرع وأشجع مني في اتخاذ قرار الانتقال إلى كلية الفنون بعد أن اهتدت إلى الحل. تعمَّدَتْ الرسوب؛ ممَّا يوجِد مبرِّرًا إداريًّا لنقلها، وحين سألتها وماذا عن أبيها؟ قالت لن أخبره بشيء، وأمامي أربع سنوات لأثبِّت فيها نفسي في المسرح، وعندها لن أكون بحاجة إلى أي دعم منه، وأستطيع شقَّ طريق حياتي بنفسي منفردة.. وحينها له أن يقبلني أو يرفضني كما يشاء.. أكون أو لا أكون. أما أنا فلم يكن بمستطاعي فعل ما فعلَته؛ لأن القوانين كانت تقضي بفصل الطالب الجامعي الراسب، وسَوْقِه على الفور جنديًّا إلى ساحات الحرب.

كان أسبوعا عطلة نصف العام الدراسي الأول أشد أوقاتي عذابًا ووحدة وحيرة. على مدار الساعة أفكِّر بكثافة في كيفية الانتقال إلى كلية الفنون، وكذلك أفكِّر بزهراء التي اشتقت إليها كثيرًا، فلم يعد من السهل عليَّ مرور الأيام دون رؤيتها، وممَّا زاد الطين بلّة: العاصفة التي أثارها والدي في البيت فأطارَه، أَمَرَ أمي وأختي بالعودة إلى بيت القرية، بعد أن صُدِم وجُنَّ جنونه حين اتَّصلوا به من أحد مراكز الشرطة في بغداد، ليخبروه بضرورة المجيء لأخذ ابنته. تمَّ القبض عليها في مُتنزَّه (الزَّوراء) وهي تتبادل القُبَل

مع «مَنهَل»، وذلك ضمن دوريات كانت تقوم بها شرطة الآداب العامة لمراقبة أزياء الناس وسلوكياتهم، ولا تُطلِق سراح الشباب المقبوض عليهم في أوضاع مخِلَّة بالآداب العامة إلا بحضور أولياء أمورهم. صفعها أبي بقوة أمام زملائه، وأتى بها إلى البيت ركلًا وسحبًا من شَعرها، وحال دخوله إلى الصالون دفعها على الأرضية وانهال عليها بالضرب العنيف والرفس، حاولت أمي منعه، فدفعها هي الأخرى بقوَّة حتى سقطَت على الأرض وهو يصيح بها أن هذه الفضيحة بسبب سوء تربيتها، وفي اللحظة التي همَّ بها لضرب أمي، كنت قد خرجتُ من غرفتي فهجمتُ عليه، قبضتُ على ذراعه المرفوعة ولويتها خلف ظهره، طاويًا كفَّه. كان في أشد هياج شهدته منه على مدى حياتي. حاول رفسي خلفه فدستُ على قدمه بقوة. قيَّدته تمامًا، وكلَّما تململ زدتُ من لوي كفه لتؤلمه أكثر، والضغط على قدمه، فلم يبق لديه سوى مواصلة الصراخ شاتمًا إياي أنا الآخر وملقيًا عليَّ اللوم أيضًا.. بأنني لم أستطع الحفاظ على أختي، ولم أكن بمستوى المسؤولية، وبأنني ناقص رجولة، لم أحافظ على شرف العائلة، ومجرد مخنَّث بشَعر طويل.. ضائع. كدت لحظتها أن أرفعه إلى أعلى ما أستطيع وأن أضربه على الأرض أو على الجدار بقوة حتى ينفلق، لكنني، وتحت تأثير توسُّلات أمي، اكتفيت بحمله من تحت إبطيه.. ألقيته خارج الدار وأغلقت الباب خلفه، وأنا أسمعه يصيح من هناك: لن تبقوا هنا لحظة واحدة، لن أصرف عليكم بعد الآن فِلْسًا واحدًا ولن أدفع الإيجار. انقلعوا من هنا بعيدًا عني. ارحلوا وعودوا إلى القرية. أنتم عار... عار.

وظلَّ يردِّد كلمة «عار» ويبتعد إلى أن دخل بيته المجاور.

– 6 –

فاجأنا مجيء «مَنهَل» وأمه في اليوم التالي لطلب يد أختي «انضباط» للزواج. ما كنَّا نتوقَّع أبدًا من هذا الشاب النَّزِق، المتهوِّر، اللص، اللعوب أن يقوم بهذا الموقف النبيل وبهذه السرعة.

لا أدري إذا ما كانت أمي على عِلم مسبق بعلاقة «منهل» بأختي «انضباط» أم لا، فلم أسألها ولم أتحدث بالأمر مطلقًا... على الرغم من أنني كنت قد تفاجأت به مثل أبي، الذي رميته خارج الباب وعدت إلى الداخل سريعًا للاطمئنان على سلامة أمي وأختي، فوجدتهما جالستَيْن متعانقَتَيْن على الأريكة، و«انضباط» تبكي في حضنها. دخلتُ إلى غرفتي أُهدِّئ نفسي بعد أن ارتكبتُ ما لم أكن أتخيَّل أني سأرتكبه أبدًا تجاه أبي.

كنت ألعن نفسي تارة، وأخرى أبرِّر لها. بعد ذلك رحت أبرِّر لأختي علاقتها أيضًا، فقد بلغت الثلاثين من عمرها وهي تكاد تكون محبوسة في الدار، بل كأنها خادمة منذ أن أجبرها والدي على ترك الدراسة، ولأن وجهها مليء بالحفر والندوب التي خلَّفتها موجات بثْور كثيفة في سن المراهقة؛ صارت تخجل من الخروج من البيت، وإذا ما خرجت تتحجَّب وتضع برقعًا على وجهها. بالنسبة لي كنت أراها جميلة وأحبها كحبي لأمي؛ لأنني منذ أن وعيت على الدنيا وأنا أجدها تعتني بي، تحميني، تحتملني وتغرقني بحنانها كأمي. كما اعتدت على رؤيتهما معًا، دائمًا لا تفترقان. كيف أقامت علاقة مع «منهل»؟ ومنذ متى؟ هكذا كنت أتساءل، وخاصة أن علاقتنا ببيت خالي شبه مقطوعة؛ لأن والدي يكرهه منذ أن اعترض على زواجه من أمي قائلًا: كيف تزوِّجونها لهذا الشرطي التافه؟ هذا ما أخبرتني به أمي حين سألتها ذات مرة عن سبب عدم مجيء خالي لزيارتنا، أو سبب ندرة زيارتنا له دون صحبة أبي، وفي تلك المرات القليلة التي زرناهم فيها في طفولتنا، كانت «انضباط» تكثر من نهر «منهل» وزجره، بل وحتى ضربه أحيانًا؛ لكثرة الكلمات البذيئة التي يتفوَّه بها، وكثرة مشاكساته وشغبه وحركاته، وسرقاته لما بين أيدي الأطفال من ألعاب وحلوى، فكنَّا نسمِّيه «مَنهَل» الحرامي. أما أنا فكنت أتبعه، باعتباره أكبر مني، وبشيء من الإعجاب، حتى وهو يورِّطني بصعود شجرة، تخريب أعشاش، كسر بيض الحَمام، ضرب طفل آخر أو إيذاء قطة. كان طفلًا لا يكفُّ عن الحركة، وهي على العكس منه. هادئة

تمامًا، ولا زالت كذلك. طفلة هادئة في الثلاثين، وهو أيضًا لا زال نَزِقًا كثير الحركة. فشل في دراسته وتطوَّع إلى فوج الطوارىء الخاص بحماية المسؤولين. لم نره منذ زمن بعيد، وأنا شخصيًّا كنت قد نسيته ونسيت أن لي خالًا أصلًا، لكنني كنت أسمع عن أخباره من أمي بين الحين والآخر، منها أنه سُجِن لسرقته سيارة، ودخل المستشفى إثر حادث سير، تطوُّعه لفوج الطوارىء، تعيينه سائقًا لأحد كبار المسؤولين، ثم حارسًا شخصيًّا لمسؤول أكبر، ثم مسؤولًا عن الأعمال التجارية للمسؤول الكبير، وما إلى ذلك كأخبار أخرى متفرقة من آخرين، لم تنقلها لي أمي طبعًا، أو أنها قد لا تعرف بها أصلًا، وهو أنه كثير السهر والصَّخب والصرف الباذخ في الملاهي الليلية، وأنه زير نساء طائش، وربما حتى قوَّادًا للمسؤولين الذين يعمل عندهم.

كنت أدور في غرفتي وأفكِّر بكل ذلك، وأزداد قلقًا على أختي؛ خشية أن يتلاعب بها أو يستغل براءتها ثم يجرفها معه إلى دهاليز تنتهي بكارثة، ومع ذلك لم أجرؤ على الخروج إليهما، إلى الصالون، والحديث عن الأمر، عدا أني أخجل منهما، ولا أعرف كيف أتحدث معهما في شأن حميم كهذا؛ فقرَّرت تأجيله بعض الوقت إلى أن تهدأ عاصفة أبي، أو ننتهي من مسألة الانتقال إلى القرية.

فاجأني وأنقذني من القلق والحيرة مجيئه بصحبة خالتي. كان شابًّا بالغ الوسامة والأناقة والذكاء، ولَبِقًا في حديثه وسلوكه. يرتدي بذلة، غالية الثمن حتمًا، وربطة عنق وساعة مذهبة. بعد أن تعانقت أمي وأمه، قبَّل هو رأس أمي وكفَّها بتهذيب واحترام، وبعد أن صافحني وجلس، سألني عن أحوالي وفيما إذا كنت بحاجة لشيء. هو مختلف عني تمامًا، لا أغار منه في شيء، ولا أتمنى أن أكون مثله، وإن كنت لا أعرف حقيقة طبيعته بالضبط، فكل الناس ممثِّلون، كما يقول الدكتور «سينو»، وتختلف براعة هذا التمثيل من شخص إلى آخر.

لم يَشربا سوى الماء، وتوجَّها إلى بيت أبي المجاور وحدهما، بعد

أن قالت لهما أمي بأنها تفضِّل عدم مصاحبتهما، ثم إن الأمر بِرُمَّته في يد الأب. لم يتأخَّرا أكثر من ساعة، وعادا إلينا بحال مختلف، كان «منهل» غاضبًا جدًّا ومع ذلك كان محافظًا على تماسُكه. قالت أمه: رفض، بل طردنا وقال بأنه لن يُزوِّجها «منهل» حتى لو كان هو آخر رجل في الدنيا، وشتمنا، وكان على وشك ضرب «منهل»، وكادا يشتبكان، لولا أنني سحبت ابني من ذراعه وخرجنا.

قال «منهل» وهو يكاد ينفث الأنفاس نارًا من منخريه كَتِنِّين: هذا رجل معتوه، وقليل الأدب، شرطي شوارع تافه.

عندها قاطعته أمي قائلة: لا تَقُلْ ذلك عنه.

قال: كيف تطيقونه؟! أستطيع أن أُلقي به في التهلكة، أن أنقل عمله إلى أتعس بقعة في العراق وأُمَرِّر عيشته. أبطش به. ماذا يظن نفسه هذا الخرِف الـ...!

فقاطعته أمي ثانية: لا تَقُلْ عنه ذلك.

غيَّر نبرته، وشرب ماءً وقال: والآن؟ ما العمل؟

ساد الصمت للحظات، ثم قال: أنا على استعداد للزواج رغمًا عنه.. ما رأيكم؟

فزِعت أمي: لا، سيقتلها، أنتم لا تعرفونه، إنه عنيد وقاسٍ. أنا أعرفه جيدًا. فلنفوض الأمر لله، عسى أن يغيِّر تفكيره بعد حين ويلين قلبه ويتغيَّر الحال.

ثم أخبرَتهم بقراره بإعادتنا إلى القرية، وأنها هي أيضًا تفضِّل ذلك؛ لتبتعد عنه وعن ضرَّتها البغدادية المتعالية، كما أنها لا تحب المدينة، وتريد العودة إلى بيتها الريفي ومزرعتها التي تحيط به، وأن تعاود امتلاكها بقرة أو اثنتين وتعيش معهما وتستثمر المزرعة دون الحاجة إليه، وأضافت بمزيج من العطف: «فهو أيضًا راتبه قليل، ولديه الآن مصاريف بيت مُكلِفة». سكتَت، ثم قالت بنبرة أَخْفَتَ تكاد تكون مختنقة وحزينة: «وزوجته حامِل».

- 7 -

في صباح اليوم التالي، وقفَت أمام باب دارنا شاحنة كبيرة، بعثها «منهل»، كما وَعَد؛ كي تنقلنا إلى القرية. لم تكن لدينا أشياء كثيرة، ولا أثاث. بضعة حقائب وأكياس، احتوت أغلبها ملابسنا وكتبي وأدوات مطبخيَّة، وفي المساء، زارنا خالي «أبو منهل» في القرية. تحدَّث مع أمي على انفراد، ثم غاب... وعاد يجرُّ خلفه بقرة سمينة قائلًا بأنها هدية لنا.

على مدى أسبوع، اشتغلتُ أنا بتنظيف سواقي المزرعة من الدغل، وحرثت المساحات بين أشجارها، فبذرتها أمي بما تريد وتعرف من خضروات، ثم جئتُ إلى بغداد كي أرتِّب أوراق قبولي في أقسام سكن الطلبة، باعتباري ممَّن يسكنون خارج بغداد، وهذا القبول ترافقه منحة عشرين دينارًا من الدولة شهريًّا كمصاريف. رفضتُ اقتراح أمي بأن أسكن في دار أبي.

وبقدر ما سَهَّلت عليَّ قِلَّةُ وجود الطلاب من الإجـراءات، بقدر ما ضاعفَت من وحشتي وافتقادي لرؤيتهم في كل زاوية، في النادي والقاعات والممرات والسلالم والحدائق.. بزيهم الموَحَّد الذي اعتدته، لكن الفقدان الأكبر الذي أحسست به، اسمه زهراء. رفقتها، نظرتها، نبرتها، عطرها.. زهراء، قصيرة الشَّعر، قصيرة التنُّورة، طويلة اللسان، ومُحِبَّة الأحذية الرياضية، التي كنت خبيرًا بها. بقيتُ أحسب الوقت المتبقي لانتهاء العطلة بالساعات... بل وبالدقائق. مغتبطًا بهذه الاستقلالية الجديدة في حياتي، حزينًا في الوقت نفسه؛ لأنني لم أهتدِ إلى أية طريقة للانتقال معها إلى كلية الفنون في العام الدراسي المقبل.

لاحقًا، جاءت الصدفة التي جلبت معها فكرة الحل. كُسِرت ذراع أحد زملائي أثناء تمرين الجودو، فأبلغه رئيس القسم، بأنه لم يعد مؤهَّلًا للاستمرار في هذا الميدان، وخاصة أن أغلب دروسه تطبيقية وليست نظرية، وأن عليه البحث عن قسم أو كلية أخرى بهذا المستوى أو أقل

من حيث شرط معدَّل الدرجات، فكانت كلية الفنون؛ لأن الزميل لديه موهبة بسيطة بالرسم، ويمكنه أن يعمل لاحقًا كمدرِّس فنون في إحدى المدارس. صرتُ بعدها أتعمَّد العنف في التدريبات وأندفع إلى أخطر التمارين، علَّ أحدها أو أحدهم يكسر أحد عظامي، لكن هذا لم يحدث، والوقت يمرُّ، ومعه يزداد قلقي ويأسي، إلى أن سمعتُ من زميل آخر عن طريقة كان يقوم بها بعض الجنود للحصول على إجازات طويلة أو النقل إلى مواقع خلفية... وهي الذهاب إلى مجبِّرجي (مُجَبِّر شَعبي لكسور العظام)، يقوم بكسر أذرعهم بعناية، ثم تجبيرها، مقابل بعض المال. حين أبلغت زِهراء بالفكرة، فزَّت وفَزِعت واقشعرَّ بدنها، وأنَّبتني: «أأنت مجنون!»، ثم راحت تطيل الحديث معي لثنيي عن هذه الفكرة والبحث عن حل آخر، وأنه حتى لو تعذَّر ذلك، فيمكنني المواصلة على هذا النحو: رسميًّا في الكلية الرياضية، وفعليًّا في كلية الفنون، لكن ذلك لم يقنعني؛ لأنني أريد أن أكون في المسرح رسميًّا وفعليًّا، وأريد أن أكون معها ومثلها.

طلبتُ من زميلي أن يستعلم عن عنوان مُجَبِّر الكسور وتفاصيل التعامل معه. ثم مرافقتي إليه. بيت صغير قديم، يستحق تسمية خرابة أو قبر أكثر من تسمية بيت، بجوار مطبعة «الأنوار»، في زاوية زقاق ضيق عند نهاية شارع «المتنبي» الخاص بالكتب. عتمة، رائحة مياه آسنة، جدران رطبة، قطط تائهة، سقف يوشك على السقوط، سجادة بالية، وسائد متسخة، وضجيج المطبعة القديمة يهزُّ الأرضية والحيطان، ويحول دون سماعنا لبعضنا... استثمره مُجَبِّر -أو كاسِر- العظام الأشيب للقيام بالعملية، بعد أن سلَّمته ذراعي ليخدِّرها وأشحت بوجهي عنه. كَسر عظم ساعدي بسرعة، لا أدري كيف، فعدا تعمده اتخاذ الركن الأشد عتمة لجلوسه، غطى ذراعي بشرشف ودسَّ ذراعيه مع ذراعي. شعرت بِسَحْبِه وهزِّه لجسدي، وبثقل على ذراعي، لكنني لم أحس بأي ألم، ولم أسمع شيئًا بسبب صخب المطبعة... بعدها أحاط ساعدي بقطعة جير وجبس وعلَّقه بشريط قماشي في رقبتي.حدث ذلك قبل انتهاء العام الدراسي بشهر، وحين رأتني زهراء

في اليوم التالي، ملفوف الذراع، شهقت وتسمَّرت في مكانها أمامي غير مصدقة.. نظرت في عينيَّ بحدة، وقالت: «فعلتها يا مجنون!»، ثم ابتسمت وهي تمدُّ كفيها بحذر، تتحسَّس برفق الجبس وكفي المتدلية منه، وفاجأتني بالسؤال بنبرة خافتة، بعد أن رفعت عينيها للتحديق في عينيَّ: «أفعلتَ هذا من أجل المسرح أم من أجلي؟». لم أعرف بماذا أجيب، اكتفيت ببلع ريقي، وشَعرت هي بارتباكي، فعقبَّت: «لا فرق»، عندها رددتُ بارتياح وصدق: «نعم، لا فرق، أنتِ والمسرح شيء واحد»، ضحكت وأضافت: «وأنتَ أيضًا». أخرجت من حقيبتها قلمًا، رسمت به على الجبس خمس نجوم وكتبَت أعلاها: «سلامتك يا بَطَل».

كان من بين لجنة أساتذة اختبار القبول الدكتور «سينو»، فأدَّيت أمامهم (مشهد الكينونة) من مسرحية «هاملت»، تدرَّبت عليه جيدًا، وفي فقرة الإلقاء، ألقيت عليهم مقاطعَ طويلة، حفظتها من قصيدة «المومس العمياء» للسياب. لم أخبر أبي ولا أمي ولا أختي بانتقالي إلى كلية الفنون، لم تخبر زهراء أباها ولا أيٍّ من أخواتها أو أقاربها بانتقالها، فكانت تلك أجمل أربع سنوات من عمرنا.

- 8 -

لم نترك عرضًا مسرحيًّا في بغداد إلا وشاهدناه وأطِلنا النقاشات حوله لساعات وأيام، ولم نفترق إلا في عطل نهايات الأسابيع التي نسافر فيها إلى أهالينا، والتي سرعان ما رحنا نقلِّلها، نتحَجَّج مرة بالامتحانات، وأخرى بمرض صديق... وما إلى ذلك، حتى صرنا لا نذهب إلى أهالينا إلا بمقدار يومين في الشهر تقريبًا. كنا مثالًا تطبيقيًّا لكل ما سمعنا الدكتور ياسين يتفوَّه به، ومن ذلك أن نعيش يومنا، أن نعيش اللحظة بلحظتها دون أن نشغل أنفسنا بالماضي أو المستقبل. منفصلين عمَّا يدور حولنا من سياسة وحرب وما يدور في أذهان آبائنا. كان يقول لنا بأن كل شيء في الحياة مسرح، البيت والشارع والمقهى وصالة الدرس، بل إن الحياة

كلها عبارة عن مسرحية كبيرة، حتى صرنا بالفعل نشعر بأننا ممثلان في مسرحية، ونستمتع بالتفنُّن في أداء الأدوار فيها، وابتداع تعديلات على هذه الأدوار وأدائها.

صرنا نحب الحياة من خلال حبنا للمسرح، بل إنه صار معنى الوجود بالنسبة لنا، هو البيت، العزاء، الأمل، مكان الراحة، واحة الانسجام مع الذات ضد القبح، خشبته هي بقعتنا النقية، الحُرَّة، الصادقة وسط فوضى ونفاق وقسوة الآخرين، متنفَّس التعبير، ولو بالرموز، الحلم، منبر الرفض لشتَّى أنواع الاستبداد العائلي والاجتماعي والسياسي والعسكري الخانق الذي كان البلد يرزح تحته. كنا ننسى كل شيء، وننسى أنفسنا عندما ننغمس بكل حواسِّنا في تمارين وبروفات عمل مسرحيّ، اكتشاف إمكانيات الجسد، الصوت، الحس العالي. شعور بالنشوة والمتعة منقطع النظير.

عندما كنت أرافقها إلى كراج السيارات الذاهبة إلى النجف، أنتظرها أوَّلًا تحت النخلة التي اعتدنا اللقاء قربها أمام سكن الطالبات، وكانت تخرج بهيئة امرأة أخرى تمامًا. محجَّبة، ثوب طويل وعباءة تغطيها بالكامل باستثناء وجهها. فكنت أضحك في البداية وتنهرني ضاحكة، وأذكر أنني التقطت لها صورتين بهذا اللباس. كل شوارع الأعظمية وأزقَّتها ومقاهيها عرفت خطواتنا؛ لكثرة ما جُبْنَاها مشيًا، شارع «المغرب»، شارع «سِعدة»، «مقبرة الإنكليز»، «قاعة الرباط للعروض الموسيقية»، «حلويات راس الجسر»، «كورنيش الأعظمية»، «مقبرة الإمام الأعظم»، مقهى «السفينة»، «نادي الطلبة السودانيين»... وفي العطل الصيفية كنا نعاني من الفراق كثيرًا، لكننا اتفقنا على اللقاء في منتصفها، ولو ليوم واحد في بغداد، بأية حجة تتعلق بالكلية. كما كنا نضع مشاريعَ نُشغل أنفسنا بإنجازها، قراءة كتب عن المسرح، كتابة نص مسرحي، كتابة مقالات عن عروض شاهدناها أو تتناول تنظيرات مسرحية جديدة، وكنا ننشرها كلها باسمي ونتقاسم مكافآتها المادية؛ ذلك أن زهراء تخشى النشر باسمها،

ولو نشرت باسم مستعار سيصعب عليها الحصول على المكافأة... ومن أجل المزيد من المال، كان الدكتور ياسين يُشركنا كمساعدين له في أغلب المسرحيات التي يُخرجها بتكليف من وزارة الثقافة. كل الطلبة والأساتذة، وحتى عمَّال المقاهي التي كنا نرتادها، كانوا على يقين من أننا نُحب بعضنا، وإذا ما التقوا أحدنا منفردًا يسألونه عن الثاني مباشرة، إلا أننا في الحقيقة لم نعترف لبعضنا بحبنا صراحة إلا بعد مرور عامين، وكانت تلك لحظة نادرة وعجيبة يصعب نسيانها. لم نكن في حديقة نادي الطلبة السودانيين، ولا في كافتيريا المعهد البريطاني، ولا في الكلية أو في المسرح، وهذا ما كان يفترض أن يحدث، وإنما في مقبرة، حيث تسلَّلنا إليها ذات مساء عند عودتنا من كورنيش الأعظمية. مقبرة قديمة توقَّف الدفن فيها بعد أن حاصرتها البيوت فأُهْمِلَت وتُرِكَت بلا حراسة حقيقيَّة أو عِناية. حال دخولنا فيها، شعرنا بأننا ندخل في عالم أو حالة روحية مختلفة، كأننا نتذكَّر الموت لأول مرة، على الرغم من أنه يحاصرنا في كل لحظة أيام الحرب، فانهالت تداعياتنا عن معنى الحياة والوجود ومعنى الموت، وفكَّرنا لأول مرة بالماضي الذي استحضرته قبور هؤلاء الأسلاف، وبالمستقبل الذي ينتظرنا. كنا جالسين على العشب، متجاورين، ومسندي ظهرينا إلى جدار غرفة قبر كبير، تحيط بنا الشواهد والأشجار من كل جانب، حين قلت لها لأول مرة: «أحبكِ»، فردَّت على الفور: «أحبكَ»، فتعانقنا... وبكينا.

بعدها صرنا نلتقي في هذا المكان، كلما أردنا الخلوة للحديث عن حبنا الخاص، ونمضي ساعات طويلة بالتقبيل والملامسات، بعيدًا عن أعين الجميع عمومًا، وعن أعين دوريات شرطة الآداب بشكل خاص. كنا نعيش لحظاتنا بامتلاءٍ؛ عشقًا لبعضنا وللمسرح وللحياة. نعيش اللحظة بلحظتها كما علَّمَنا الدكتور ياسين، ولم نفكر بالمستقبل، إلى أن أوشك عامنا الدراسي الأخير في الكلية على الانتهاء.

كان من الصعب علينا تخيُّل افتراقنا ومغادرة بغداد بمسارحها

وشوارعها ومقاهيها؛ فقرَّرنا الزواج، وكلٌّ منَّا أخبر أهله بأن الذي ينوي الزواج منه طالب في قسم المسرح، في كلية الفنون، دون أن نخبرهم بأننا نحن أيضًا ندرس في هذا القسم، وكان الرفض القاطع متوقَّعًا، وخاصة من أبوينا، وليس من بقية أفراد عائلتينا، كما توقَّعنا مقاطعتهم لنا بعد أن تزوَّجنا ضد إرادتهم...

قرَّرنا قضاء بقية حياتنا كلها في بغداد، فهنا استطعنا أن نكون نحن كما نريد، هنا وِلدنا من جديد بإرادتنا وبعيدًا عن أبوينا. هنا نلنا حريتنا الخاصة. هنا أحببنا بعضنا، هنا المسرح، هنا أحلامنا... وهنا سنموت.

كان الأمر أهون بالنسبة لي؛ لأن علاقتي بأبي صارت شبه مقطوعة، ولم أكن أراه إلا مرة واحدة سريعة في الشهر، في مقهى «أم كلثوم»، الذي يرتاده بشكل شبه منتظم. نحتسي الشاي على عجل دون كلام تقريبًا ويعطيني أربعين دينارًا، عشرة لي وثلاثين لأمي وأختي. لم نتحدث في تفاصيل شخصية سوى ما أخبرني به قبل أكثر من عامين عن ولادة أخوين لي، توأم ذكور. كان يبدو راضيًا بحياته، بل وربما سعيدًا، حيث تجدَّد أمله بأن يكون لديه ابن ضابط في الشرطة، كما أحسَّ بنفسه قد صار أكثر مدينيَّةً منه ريفيَّة، بعد أن تزوج امرأة بغدادية أصلًا وفصلًا، مع ذلك اعترض على زواجي من زهراء بِحِدَّة، كاعتراضه على رغبتي بدراسة المسرح قبل خمسة أعوام.

- 9 -

جسَّد الدكتور ياسين التعويضَ الأمثل عن أبوينا، كما عوَّدنا، وكان أسعد معارفنا بزواجنا. سهَّل كل ما يتعلَّق به، وكان شاهدًا عليه، وأهدانا ليلة عرسنا في فندق «المنصور ميليا»، رقَص وشرب في تلك الليلة حتى الفجر، وبعدها بيومين، أعطانا مفتاح بيته لنقضي فيه شهر العسل، وسافر لقضاء العطلة الصيفية كلها في برلين وإخراج عمل مسرحي هناك. كان بيته مَتحفًا حقيقيًّا لكل ما يتعلَّق بالمسرح: صور كُتَّاب ومخرجين،

بوسترات وإعلانات مسرحيات شهيرة، لوحات لمشاهد مسرحية، أزياء أزمنة وثقافات مختلفة، رفوف كتب، أقنعة وتماثيل صغيرة في شتَّى أرجاء طابِقَيْ الدار، وعلى الدَّرَج بينهما، وفي المطبخ، والحديقة. ثمة دكَّة خشبيَّة في إحدى زوايا صالة الجلوس، بارتفاع نصف متر، عُلِّقَت على جانبيها ستارتين. مسرح بيتي، حدَّثنا عنه ذات مرة، وقال بأنه يقدِّم فيه مع أصدقائه، بين الحين والآخر، بعض المشاهد المسرحية المونودرامية ضمن سهراتهم، كما يتَّخذه مختبرًا لتدريباته الشخصية، وتصوراته وتخطيطاته لإخراج أعماله المسرحية. هناك على تلك الدكة غَنَّت زهراء ورقصَت بقميص النوم في مشهد ساحر يستحيل نسيانه، ورقصتُ معها. عشنا ومارسنا الحب ومثَّلنا مشاهدَ كوميدية مرتجلة عن مشادَّات الأزواج التقليديين وضحكنا كثيرًا. قالت بأنها أحبَّت هذا البيت وتريد أن يكون لنا بيت مثله في المستقبل... أمضينا شهر عسل حقيقي، عشناه بكل تفاصيل سعادته، دون أن ننسى البحث عن مكان لعيشنا قبل عودة الدكتور ياسين من برلين. عثرنا على غرفة بإيجار رخيص يناسب إمكانياتنا، ضمن بيت قديم في منطقة «الحيدر خانة»، بيت بغرفتين وصالون ومطبخ وحمام. تسكن في الغرفة الثانية الأرملة الطيبة أم حسين، صاحبة البيت، مع صغارها الأربعة، وعلى الرغم من أن غرفتنا كانت خالية من أية قطعة أثاث، إلا أننا كنا سعداء بها. وضعنا فراشنا الزوجي على أرضيتها في إحدى الزوايا، وفي الزاوية المقابلة حقائب وصناديق كارتونية لأشيائنا، وطرَّزنا الجدران من حولنا بعشرات المسامير التي كنَّا نعلِّق عليها ملابسنا وكلِّ ما يمكن تعليقه. كنا سعداء في عُشِّنا الفقير هذا، نأوي إليه بعد تسكُّعات طويلة في بغداد بين المسارح والمقاهي والمكتبات.

راحت زهراء تنشر مقالاتها باسمها الصريح، وإذا احتجنا إلى بعض المال أحيانًا نستدينه من الدكتور ياسين فيمنحنا إيَّاه بمحبَّة، وهو يدرك بأننا قد لا نتمكن من ردِّه. أسند لزهراء دورًا رئيسيًّا في مسرحية تنتجها دائرة السينما والمسرح، وحاول التوسُّطَ لي لقضاء خدمتي العسكرية

الإلزامية ضمن دائرة المسرح العسكري، لكنه فشل؛ بسبب كثرة وساطات متنفِّذين آخرين لمعارفهم أو مقابل رِشْوات، والتي تمَّ بموجبها تنسيب العديد من الخريجين الذين لم يكونوا من الطلبة المتميِّزين في القسم، بل وبعضهم لا علاقة له بالمسرح ولا يحبُّه.

من حسن الحظ أن التدريبات العسكرية الأولية لي كانت قريبة، في معسكر «التاجي»، دامت ثلاثة أشهر قبل نقلي إلى البصرة، وكنت أتمكَّن من قضاء نهاية الأسبوع مع زهراء.

أثناء ذلك التقيت بأبي في مقهى «أم كلثوم» لآخر مرة، وأخبرته بأن يتدبَّر وسيلة غيري لإيصال المال الشهري إلى أمي وأختي؛ لأنني لن أتمكَّن من المواظبة على ذلك بانتظام، طالما أنا في الجيش، الذي لا أعرف أين ستكون فيه تنقُّلاتي ولا مواعيد إجازاتي. في ذلك اللقاء جاء بصحبة توأميه. طفلان في الرابعة من عمرهما تقريبًا، متشابهان حدَّ التطابق في كل شيء بحيث يصعب التمييز بينهما، وزاد من هذا التطابق ما لاحظته من أثر ممارسة تربيته لهما بالأسلوب ذاته الذي درَّبني عليه في صغري: شعر قصير، طاعة تامَّة، وملابس شبه عسكرية، وحتى اسماهما عسكريَّان: (عقيد وعميد). استغربا حين قال لهما عني: هذا هو أخوكما الكبير. صافحتهما، مسَّدْتُ على رأسيهما وضممتهما على صدري قليلًا. لم أشعر بشيء خاص نحوهما، ولا بتلك العاطفة التي كنت أتخيَّلها حين كنت في سنِّهما وأحلم بأخ أصغر أو أكبر مني لأشاركه اللعب والمغامرات التي كنت أشارك فيها «منهل» عند زيارتنا لبيت خالي. كأنهما طفلان لا يخصَّانني بشيء، ربما لأنهما يشبهان أبي، أو ربما لأنهما يشبهانني حين كنت في سنِّهما، ومثلما لم تكن طفولتي ملكي وإنما ملك أبي. شعرت بأنهما يخصان أبي، والأمر الإيجابي في وجودهما أنهما أشعراني بمزيد من التحرُّر من هيمنة أبي عليَّ بعد أن فقد الأمل مني وعقده عليهما.

في أول إجازة لي بعد انتهاء المرحلة التدريبية العسكرية الأولى، ذهبت برفقة زهراء لزيارة أمي وأختي، وكانت تلك أول وآخر مرة يريان زهراء فيها.

أمضينا يومين هناك، وشهدت نقل كل الأعباء على كاهل أختي «انضباط»: المزرعة، والبقرة وعجلها، والدجاجات، والرعاية الكاملة لأمي بعد أن أصيبت بشلل نصفي منذ عام، وصارت أكثر نحافة وشحوبًا وشيخوخة. عند انحنائي لاحتضانها وتقبيلها للوداع وهي ممدَّدة في السرير، سال دمعها مدرارًا وهي تقول: لا تَغِبْ عني طويلًا يا حبيبي، لم أشبع من رؤيتك في حياتي، وأرجو ألَّا تحرمني من رؤية أبنائك قبل أن أموت.

- 10 -

عانت زهراء كثيرًا من أوجاع حمل لم يكن طبيعيًّا منذ البداية، وكلَّفتنا مراجعاتها للأطباء كثيرًا، لكنها بقيت زهراء القوية العنيدة التي أعرفها وأعشقها، ومنذ أن عرفنا بأن الجنين أنثى كنَّا نتجادل طويلًا حول اختيار الاسم، ونتصوَّر التفاصيل الجميلة فقط، التي ستكون عليها حياتنا معًا، دون التفكير بالمسؤوليات والصعوبات التي ستدخل حياتنا. كنت أتمنَّى لو نسمي طفلتنا «انضباط»؛ تعبيرًا مني عن مدى حبي لأختي، ومكافأة معنوية لها عن خساراتها للدراسة والحرية ولحبيبها، وعن تضحياتها من أجلي، والأكثر من أجل أمي، لكن إقناع زهراء بهذا الاسم الغريب كان مستحيلًا بالطبع، وإن كان الاسم الذي حاولت جاهدة إقناعي به أكثر غرابة؛ فبعد أن استعرضَت أسماء الكثير من شخصيات المسرحية التي تحبها. قالت نسميها «هاملت»، فانفجرتُ أنا بالضحك لحظتها، وضحكت هي على ضحكتي في البداية؛ لكنها سرعان ما استعادت جديتها وبقيت لأيام طويلة تحاول إقناعي به، قائلة بأنه سيكون مختلفًا ومتميِّزًا في مجتمعنا، وأغلب الناس لا يعرفون بأنه اسم شخصية ذَكَر، عدا عن أن هناك الكثير من الأسماء المشابهة التي تطلق على الذكور والإناث على حدٍّ سواء، وتنتهي بالتاء: ميرفت، عصمت، حشمت، دولت... وغيرها.. أو يمكننا أن نؤنِّثه هكذا: «هاملتة»، فأقول لها ممازحًا: دعك من هذا الاسم يا هاملة... ونضحك.

في النهاية لم أقنعها ولم تقنعني، لكننا لم نَكُفَّ أبدًا عن ممازحة بعضنا ضاحكين حين أناديها «أم هاملت»، وتناديني «أبو انضباط». حتى بعد أن توصَّلنا إلى اتفاق أحببناه وأحببنا بعضنا أكثر، حين قلت لها نسميها «زهراء»، وقالت لي نسميها «أميرة» فتعانقنا، وحسمنا الأمر بأن يكون اسمها مُركَّبًا «أميرة الزهراء».

بفضل هذه الذكرى، ترجَّلتُ مبتسمًا من الحافلة التي أقلَّتني من البصرة إلى بغداد، تأكَّدت من أن حقيبة البريد العسكري لا زالت معلَّقَةً في رقبتي، وأوقفت مباشرة أول تاكسي رأيته: إلى مستشفى الكرخ للولادة من فضلك.

لم أفكِّر لحظتها بقلَّة النقود في جيبي، خمسة عشر دينارًا، وهي نصف ما تبقَّى من راتبي. لا أدري لماذا جعلوا راتب الجندي المكَلَّف هو أقل الرواتب، على الرغم من أن الجندي هو أكثر من يقع عليه العبء في الجيش والدولة كلها. يقولون: «لأنك تقوم بواجب وطني». إذًا لماذا يهين الوطنُ من يؤدُّون الواجب له! طلبت من السائق أن يسمح لي بالتدخين، فرَدَّ: وأنا أدخِّن أيضًا.

أعطيته سيجارة ودخَّنَّا. كنت أنظر من النافذة إلى الناس، والسيارات المارة، وواجهات المحلات، لكنني لم أكن أراها؛ لأن كل كياني يفكِّر بزهراء ويود الطيران إليها؛ لذا حال دخولي ورؤيتها ممدَّدة في السرير، هبطت عليها مقبِّلًا جبينها وعينيها. كانت عيناها محاطتين بسواد كأنه كدمات. وجدتها مرهَقة ومفزوعة، ولأول مرة سمعتها تذكر الله كثيرًا في كل جملة. فمنذ أن عرفتها، وجدتها قد أقفلت على كل ما تعلَّمَتْه وربَّاها عليه أبوها من تديُّن. لم يكن للدين أي جود في حياتنا، ولا أذكر إلا مرة واحدة طلَبت مني أن ندخل للصلاة في مرقد الإمام، فانتظرتها خارجه؛ لأنني لم أكن أعرف كيف أصلي أصلًا، ولم ألمس للدين أي وجود في ذهن وحياة أبي، وبالتالي لم يصبح له وجود في حياتي.

جلستُ على الكرسي المجاور لرأسها. وضعت كفي على كفِّها التي

على بطنها ولم تكن مربوطة بأنبوب المغذِّي، قلت لها: سيكون كل شي على ما يرام... يا أم هاملتة.

فندت عنها ابتسامة خفيفة، وبصوتها الواهن راحت تحدِّثني عمَّا عانته من أوجاع مُعذِّبة في الأيام الأخيرة وعجزها عن النوم. قالت إن الأطباء يقترحون القيام بعملية قيصرية وبتخدير كامل، وأنها خائفة من الموت. فمسَّدْتُ على رأسها، وطبعتُ قُبلة على فمها هذه المرة: لن تموتي، فما هذه المليارات من الكائنات إلا وجاءت إثر عذابات الولادة، والتي سرعان ما ينسونها. اهدئي يا حبيبتي.

قالت: إن متُّ، فحدِّثْ أميرة الزهراء عني دائمًا ولا تتزوج من بعدي إلى أن تكبر، وتسمح لك هي بذلك.

فابتسمت وأنا أمسِّد شعرها بكفي: دعكِ من هذاه الكلام يا زهراء، فلن تموتي، ولن أتزوج، وأنتِ التي سوف تحديثنها عني بنفسكِ.

دخل طبيب بصحبة ممرضتين، ووقَّعتُ على عدة أوراق لم أقرأ منها أية كلمة، وأخبرونا بأنهم سيأخذونها إلى غرفة العمليات حالما يتم تجهيزها. ربما خلال ربع ساعة أو أقل، وشجَّعونا ببضعة كلمات وابتسامات قبل أن ينسحبوا.

أخبرتُ زهراء بأنها حين تستيقظ لن تجدني؛ لأنني مضطر للعودة إلى وحدتي العسكرية، وحدثتها باختصار عن كيفية حصولي لإجازة النزول هذه، وإنها لمدة 24 ساعة فقط، أُسلِّم خلالها بريدًا عسكريًّا وأعود. خرجتُ من هناك في الساعة العاشرة صباح اليوم، وعليَّ أن أكون هناك في الوحدة العسكرية صباح الغد، وبأنني سأحاول الحصول على إجازة أخرى في أقرب وقت... وحين جاؤوا ليأخذوها، رافقتها سائرًا بجوار السرير الطبي ذي العجلات وكفي بكفها إلى أن أدخلوها صالة العمليات. قبَّلتُ كفَّها سريعًا، وقلت لها: كوني قوية.

فقالت: ادعُ لي أرجوك، ادْعُ لي.

ثم غيَّبوها خلف الباب، وخرجتُ أنا مسرعًا إلى الشارع كي أُدخِّن.

- 11 -

كلَّما دخَّنتُ سيجارة خارج بوابة المستشفى عاودت الدخول، أقف أمام باب صالة العمليات، ثم رواحًا ومجيئًا لبضع خطوات في الممر. عشر دقائق أو ربع ساعة ثم أخرج للتدخين... وهكذا. كنت مضطربًا، مشوَّشًا، ولا أعرف حتى ماهيَّة شعوري هذا. حالة وجَل مكثف، انتظار، لا أدري كم طال، مع أنني كنت أنظر في كل دقيقة إلى الساعة في معصمي ولا أقرأها. إلى أن انفتح الباب وريقي ناشف، وكل جسدي منهك يكاد يسقط من التعب. صاروا يخرجون تباعًا، وكلهم ملثَّمون. اثنان يدفعان السرير الذي لمحت فوقه زهراء نائمة. توقَّف أحِدهم أمامي وقال دون أن ينزل الكمامة عن وجهه: كانت عملية صعبة؛ ولكن تمَّت بنجاح والحمد لله.

تفور مشاعري متقلِّبَةً من حال إلى حال، لا أدري ما هو بالضبط، ومن بينه ثانية ارتياح، وثانية بهجة بعد ما قاله لي، ثم ابتعدَ في الممر واقتربَت المكمَّمة التي أتت خلفه وقالت لي: تفضل معي.

فتبعتها وهي تحمل أوراقًا، إلى أن دخلنا مكتبًا صغيرًا في الممر. جلست خلف المنضدة، أزالت الكمامة من على وجهها، ووضعت الأوراق التي في يدها أمامها تدوِّن فيها قائلَة: تفضَّلْ اجلس.

فجلست على الكرسي الذي أمام الطاولة وسألتني عن اسم الطفلة، فقلت: «أميرة الزهراء».

رفعت رأسها باستغراب: الاثنان؟

قلت: اسم مُرَكَّب... أنا اسمي أمير وأمها اسمها زهراء.

فتبسَّمت معلِّقَةً: حَلٌّ جميل.

لحظات من الكتابة، ثم دفعت لي بالورق: وقِّعْ هنا، وهنا، وهنا.

استلَّت إحدى تلك الأوراق وأعطتها لي وهي تنهض قائلة: شهادة ولادة.

حين بدا أنها تنوي الذهاب، وقفت أنا الآخر وقلت لها: أريد رؤيتها.

فقالت: مَن؟ وقبل أن أُجيبها أكملت: الاثنتان متعبتان بعد العملية المُتعِبة. دعهما تخلدان للراحة الآن، وأنت أيضًا اذهب لترتاح وتعال غدًا.

فتوسَّلْتُ بها: أرجوكِ. أنا جندي في البصرة وعليَّ الالتحاق بعد ساعات.

وقفت صامتة وهي تنظر إليَّ وتفكِّر، وكأنها تنتبه لأول مرة إلى ملابسي العسكرية، ويبدو أن شكلي كان يُرْثَى له ويثير الشفقة، فقالت: حسنًا... انتظر لحظة.

خرجَت، فيما بقيتُ أنا واقفًا في مكاني وكفي في جيبي تقلِّب علبة السجائر، أقاوم رغبة عارمة بالتدخين، إلى أن عادت وبيدها كيس بلاستيكي فيه قطع بلاستيكية أخرى. راحت تُخرجها تباعًا وتدفعها لي كي أرتديها فوق ملابسي، كيسين في القدمين، كيس في الرأس، قفازات وثوب واسع، ساعدتني في ربطه خلف ظهري، ثم قالت: اتبعني.

فتبعتها في الممرَّات التي شعرتُ بأنها لا تنتهي. كأننا سرنا دَهرًا إلى أن دخلنا في باب كُتب أعلاه «ردهة الخُدج»، فرأيت صالة باتساع الصحراء محتشدة بالحاضنات، صناديق زجاجية مرصوفة بانتظام لا نهاية لصفوفها، وفيها أجساد بشرية عارية لم أر أصغر منها في حياتي، وكلها بلون واحد، حمراء قانية كأنها قطع أكباد، وأنا سائر بينها، لمحت بعضها يلوِّح لي بذراعيه الصغيرتين كأنه مختنق يستنجد، فأحاذر أن يمس جسدي الصناديقَ وأنا أمرُّ من بينها، إلى أن وقفَت جوار أحدها وقالت: هذه هي أميرة الزهراء.

ابتعدَت خطوتين إلى الوراء فاسحة لي المجال، فحدَّقتُ بالكائن بالغ الصغر خلف الزجاج وقد أُوصِلت بجسده العاري أنابيب وأسلاك لم أتبيَّن عددها، لم أسمح لعيني حتى أن ترمشا وأنا أحاول تبيُّنَ أي حركة تندُّ عن قطعة اللحم هذه، إلى أن لاحظت بصعوبة، ارتفاع

الصدر وانخفاضه كدليل على التنفس. ذراعان صغيرتان بطول إصبعي الوسطى تقريبًا، وفي نهايتهما قبضتان مغلقتان. ركَّزتُ في الوجه الصغير أكثر إلى أن خُيِّل لي أني رأيتها تفتح عينيها، نظرَت إليَّ وابتسمت.. بل وسمعتها تقول: «بابا»، ثم أغلقت عينيها ونامت، فوجدت كفيَّ تمتدان نحوها كأني أريد رفعها كي أضمَّها إلى صدري؛ لكن أصابعي اصطدمت بالزجاج، ومع ذلك لم أتوقف عن التحرك، التحسس، واللمس بحنان.. إلى أن سحبتني كفٌّ من ذراعي وقادتني إلى خارج الردهة، ثم ابتعدت وهي تقول لي شيئًا لم أتبيَّنه. بقيت واقفًا في مقامي أُحدِّق بالباب الموصود الذي خرجنا منه، وأنا أتخيَّل خلفه آلاف الأذرع الصغيرة تلوِّح لي، ومن بينها صوت ناعم كزقزقة طائر يهتف بي: «بابا، بابا، بابا». مشيت في الممرات الطويلة دهرًا آخر، باحثًا عن زهراء إلى أن عثرت عليها، فوجدتها تغطُّ في نوم عميق، غائصة وسط الشراشف كملاك بين الغيوم، ولا شي يتحرَّك منها إلا صدرها صعودًا وهبوطًا، هممتُ بتقبيل جبينها؛ لكنني خشيت إيقاظها، وتمنيت لو أنني أتمدد بجوارها وأنام بعمق مثلها، لأسبوع كامل. جلست على الكرسي القريب من رأسها دون أن أحوِّل نظري عن وجهها، وبقيت على هذا الحال طويلًا إلى أن بدأتُ أشعر بأنني أعود إلى الواقع تدريجيًّا، كمن يصحو من الإغماء، فداهمتني، مرة أخرى، حاجتي إلى التدخين، ولا أدري كيف تناولت كفَّها التي لم تكن مربوطة بأنبوب. مسَّدْتُها وتحسَّسْتُها بأخف وأرق ما أستطيع، كما تحسَّست طفلتنا من خلف الزجاج. كانت مرتخية، مستسلمة، طرية كقطعة جبن... ومفتوحة، فقبَّلتُها وقلَبت راحتها مبقيًا شفتيَّ هناك طويلًا، وحالما رفعت وجهي، رأيت قلمًا ملقى على الخزانة الواطئة القريبة، فتناولته، وكتبت في راحة كفها: «أميرتنا الزهراء الصغيرة... جميلة مثلكِ. أحبكِ»، وأعدت القلم، لكنني وجدت نفسي أتناوله مرَّةً أخرى وأضيف كلمة أخرى، تحت «أحبكِ».. كتبتُ: «أحبكما»... وخرجت.

انطلقتُ نشوانَ باتجاه ساحة «الشهداء» وكان شعورًا جديدًا ينتابني، له علاقة بكلمة (أحبكما). عاطفة تتَّسع في قلبي، حب حقيقي إضافي... فكَّرت أن هذا -ربما- ما يسمُّونه عاطفة الأبوَّة، وبعد الشعور بالارتياح من أن كل شيء قد تمَّ على ما يرام، بدأت أحسُّ بما حلَّ بجسدي من تعب إثر السفر، وقلة النوم، والقلق، وكثرة التدخين، وثِقَلِ هذه الجزمة العسكرية، التي كنت أحملها في قدميَّ أكثر ممَّا كانت تحملني، كما شعرت بالجوع، منتبهًا إلى أنني لم آكل شيئًا منذ الأمس، فدلفتُ إلى أول مطعم شعبي مررت به، دخلت إلى الحمَّام مباشرة، غسلت يديَّ، وجهي، رقبتي ومسحت بالماء على رأسي فانتعشت قليلًا، وخرجت للجلوس على إحدى الطاولات التي كانت قرب الباب، تطل على الشارع. طلبت وجبة أرز ومرق فاصوليا باللحم وسلطة ورأس بصل أخضر ومخللات ورغيفَي خبز. التهمتها كلها بسرعة وشراهة ومتعة، ثم دفعت الحساب المطلوب دون الاكتراث بقلة ما في جيبي، وخرجت مستعيدًا طاقتي. اتجهت إلى مقهى قريب، تغطي مقاعده فسحة خارجية متداخلة مع الرصيف. أشتريت علبَتَيْ سجائر من صبي كان يجلس على صفيحة مقلوبة في طرف المقهى، ثم جلست على طاولة منفردة، مسند كرسيها يستند على جدار الواجهة، وطلبت شايًا. وهكذا بقيت قرابة الساعة والنصف أو الساعتين، أُوالي رشف أقداح الشاي وتدخين السجائر دون توقُّف، وأحدِّق بمن حولي، وبالمارَّة، دون أن أراهم، رغم ضجة السوق، باستثناء الأطفال، كأنني أنتبه إلى وجودهم في هذا العالم لأول مرة، فقد كانت عيناي تتابعان أي طفل صغير يمر محمولًا على صدر أمه أو ماشيًا بجوارها متعلِّقًا بأذيالها أو مسحوبًا من كفِّه التي في كف أبيه، أتابعه بقلب خافق حتى يبتعد أو يغيب في الزحام أو دكان قريب، وبعضهم كان ينتبه لنظراتي فيبادلني إياها وأبتسم له، أو ألوِّح له بكفي فَرِحًا. فيما مضى كنت أتابع مرور النساء والفتيات الجميلات وحسب، ولا أنتبه أبدًا لوجود الأطفال في العالم.

تحسَّست حقيبة البريد العسكري التي لم تفارق كتفي، فكَّرت بالذهاب إلى معسكر «التاجي» لتسليمه، ثم العودة إلى المستشفى لرؤية زهراء والسهر معها قليلًا قبل العودة في الوقت المناسب إلى البصرة، ومن ثم إلى وحدتي العسكرية، حيث سيستغرق الطريق قرابة السبع ساعات أو الثماني، وعليه سوف أحسبه على هذا النحو كي أبقى برفقة زهراء حتى آخر دقيقة من إجازتي، وإن سمحوا لي برؤية طفلتي مرة أخرى سيكون ذلك قمَّة المُنى، عندها سأتأكد أكثر من تنفُّسها، والأهم، من أنها قد فتحت عينها أم لا.

حين بدأت المصابيح تُضاء من حولي في السوق، أدركتُ بأن الغروب قد انتهى وبدأ الليل، فعكستُ خطَّتي؛ لأن المعسكرات والمقار العسكرية لا تنام، ويمكن الذهاب إليها في أي وقت، حتى في الليل، وتسليم البريد إلى الاستعلامات أو الحُرَّاس الخَفر؛ لذا قرَّرت العودة إلى المستشفى أوَّلًا، علَّ زهراء تكون قد صحت من آثار التخدير وتحتاج شيئًا يمكنني أن أجلبه لها من السوق قبل أن يقفل أبوابه، لكنني وجدتها غاطَّةً في نومها كما تركتها، بل بدت أكثر عمقًا في نومها، من خلال طبيعة ازدياد تنفُّسها وبعض الشخير الخافت. لم أستغرب ذلك، مفكِّرًا بمدى التعب الذي عانته مؤخَّرًا، مضافًا إليه تأثير المخدِّر؛ لذا تخلَّيت عن رغبة تمسيد شعرها أو وضع كفي على كفها؛ كي لا أزعجها. اكتفيت بالجلوس على الكرسي المجاور لها ونقل بصري بينها وبين الباب المفتوح، إلى أن عبرت ثم عادت مسرعة الممرضة أو الطبيبة ذاتها التي سجَّلت اسم «أميرة الزهراء» وقادتني لرؤيتها. أقبلَت مسرعة وقادتني من ذراعي هامسة بصوت واطيء: كنتُ أبحث عنك، تعال من فضلك.

تبعتها حتى المكتب، وهناك تناولَت أوراقًا من على المنضدة وقالت: أنا آسفة أن أخبرك بذلك، ولكنه كان متوقَّعًا؛ لأن الوليد أصلًا بالغ الضعف ولديه مشاكل صحية.

لحظتها اختفى كل صفاء ذهني الذي استعدته في استراحة المقهى.

عاد التشوُّش والشعور بالكابوسية وعدم واقعية ما أنا فيه، ومن خلاله كنت أسمعها تواصل الكلام الذي لم ألتقطه كله.

- ما زلتما شابَّيْن، وأمامكما وقت طويل وفُرص أخرى لإنجاب الكثير من الأبناء. هذا طبيعي ويحدث كل يوم، وخاصة في الولادات الأولى المتعثِّرة.

إلى أن سمعتها تقول: وقِّع هنا.

فوقَّعْتُ على ورقتين، قرأتُ في أعلاهما عنوانًا بخط بارز «شهادة وفاة». وضعَت نسخة على المنضدة وأعطتني النسخة الأخرى بعد أن ختَمتها. مسَّتني من ذراعي كي أتبعها، ففعلْت. سرنا دهرًا في العتمة إلى أن وصلنا الباب الذي يحجب خلفه شعبًا من الدُّمَى البشرية الصغيرة العارية. أوقفتني هناك، ودخلت وحدها ثم عادت بعد دَهر، وهي تحمل على راحتيها واحدة من تلك الكائنات الصغيرة، لكنها لم تكن عارية هذه المرة، وإنما ملفوفة بقماش أبيض بأكملها كأنها وسادة صغيرة. وضعتها في راحتَيَّ، ثم ربتت على ذراعي وهي تقول: البقاء في حياتك. كُنْ قويًّا كي تستمدَّ الأم منك قوتها. الله أعطى والله أخذ. لروحها الرحمة ولكم الصبر والسلوان.

ثم ربتت على ذراعي مرة أخرى، بل وقبضت عليها بكفِّها، ضغطت بحركة تعاطُف وإشارة شَدِّ عزيمة.. وغادرت.

أحسستُ بكفَّيَّ ترتجفان وجثَّة ابنتي تكاد تسقط. سارعت بضمِّها إلى صدري، ثم سرت تائهًا في الممرَّات الطويلة، إلى أن وصلت إلى سرير زهراء التي لا زالت نائمة وتشخر. بقيت واقفًا لوقت طويل وأنا لا أدري ما الذي عليَّ فعله الآن. هل أُوقظها عنوة؟ لماذا؟ وماذا سأقول لها؟ هل أترك الطفلة جوارها أو على صدرها وأهرب عائدًا للجيش الذي لا أستطيع الهرب منه؟ أُحسُّ بِريقي ناشفًا، عيناي ناشفتان، بل وجسدي كله ناشف، ويرتعد. لم أر في حياتي إنسانًا ميِّتًا على الإطلاق، وها أنا أحمل بين ذراعي وعلى صدري جثَّةَ إنسان ميت... وأي إنسان!

إنها ابنتي، يا للهول! ما الذي عليَّ فعله الآن؟ أعرف بأن الخطوة اللاحقة للموت هي الدفن؛ ولكن لا علم لي على الإطلاق بكيفية فعل ذلك. لا بُدَّ وأن ثمة أصول معيَّنة قد مرَّت على مسامعي من قبل، تتعلَّق بدِين أو تقاليد. تغسيل الميت، تكفينه، الصلاة عليه، دفنه، تَلقينه، ومن المؤكد أن لهذه الأمور تفاصيل كثيرة، وربما إجراءات أخرى. تُرَى: هل أن الأصول مع الطفل الرضيع هي ذاتها مع الميِّت البالغ؟ هل تختلف بين الذكر والأنثى؟ وكيف يفترض بالقبر أن يكون؟ تُرَى: هل جثَّة طفلتي الملفوفة هذه قد تمَّ غسلها، وهذا اللفاف الأبيض هو الكفن؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف وأين سأدفنها؟ ماذا سأفعل؟ كم أنا بحاجة إليكِ يا زهراء. إلى قوتك وتماسكك في اللحظات الصعبة، لكن لحظة كهذه يفترض بي أن أكون أنا الأقوى، وأخشى أنني لو أيقظتك عنوة سوف يصدمك الحال فيصيبك الجنون أو تموتين، ثم حتى وإن افترضنا أنك ستصحين بكامل وعيك وتمامه، فما الذي بيدكِ أن تفعليه سوى الندب والبكاء، وأنتِ لا زلتِ جريحة البطن، ولا ينقصكِ جرح آخر في القلب... عليَّ أن أتصرَّف وحدي، وأجنِّبها هول الصدمة الآن. استجمعتُ بقايا عزيمتي. ألقيت عليها نظرة أخيرة، وخرجت حاملًا اللفة الطفلة على صدري، وقبل الخروج عرجت على موظفة في الاستعلامات. انتظرتُ خلف امرأة كانت تستعلمهم إلى أن غادرَت، فرفعَت الموظفة هاتفًا كي تتكلَّم، لكنني سارعت وبرجاء، مستنفرًا، لا أدري ما الذي قلته لها، ولكن لا بُدَّ وأن مفاده «ماذا أفعل الآن؟»؛ لأن إجابتها كانت واضحة وسريعة ثم عاودت انشغالها بالهاتف: لا شيء، اذهب وادفنها، وخلاص.

- 13 -

حال خروجي من المستشفى، استقبلتني نسمة باردة فضممت ابنتي على صدري أكثر، وسِرْتُ في الاتجاه نفسه الذي يقودني إلى ساحة «الشهداء». كان الناس أقلَّ، والليل أكثر. عبرت المطعم الشعبي الذي

أكلت فيه، وحين وصلت المقهى راودتني الرغبة بالجلوس على الطاولة الخارجية ذاتها التي منحتني الراحة سابقًا. أن أحتسي المزيد من الشاي وأن أدخِّن، لكنني لم أتوقَّف؛ لأنني لا أعرف كيف سأتعامل مع طفلتي، وماذا سأقول لمن يراها بحضني أو أمامي على الطاولة، ثم إن الوقت يضيق عليَّ ولا بُدَّ لي أن أدفنها قبل زواله. واصلت سيري وأنا ألزها على صدري أكثر، شبه مغطيها بذراعي، حيث لن يستطيع الناظر إليَّ تخمين محتوى هذه اللفة البيضاء، أو قد يتوهَّم بأنها ذراعي، مكسورة. هي بالفعل إحدى ذراعَيْ حياتي، مكسورة، والذراع الأخرى خلفي راقدة في المستشفى.

كان قلبي مضطربًا، بل وأشعر به يوجعني فعلًا، كأن فأرة في صدري تقضم أطرافه. شعور بالاختناق ينتابني، ومع ذلك أجد في نفسي رغبة لزيادة اختناقي هذا، بتدخين عشر سجائر دفعة واحدة. ربما لهذا، أو لتجنُّب المزيد من الناس. عرجت في زقاق جانبي، أشد عتمة وأكثر وحشة، يقودني إلى ساحة الشهداء، كأنَّ قدميَّ تقودانني للعبور إلى الجهة الأخرى من بغداد، إلى «الرَّصافة» التي أعرفها وأحبُّها أكثر، والفرار من جهة «الكرخ» التي أهدتني هذا الموت بين ذراعي. في «الرصافة» أمضيت أجمل سنوات عمري، الأعوام الأربعة الماضية في الكلية، سكن الطلبة، ساحة «الميدان»، كورنيش «الأعظمية»، باب «المعظم»، المكتبة الوطنية، شارع «الرشيد»، مقاهي المثقفين، مسرح الطليعة، المسرح الوطني، منتدى المسرح، مسرح «الستين كرسي»، مسرح «النجاح»، شارع «المتنبي»، وهناك أيضًا ما يفترض أنه بيتي، الحجرة الصغيرة في بيت «أم حسين» القديم.

لم يكن في الزقاق الذي مررت به إلا قلَّةٌ من العابرين، سرعان ما يدخلون في الأبواب، جَمْعٌ من الأطفال يلعبون الكرة تحت عمود الأنوار وصدى صيحاتهم يملأ الزقاق، قطط تطارد فئران بين أكوام النفايات، ورائحة المياه الآسنة تمتزج بالهواء البارد القادم من جهة النهر. ثمَّة امرأة تصيح بطفلها اللاعب كي يعود إلى الدَّار. ليت أمي قريبة الآن وتناديني

إلى بيتها، إلى حضنها، ليت أختي الغالية «انضباط» هنا. ليت في القرية هواتف. ليت الله يجعل لي مخرجًا، ووجدت نفسي أذكر الله وأتوسَّل إليه على هذا النحو الحقيقي لأول مرة. كل شيء يتلاطم الآن في رأسي وصدري بفوضى عارمة. أترك هذه الصّرَّة على باب أحد البيوت، أرميها قرب كوم قمامة بين القطط، أحملها معي إلى وحدتي العسكرية. لو كنت أملك المال لأجَّرتُ سيارة خاصة تُقِلُّني إلى قريتي التي تقع شمال بغداد على مسافة ستين كيلو مترًا، ولكن لماذا أفعل ذلك وأنا قد انقطعت عن أمي وأختي كل هذه الشهور، رغم علمي أن أمي قد صارت مريضة مُقْعَدَةً، ولم أخبرهما حتى بحمل زهراء، فكيف سأفاجئهنَّ بجثة طفلة ميتة هكذا، ثم الوقت، الوقت لا يتَّسع لمزيد من الاتجاه شمالًا، أريد التدخين الآن حالًا، وهممت فعلًا بإخراج العلبة من جيبي، لكنني خجلت من ابنتي أو خفت منها أو عليها، وعند نهاية الزقاق في الزاوية المشتركة مع ساحة «الشهداء» وجدت كومة من العلب الكارتونية أمام محل مغلق للأحذية، دنوت منها. إنها صناديق أحذية، اخترتُ من بينها أطولها، ربما هو لجزمة أُنثى. كان شكله يشبه التابوت الصغير. قرفصت مستندًا على الجدار في عتمة الزقاق، واضعًا طفلتي على ركبتيَّ وسحبته. تلفَّتُّ حولي، فلم أرَ إلا ظلًا وحيدًا يقترب. سارعت في فتحه، فلم أجد فيه سوى بعض الورق. وضعته على الأرض ومدَّدْتُ فيه جثة طفلتي، فشعرت بأنها ترتاح، أو ربما أنا الذي ارتحت، وقبل أن أضع الغطاء فوقها، خشيت أن يخنقها ذلك. وضعت أصابعي برفق على ما تخيَّلته صدرها كأنني أتأكد من أنها لا تتنفس، لم أشعر بشيء، وظل القادم يقترب، فأغلقت العلبة بغطائها، ثم حملتها تحت إبطي ونهضت باتجاه الساحة، حقيبة البريد العسكري على كتفي الأيسر وتحت إبطي الأيمن صندوق الحذاء، أو تابوت ابنتي، فحوَّلته تحت الإبط الأيسر، وبكفي اليمنى أخرجت علبة السجائر، فتحت غطاءها بالسبَّابة، وسحبت منها سيجارة بأسناني، ثم أعدتها إلى جيبي ورفعت القدَّاحة، أوقدت السيجارة وشهقت الدخان، شهقت بعمق، شهقت لأتنفَّس... شهقت لأختنق.

كانت الساحة مكتظَّةً بالناس والحركة، نصف المحلات المُطِلَّة عليها مفتوحة، محل خضروات، مطعم شعبي، محل تصليح تلفزيونات، مقهى يدخِّن رُوَّادُه الأرغيلةَ ويتابعون أخبارًا تنذر بحرب، امرأة تشتم متحرِّشًا، مُشَرَّدون في أكثر من ركن، مقهى آخر يتصايح رُوَّاده بانفعال هستيري، على الرغم من أنهم يشاهدون إعادة لمباراة كرة قدم بين فريقي ريال مدريد وبرشلونة. أستغرب تفاعُلَهم الحار، على الرغم من أنهم يعرفون النهاية مسبقًا... يا للسخرية! ولكن لِمَ لا؟ أليست حياتنا سخرية أيضًا حين نتفاعل معها بكل هذا الهَوَس والجنون على الرغم من أننا نعلم نهايتها مسبقًا. الموت؟ ربما فعلَت حسنًا ابنتي عندما اختصرتها بساعة وغادرتها. كنت أفكر على هذا النحو وأنا أجتاز الساحة باتجاه الجسر، وعند مدخله نبحت عليَّ مجموعة كلاب سائبة، كانت تأكل من القمامة. لماذا تفعل ذلك؟ هل أحسَّت بالموت الذي أحمله تحت ذراعي؟ أهي تُجِلُّه على هذا النحو أم أنها تطمع بالتهام قطعة اللحم الميتة التي معي؟ سارعتُ الخطى حتى وصلت إلى منتصف الجسر لاهثًا، فتوقَّفت. أسندت الصندوق على سياج الجسر الحديدي ورحت أستعيد أنفاسي، أتأمَّل امتداد الأضواء على الجانبين، هذه آلاف البيوت تحيط بي، ملايين البشر في بيوتهم الآن مع عوائلهم، فيما أنا هنا وحيدًا في المنتصف مع وحيدتي الميتة. سيارات قليلة تمرق خلفي، وأنا أحدِّق تارة في ظلمة السماء فوقي وأعاتبها، وتارة إلى ظلمة النهر تحتي، وأفكِّر بإلقاء ابنتي فيه، أو بإلقاء نفسي معها، ونخلص... ولكن ماذا عن زهراء الحبيبة بعدنا! كنت أتمنَّى وأرغب بالبكاء، النحيب، العويل، الوَلوَلة... وحتى النَدب، لكن الدمع كان مستعصيًا في صدري، وهواءً باردًا يُجمِّد عينيَّ أكثر. واصلت السير والحيرة... والوحدة. عبرتُ الجسر، ثم عرجت إلى مدخل شارع «المتنبي»، شارع المكتبات والمقاهي الذي طالما مررنا به أنا وزهراء. كنا نزوره مرة أو اثنتين في الأسبوع؛ بحثًا عن الكتب النادرة والرخيصة، أو للقاء أصدقائنا من المثقفين. كان الشارع خاليًا تقريبًا إلا من بضعة أشخاص عابرين، وبعض أصحاب المحلات وهم يكملون

إغلاقها، وثمة فئران تجري مسرعة من جهة إلى أخرى. وجدت نفسي أحدِّث «أميرة الزهراء» عن ذكرياتي مع أمها هنا. في ذلك المقهى أعددنا مسرحيتين مع أصدقاء، وتناقشنا طويلًا عن الرؤية الإخراجية وتوزيع الأدوار، في تلك الزاوية قبَّلنا بعضنا ذات ليلة ونحن عائدان من مشاهدة مسرحية لشكسبير. أمك تحب «هاملت»، وكانت تريد أن تسميكِ «هاملت» أو «هاملتة»... فأبتسمُ وأضمُّ العلبة إلى صدري بحنان. شعرت بالتآلف معها، مع موتها، أكثر ممَّا كنت أخافه، وهكذا بقيت أحدِّثها بهمس عن كل ما نمرُّ به، إلى أن وصلنا نهاية الشارع. فاستدرنا يمينًا عبر أحد الأزقة صعودًا إلى شارع «الرشيد». تلك يا «أميرة الزهراء» هي مطبعة «الأنوار»، وذلك الباب القديم الصغير المجاور لها، هو بيت مُجبِّر العظام الذي كسرتُ عنده عظمي كي أكون مع أمكِ في المسرح. من هذا المحل اشتريت أول بذلة زيٍّ موحَّد جامعية، محل العصير هذا، رائع ورخيص، هذا مقهى «الشاهبندر»، هذا مقهى «حسن عجمي» يرتادهما المثقفون منذ عقود، وكذلك فعلنا أنا وأمكِ... أدركت بأنني أسير باتجاه مقهى «أم كلثوم» الذي يرتاده أبي، وأعترف بأنني كنت أريد لقاءه. ليس لرؤيته بالضبط، وإنما لأنني بحاجة إليه الآن أكثر من أي وقت مضى، أحتاج مساعدته المادية والمعنوية، أحتاج نصيحته... وحتى أوامره، أحتاج وجوده، أحتاج أبوَّته، قوة أُبُوَّتِه، أنا الأب الضعيف الجاهل تمامًا بما يفترض بي أن أفعله كأب... خاصة مع ابنتي البِكْر الميِّتة هذه، أحتاج أن أرمي نفسي على صدره وأنفجر بالبكاء.

لاحت لي عن بعد أنوار بوابة المقهى مفتوحًا، فانتفض صدري لأول مرة على هذا النحو وأنا ذاهب للقاء أبي في هذا المقهى. كل المرات السابقة كنت أدفع نفسي إليه دفعًا ثقيلًا، وأحرص على أن تكون لقاءاتنا وحواراتنا أقصر ما يمكن، ثم أهرب بأي حجَّة أختلقها، تاركًا إيَّاه مع جليسه الدائم وهما يواصلان لعب الدومينو بلا كَلَل ولا مَلَل. كلما اقتربت من المقهى زاد سماعي وضوحًا لغناء أم كلثوم التي لا يضع

صاحب المقهى سواها ولا صور لغيرها على كل الجدران والسقف، وقبل وصولي أمام الباب، توقَّفتُ للحظة ألتقط أنفاسي، كما خطرت لي فكرة الهرب، ولكن لم يكن لديَّ أي حلٍّ كهذا أو أفضل منه. نظرت إلى الساعة في معصمي الذي كنت أضمُّ به الصندوق، فوجدتها تشير إلى ما بعد العاشرة بدقائق، فانطلقت وكلي أمل ولهفة هذه المرة أن أجده... وما إن هممت باجتياز العتبة والدخول، حتى وجدت نفسي وجهًا لوجه مع جليس أبي، وهو يهمُّ بالخروج، فحيَّاني بحرارة واحتضنني: أهلاً، أهلًا يا أمير، ما هذه المفاجأة الحلوة؟ اشتقنا لك يا بُنَي.

فعانقته وحيَّيته بالحرارة نفسها مخاطبًا إيَّاه بعمي، كما كنت أفعل دائمًا: «أهلًا عمي أبو وليد، كيف حالك؟».

ثم فككنا عناقنا مع دخول زبون جديد. دلفتُ أنا إلى الداخل وواصل هو خروجه ونحن نودِّع بعضنا، وحين لم أر أبي على الأريكة التي اعتاد الجلوس عليها، فتَّشت عنه في بقية أركان المقهى بعيني ولم أره، فخرجت مسرعًا للحاق بالعم أبو وليد، وجدته قد أوقف سيارة أجرة وفاتحًا بابها للركوب، فهتفت: «يا عم، وأبي؟».

ظلَّ واقفًا وإحدى قدميه في السيارة، ساندًا ذراعيه على أعلى بابها وقال: «أبوك غادر منذ نصف ساعة أو أكثر، قال بأن أحد أولاده مريض، ويريد رؤيته قبل أن ينام».

بقيتُ واقفًا أمامه للحظة دون معرفة ما الذي عليَّ قوله أو فعله، فقال: «هل تريدني أن أخبره بشيء؟».

فرددتُ مرتبكًا: «لا، لا شكرًا».

فقال وهو مبتسم وينظر إلى علبة الكارتون في يدي: «مبروك الحذاء الجديد».

فاجأني قوله، تمنَّيتُ لو أنه أطلق على قلبي رصاصة بدل كلمة «مبروك»... وودت لو أصرخ لحظتها وأبكي، ومن حسن الحظ أن

أسعفني ذهني بتذكُّر سوء حالتي، فقلت له وهو يكمل صعوده جالسًا في المقعد، وقبل أن يغلق الباب: «هل أجد عندك بعض النقود يا عم؟ إنني بحاجة إليها، وسأعيدها لك لاحقًا، أو خُذها من أبي».

قال: «طبعًا، طبعًا».

وأخرج من جيبه بضعة أوراق نقدية، استلَّ منها واحدة وهو يقول: «هذه لأجرة التاكسي، وهذا كل ما بقي عندي، خُذه».

ثم أغلق الباب، وودَّعني، فيما السيارة تتحرَّك: «تصبح على خير، انتبه لنفسك، مع السلامة».

- 14 -

بعد أن وقفت لبرهة في باب المقهى، مفكِّرًا في الذي عليَّ فعله الآن، دون تقرير شيء، دخلت وجلست على الأريكة التي يجلس عليها أبي دائمًا، وضعت علبة الحذاء بجانبي وطلبت قدحًا من الشاي. كانت أم كلثوم تغنِّي: « وإذا الدنيا كما نعرفها، وإذا الأحباب كلٌّ فى طريق، أيـهـا السـاهـر تغفو، تذكُـر العهـد وتصحـو، وإذا مـا الـتـأم جُـرحٌ، جَـدَّ بالتـذكـار جُـرحُ». لا تلفاز في هذا المقهى؛ لذا كان روَّاده القليلون في تلك الساعة منشغلين بلعب النرد أو الدومينو، يدخِّنون النارغيلات منفصلين عمَّا يحيط بهم. حال جلوسي أدركت أكثر كم أنا متعَب، ومدى الألم الذي في قدميَّ لكثرة الوقوف والمشي في هذه الجزمة العسكرية الثقيلة التي لم أخلعها منذ أكثر من يومين. أنعشني الشاي الساخن قليلًا وأدفأني، وراودتني فكرة رفع غطاء العلبة والكشف عن وجه «أميرة الزهراء» كي أراه بوضوح تحت نور المقهى. لكنني اكتفيت بوضع كفِّي عليه وتحسسه برفق، كما تحسست صندوق حاضنتها الزجاجي عندما رأيتها لأول مرة... نظرت حولي فلم أر أحدًا ينظر إليَّ، فشعرت بوحدة موحشة أكثر، وحسدتُ كل الموجودين على انشغالهم باللعب والثرثرة باسترخاء، فيما القلق والتوتر ينهشانني.. وجريان عقارب الساعة مثل

مقصٍّ يقطع نتفة من روحي في كل ثانية. ارتشفتُ ما تبقّى من شاي في قدحي دفعة واحدة، تركت الحساب على الطاولة ونهضت. خرجتُ متّجهًا إلى ساحة «الميدان»، وخلفي صوت أم كلثوم يصيح: «أروح لمين... شوف دمعي جاري، سهران بناري، ولا انتَ داري بالسهرانين.. أروح لمين!». درتُ في الساحة بلا هدف، ورأيت أسفل أحد أعمدة البناية الكبيرة فيها رجلًا متشرِّدًا منطويًا على نفسه، وملتفًّا ببطانية مهترئة قذرة، لا يبين منها إلا رأسه الأشعث، متوسِّدًا ذراعه، وفجأة، عند مرور إحدى الحافلات بالاتجاه المقابل، مرَّ ضوء مصابيحها، بشكل خاطف على وجهه، فهالني أنه يشبه وجه الدكتور ياسين تمامًا، بلحيته. حجم الأنف وانطباقة الفم، فخفق قلبي وكدت أهرول إليه والاقتراب منه أكثر، أو حتى إيقاظه، لكنني لم أفعل ذلك بالطبع؛ لأنه من الاستحالة أن يكون هذا الشخص هو الدكتور ياسين نفسه، ويكفيني منه أنه ذكَّرني به، كإشارة إلهية. سارعت الخطى عابرًا الساحة، قاصدًا بيت الدكتور ياسين، ففيه وحده سيكون إنقاذي ممَّا أنا فيه. رحت أسير بسرعة وحماسة أكبر، قاطعًا الشوارع والليل، ومُحَدِّثًا ابنتي عن ذكرياتي مع أمها في كل مكان نمر به: باب «المعظم»، حيث كنَّا نتناول الإفطار الرخيص أحيانًا، حساء عدس في صحون بلاستيكية مثبَّتة، على عربات البائعة المتجولين، بمسامير صدئة، مكتب استنساخ الأمل، مطعم «أبو علي» للفاصولياء، جسر المشاة، ضجَّة مناداة بائعات الخضراوات على الأرصفة القذرة، محطات وقوف الباصات... ومررنا بجوار دار الصحافة، حيث كنَّا نأتي أنا وأمكِ لنترك إحدى مقالاتنا في الاستعلامات... بعدها صار المشي نزولًا، مريحًا، خطوات أسرع وأشجار أكثر، وصولًا إلى مبنى كلية الفنون الجميلة، وقفنا أمام بوابتها المغلقة للحظة وواصلتُ الحديث لك عن قصة حبنا أنا وأمكِ التي انطلقت ونَمَت هنا، في أجمل سنين حياتنا... وها أنتِ الثمرة في البقعة ذاتها التي بدأت منها البذرة، فلماذا مُتِّ؟ ليت الكلِّيَّة مفتوحةٌ الآن، ليت الأنوار فيها أكثر. كم أَحِنُّ إلى كل شيء فيها: قاعات التمارين، المسرح الدائري، المكتبة، المرسم، الكافيتيريا، الجلوس على

الدرج والمصاطب، تماثيل الحديقة، أشجار النخيل وجوز الهند والياس والعشب فيها... هيا بنا يا ابنتي نواصل الطريق، فلا وقت لدينا وإلا لكنت أخذتكِ أيضًا إلى «نادي الطلبة السودانيين» -أَحَبِّ أماكن خلوتنا خارج المحاضرات- ولطفتُ بكِ في كل الشوارع والأزقَّة التي جُبْناها مرارًا في «الأعظمية»، مباني سكن الطالبات، بناية الاتحاد الوطني لطلبة العراق، المقاهي، الحدائق، المقابر، كورنيش الأعظمية، مرقد الإمام الذي صلَّت فيه أمك.. ولا أدري ما الذي طلبته من الله في صلاتها تلك، المقبرة المجاورة للمرقد وأول قبلة لنا فيها، محلات الملابس المستعمَلة التي كنا نبحث فيها عن الثياب الغريبة لأدوارنا المسرحية أو حتى لحفلاتنا في أعياد ميلاد الأصدقاء، والأجمل من كل هذا هنا، هو العش الذي أمضينا فيه أيام العسل الحقيقي، جوهرة تاج حبِّنا، وذروة أيام سعادتنا التي لم ولن تطاولها سعادة مشابهة بعد اليوم، أقصد بيت الدكتور ياسين، عرَّاب حبِّنا ودراستنا ومرحنا وجنوننا وزواجنا... ها نحن نقترب منه، وقلبي ينشرح قليلًا رغم لهاثي بسبب مشينا السريع.

احتملي قليلًا يا صغيرتي، ها نحن نقترب. ها هو هناك، في آخر هذا الشارع، سيحتضنك، ستحبِّينه كما أحببناه، سيحلُّ لنا معضلتنا هذه كما حلَّ لنا أصعب مشاكلنا. ها هو البيت ذو السياج العالي المحتضن لسياج من أشجار أعلى منه، ها هو الباب الأزرق، ها هو جرس الباب، ها أنا أقرعه... انتظري لحظة، سيردُّ الآن، سيفتح الآن.. ها أنا أقرعه ثانية، اصبري للحظة أخرى.. ولكن لا إجابة. ابتعدتُ خطوتين ولم أر نورًا في الطابق العلوي. اقتربت ونظرت من ثقب الباب.. فلم أر سوى مصباحًا وحيدًا مضاءً في الواجهة، فيما كل الشبابيك معتمة، قرعت الجرس مرات أخرى، وقرعت الباب، دون جواب... اللعنة.. اللعنة.. اللعنة.. جلستُ منهارًا على عتبة الباب، وضعتُ الصندوق جانبًا ورحتُ أدخِّن سيجارة، اثنتين، ثلاثًا.. خمس دقائق، عشر دقائق، ربع ساعة.. نهضت وقرعت مرة أخرى وأخيرة، ثم غادرت.

تقودني خطاي في الدروب ذاتها التي طالما مرَّت بها خطواتي برفقة زهراء. هيا بنا إلى المقبرة كي نودِّع بعضنا إلى الأبد. كنا نمر أمام واجهات المحلات المقفلة، ولم يستوقفنا منها إلا محل واحد خاص بثياب ولوازم الأطفال، شهقت حين رأيت خلف الزجاج رفًّا من الأحذية الصغيرة.. الصغيرة جدًّا بحيث تحتويها راحة اليد. ألوانها متنوعة زاهية أخاذة، صغيرة كأعشاش السنونو والبلابل، مزينة بأشكال ملونة من الورود والقلوب والديناصورات ووجوه الدببة والقطط. يا إلهي، لأول مرة أنتبه إلى هذه الأشياء الجميلة، وددتُ لو أنكِ حيَّة؛ كي نأتي نحن الثلاثة إلى هنا، أنتِ وماما وبابا، ونشتريها كلها لقدميك الصغيرتين، حتى لو كلفنا ذلك بيع ثيابنا. فكرت أن أكسر الزجاج من خلف الباب ذي الشَّبَك الحديدي، وأقطف ذلك الذي باللون الوردي الذي تحبه البنات الصغيرات، أضعه في قدميك العصفورتين كي لا تذهبي إلى العالم الآخر حافية. امتدَّت ذراعيَّ من إحدى فتحات شبكة الباب الحديدي الخارجي ولامست الزجاج البارد الذي يلامس الحذاء الوردي الصغير من الجهة الأخرى، فنزلت دموعي لأول مرة، شهقت وبكيت... وأخيرًا بكيت، وأردتكِ أن تشهدي دموعي عليكِ وأن أرى وجهك للمرة الأخيرة؛ فأعدتُ ذراعي. فتحت غطاء العلبة، تطلَّعت إلى الشارع الفارغ حولي ثم أزحت القماش الأبيض قليلًا عن وجهك، وأملتُ العلبة تجاه نور المصباح الخافت في الواجهة كي أراك بوضوح. وجه إنسان كامل، صغير، مُحْمَرّ، مُزْرَقّ إلى حدٍّ ما. نائم بعمق وسلام تامَّيْن، يشبه وجه حبيبتي زهراء إلى حدٍّ كبير، وانهمر الدمع من عينيَّ أكثر على كفنكِ وأنا أصارع صرخة مُلتاعَةً تفطر قلبي، محوِّلًا إياها إلى شهقات مكبوتة. ثم وعلى عجل، كأنني أسرق، قبَّلتُ الوجه الصغير، ضممته على وجهي، تشمَّمته، وأعدتُ تغطيته بالقماش الأبيض جيدًا. أغلقت العلبة، وحثثتُ الخطى مسرعًا باتِّجاه المقبرة.

- 15 -

لا أتذكَّر أبدًا بأننا قد رأينا حارسًا لهذه المقبرة وإن كان لها بوابة وغرفة حراسة، ربما لأنها قديمة جدًّا، عمرها قرون، وتوقَّف الدفن فيها منذ عقود، ولم يعد من الأحياء أحد يزورها. مات كل من كان له ميِّتٌ فيها، وتبدو المقبرة نفسها ميتة، محاصرة ببعض جهاتها بحائط واطئ متهالك، وفي جهات أخرى، بشبكة معدنية وأشجار عالية ودغل كثيف، يحيا ويموت من ذاته مع تعاقُب الفصول، تحيط بها الشوارع من كل الجهات وحول الشوارع تزدحم البيوت والمحلات. وعلى الرغم من أننا، أنا وزهراء، كنَّا ندخلها من فتحة في السياج اكتشفناها صدفة ذات مرة، توجَّهتُ إلى البوابة، علِّي أجد حارسًا أخبره بحالي وأستفسر منه عمَّا يجب فعله، لكنني لم أجد؛ فاستدرت وصولًا إلى تلك الفتحة، تسلَّلتُ منها داخلًا، وقادتني خطاي بِيُسْرٍ بين القبور، وصولًا إلى قبر قديم وكبير بالنسبة للقبور المجاورة له، استطعت رؤيته رغم العتمة، التي تُخَفِّفها أحيانًا أضواء بعض السيارات المارقة خلف الأشجار، وبفضل ما يصل من ضوء المصابيح المعلَّقة في أعلى منارات المسجد القريب. كان القبر على شكل حُجرة... هنا، ملتصقين بجداره، كانت أول قُبلة لنا، وهنا في هذه البقعة تحديدًا جئنا للاختلاء ببعضنا عدة مرات، وهنا في هذه البقعة تحديدًا سترقدين يا أميرتي الزهراء إلى الأبد.

قطفت بكفي العُشْبَ سريعًا، مساحة بحجم العلبة «التابوت»، ودُرْتُ بين الشواهد أبحث عن شيء أحفر به، فوجدت زاوية قفص حديدي صدئ لأحد القبور، وقد تدلَّت مكسورة، فسحبتها بقوة حتى انطوت، ثم دُسْتُ عليها بجزمتي العسكرية الثقيلة وضغطت بقوة، صاعدًا بكل جسمي، حتى انفصلت، فكانت شبيهة بالمنجل، وأحد أطرافها مُدبَّبًا، بالغ الحِدَّة. عدت أحفر بها، أزيح التراب الرطب جانبًا بكفَّيَّ وأعاود الحفر، إلى أن بلغ عمق الحفرة نصف متر أو أقل. حملت العلبة بكفين مرتعشين، ضممتها إلى صدري، قَبَّلْتُها، ثم أنزلتها في الحفرة، تمتمتُ

بعض الآيات القرآنية التي كنت أحفظها منذ الطفولة في درس الدين، وأهلتُ التراب حتى سوَّيْتُ الأرض. نثرت فوقها وريقات العشب التي سبق أن قطعتها، ثم بحثت قربي عن حَجَرين، وضعتهما على الطرفين كشاهدتين، وغادرتُ مسرعًا، كلِصٍّ هارب... كقاتِل.

- 16 -

قطعتُ نصف المسافة تقريبًا، سائرًا بقدمين منهكتين، إلى أن توقَّفت لي سيارة أجرة، فوصلت إلى البوابة الرئيسة لمعسكر التاجي على الساعة الرابعة والنصف فجرًا، أشار لي الحراس بالدخول بعد أن تفحَّصوا بطاقتي العسكرية، وورقة الإجازة وحقيبة البريد الصغيرة. وفي مكتب القلم، في الاستعلامات الداخلية، سلَّمتُ البريد للجندي الخفر ووقَّع لي ورقة بالاستلام، وبعد أن علم بأني عائد الآن إلى وحدتي في البصرة، قال بأن سيارة عسكرية من هنا، ستنطلق إلى هناك بعد نصف ساعة إن شئت الذهاب فيها. فكانت تلك من أفضل الفرص الإيجابية... أو الوحيدة التي حظيت بها في هذه الليلة التعيسة، دفع إليَّ بكوب الشاي الذي كان ساخنًا أمامه، وأجرى اتصالًا بالهاتف الذي بجانبه، ثم سكب لنفسه كوبًا آخر وراح يوزِّع الأوراق وظروف المراسلات التي أمامه في أدراج كثيرة تحيط به، مُعَلَّمة بالأرقام والحروف... إلى أن وقفت في الباب عجلة عسكرية، فقال لي: «هذه هي». شكرته وانطلقت خارجًا. قال لي السائق: «اصعد فوق، مع الجماعة». فصعدتُ سريعًا إلى الحوض الخلفي الذي وجدت فيه خمسة جنود آخرين، منشغلين باختيار أماكن مناسبة لهم بين صناديق خشبية وحديدية وأكياس عسكرية كبيرة، وما إن خرجَت السيَّارة من بغداد تمامًا، متَّجهة نحو الجنوب، إلَّا وكنَّا جميعًا قد توقفنا عن الكلام، الذي كان قليلًا أصلًا، وتمدَّدنا في الأماكن التي هيَّأناها لنومنا بعد أن غطينا أنفسنا ببطانيات كثيرة سحبناها من رزمة بطانيات كبيرة كانت في مؤخرة الحوض.

لقد وفَّرت عليَّ العودة بسيارة عسكرية نقودي، والأهم أنها جنَّبتني إزعاجات توقيف نقاط «سيطرة التفتيش» العسكرية الكثيرة على امتداد الطريق الطويل، والتي عانيت من إزعاجاتها والتدقيق في أوراقي عند قدومي. وما إن أحسستُ ببعض الدفء، واستراحة تمدُّد بدني المُتعَب من الألم حتى رحت أفكِّر بزهراء وبأميرة الزهراء، بالولادة وبالموت، وبمعنى هذا الحال الذي أنا فيه ولماذا، ولأنني بلا إجابة طبعًا؛ اكتفيت بمتابعة ما يُرى في السماء، بضعة نجوم وغيوم بعيدة... بعيدة جدًّا، وتواصل ابتعادها أكثر في ظلام مَهول، بلا حدود ولا نهاية. أفرغتُ ذهني من كل شيء واكتفيت بمتابعتها وتأمُّلها حدَّ شعوري بالتماهي معها، شعور بالخفة، بالطيران، بالابتعاد، بالاختفاء، بالتلاشي والذوبان في اللاشيء، إلى أن غفوت على وقع هدير المحرِّك تحتي وهو يهزُّني ويهدهدني، مثل مَهد بين ذراعَيْ أُمٍّ وأنا طفل هَدَّه تَعَب الصَّحو.

- 17 -

بعد مرور يوم كامل من وصولي إلى وحدتي العسكرية، كان أهم وأفضل ما فعلته فيه هو أنني خلعت جزمتي وجوربيَّ اللذين فاحت منهما رائحة عطنة كالعفن، ورأيت قدمَيَّ بيضاوين بشكل عجيب، وقد برزت على جلدهما المتغضِّن بسبب العَرَق والرطوبة العديد من الدمامل الموجِعَة، غطَّستهما في طشت ماء دافئ وملح ومسَّدتهما لوقت طويل ثم دلَّكتهما ببعض شحوم الأسلحة، وفي أول فرصة أُتيحت لي بعد خفارتي ذهبت إلى مكتب القلم، ورويتُ -باختصار- لنائب الضابط الطيب هناك رحلتي إلى بغداد. سمح لي باستخدام الهاتف، فتمكَّنت من الاتصال بزهراء في المستشفى. وكانت المفاجأة أنها انفجرت بالصراخ وشتمي حال سماعها صوتي، دون حتى أن تمنحني أية فرصة للكلام... وإن كنتُ لا أعرف ما الذي سأقوله لها بعدما صدمتني بما

قالته، ونبرتها الغاضبة الساخطة التي شعرتُ بها تكرهني، وأنني لو كنت أمامها لما تردَّدَتْ بالبصق في وجهي أو حتى قتلي. لا أتذكَّر كل ما قالته بدقة. كانت تطلق الكلمات بصخب وسرعة كبندقية كلاشنكوف ترُشُّ رصاصها في صليات متواصلة. كانت تشتعل حنقًا وسبابًا، مؤنِّبَةً إيَّاي على أخذي للطفلة دون أن تراها: لماذا لم توقظني يا أحمق؟ لماذا لم تتركها يا بغل؟ أين ذهبت بها يا حيوان؟ هل غسَّلتها يا قذر؟ هل كفَّنْتَها يا عاريًا من الضمير والرحمة؟ هل صلَّيْتَ عليها يا كافر؟ وماذا سأفعل أنا الآن يا أناني؟ وإلى أين سأذهب بعد خروجي من هنا يا صعلوك؟... وهكذا، سيل من الأسئلة والشتائم الصارخة التي ختمتها بالبكاء... وإغلاق الهاتف.

أمضيتُ بقية اليوم مصدومًا، شارد الذهن، ضائعًا في متاهات نفسي، أدخِّن ورأسي يؤلمني كأن سقفًا انهار عليه. قلبي وروحي وكل شيء فيَّ يؤلمني. غائص في بقايا نفسي المحطَّمة، فيما جسدي يؤدي واجباته بآليَّةٍ، فهو أصلًا ليس ملكي ما دام الآن مُجرد جندي يخدم وطنًا لا يكترث به. لا أدري إن كنت قد أكلت شيئًا خلال النهار أم لا، ولكنني عاودتُ الاتصال بها عند الغروب، وفي نفسي ثمَّة أمل ضعيف في أنها قد هدأت قليلًا، لكن الأمر تكرَّر بالصيغة ذاتها، هي وحدها التي تكلَّمَت.. أو الأصح؛ صرَخَت وشتمت ثم أغلقَت الهاتف، ولم تردَّ عليه من بعدها أبدًا... وكان ذلك آخر تواصُل بيني وبينها. قالت بأنها اتصلت بأهلها فاشترطوا عليها لقبولها مجدَّدًا والقدوم لأخذها أن تهجُر بغداد نهائيًّا، فليس لها فيها أحد أو مستقبل، وأن تنفصل عني؛ لأنني لا أصلح لها زوجًا، وليس فيَّ أدنى مقوِّمات الرجل الذي يضمن لها الرعاية والحماية، والأمان. خلاص... انتهى كل شيء، سأعود إلى أهلي ونفسي وديني وبيتي، ولا أريد رؤيتكَ أو سماع صوتك بعد الآن أبدًا.. فطلِّقْني.. لا، لا.. حتى هذه لا أُريدها منكَ.. بل أنا التي ستُطلِّقُكَ.

- 18 -

في أول إجازة قصيرة منحوها لي، بعد ثلاثة أسابيع، وجدتُ أم حسين تشير إلى حقيبة كبيرة وكيس، مركونَيْن خلف باب الصالون، وقد جمعت فيها كل ما لديَّ من ملابس وكتب، قائلة بأنها قد أجَّرَت الغرفة لزبون آخر؛ لأننا لم ندفع الإيجار منذ ثلاثة أشهر، وحين سألتها عن حاجيات زهراء، أخبرتني بأن أخواتها قد جئن وأخذنها. منحتها نصف ما في جيبي من نقود، ووعدتها بأنني سأحاول تسديد الباقي تباعًا في المستقبل، لكنني لم أفعل، ولم أعُد إلى هذا الزقاق أبدًا. صرتُ أمضي بقية إجازاتي في فندق شعبي رخيص عَفِن، لا أخرج من الغرفة إلا للأكل وشراء الخمر والسجائر.

ليس لديَّ أية رغبة بمعاودة السير في الأماكن التي سرتُ فيها مع زهراء، ولا رؤية الناس الذين عرفناهم معًا، فكل شيء سيذكِّرني بها أكثر، ويوجعني أكثر، لم أعد أكترث بشيء، ولا أرغب بشيء. استسلمتُ وسَلَّمت نفسي لمجريات منظومة الآخرين. كنت أَشْبَهَ بورقة بيضاء طافية على سطح النهر، تجرفها الأمواج على هواها... وراودتني فكرة الهرب مرة، هرب من الجيش، من العراق، من حياتي، ولكن كيف، وإلى أين؟ وفكرة الانتحار مرة، قذف نفسي في البحر أثناء إحدى مهمات مرافقة السفن في زوارقنا الحربية، لكنني لم أفعل شيئًا من هذا، وبقيت على حالة استسلامي العدميَّة، بحيث لم أكمل أي كتاب حاولتُ قراءته، ولم أقرأ حتى جريدة، لم أشاهد تلفازًا أو أستمع لمذياع، لم أذهب إلى مسرح أو أحاول السعي للقاء أحد... كنتُ أُقلِّب كلامًا مُعادًا في رأسي، وكله متعلِّق بزهراء، بليلة دفن ابنتي، وأسئلة لا إجابات لها عن جدوى ومعنى حياتي.

أمضيتُ إحدى إجازاتي في فندق وسط مدينة النجف، تجوَّلت في أنحائها مُوهمًا نفسي بالقول: «علِّي أعثر صدفة على زهراء أو عمَّن يعرفها». فعلتُ ذلك على الرغم من يقيني بأنني لن أجدها، وأنا الذي لم أكن مهتمًّا حتى بسؤالها عن عنوان بيت أهلها أو ما يخصُّ حياتها السابقة، ربما لأنها هي كانت تريد نسيانها، بل لأعترف بأن ثمة شيء ما

في أعماقي يخاف منها، ومن البحث عنها بجديَّة، وإلا فقد تذكَّرتُ أنها حدَّثتني ذات مرَّة عن أن أختها الكبرى تعمل في المدرسة التي درسن فيها، وهي قريبة من بيتهم، تذكَّرتُ اسم المدرسة لأنه كاسمها (مدرسة الزهراء)، لكنني خشيتُ أن أجدها. لم أفكر في ماذا سأقول لها إن وجدتها، ماذا سأفعل؟ ولماذا أفعل ذلك وهي قد حسمَت أمرها برفضي، بكرهي والانفصال عني إلى الأبد. أغلب النساء في الأسواق يرتدين العباءات السوداء ويدلين بأطرافها على وجوههن. رفَّ قلبي لهفة ورعبًا لأكثر من مرة، حين رأيت بعض النساء من ظهورهن، يشبهنها بطول القامة، بطريقة المشي، بالالتفاتات، فأُسرع الخطى كي أسبقهن محاولًا رؤية الوجوه، لم تكن بينهن حتى مَن تشبهها، لا امرأة تشبه زهراء. كنت أشعر بأني أدور عبثًا في متاهة. لا أعرف ماذا أريد بالضبط، لستُ على يقين من شيء، لستُ سعيدًا ولا حزينًا، لديَّ شَكٌّ في كل شيء، باستثناء عشقي لها. أمضي الساعات بالتجوال في الأسواق والأزقَّة الضيقة، متجنِّبًا زحمة العابرين وعربات الباعة المتجوِّلين ونداءاتهم، قافزًا فوق برك ومجاري المياه الآسنة، أجلس لساعات طويلة في المقاهي، صامتًا أُدخِّن وأحتسي أقداح الشاي بلا طعم ولا رغبة، وأختم ليلي وحيدًا في حجرة الفندق مواصلًا التدخين واحتساء الخمر. ثمة شعور بالضياع والخوف، ضياع بلا زهراء، بلا معرفة بحالها أو بماذا تفكر، وخوف من أن أجدها، أو من معرفة حالها، أو بماذا تفكر. شعرتُ بالضجر والملل والاختناق، كمن يتقلَّب في فراشه لا يستطيع النوم ولا الصحو، فغادرت المدينة قبل انتهاء إجازتي بيوم، عازمًا على ألَّا أعود إليها ثانية.

في إجازاتي التالية في بغداد، خرجتُ من عتمة غرفة الفندق الرخيص وروائحه الكريهة للمشي بلا هدف، وفجأة وجدت نفسي أمام واجهة محل ألبسة الأطفال في الأعظمية، المحل الذي وقفنا أمامه أنا وابنتي «أميرة الزهراء» وأعجبنا الحذاء الوردي الصغير وبكينا، اشتريته، وفكرت أن أذهب وأضعه على قبرها، لكنني عدلت عن ذلك في منتصف الطريق.

خفتُ من رؤية قبرها، خفت ألّا أجده، أن يكون قد اندثر لصغر حجمه، أو أن أحد الكلاب السائبة قد نبشه، خفت أن أسمع صوتها من تحت التراب، تعاتبني وتصرخ بي مثل أمها... صرت أحمل الحذاء الصغير في حقيبتي دائمًا، أتحسَّسه بكفي كثيرًا عندما أفكر بها، أقلِّبه أمام ناظري وأتأمَّله، حتى حفظتُ أدق تفاصيله، ممضيًا أغلب أوقات الفراغ بالصمت والتدخين، ثم شرعت بتجريب حياكة وصناعة أحذية أطفال من خيوط الصوف وقماش الجوخ وقطع الجلد والكارتون، لا يحتاج الأمر سوى إلى أشياء بسيطة، صرت أحملها في كيس خاص داخل حقيبتي. مقص، مسطرة، إبرة، خيوط، دبابيس، قياطين، صمغ غراء، بضعة خرزات وأزرار للتزيين، إلى جانب قطع من أنواع الأقمشة والجلد والكارتون. أتقنت صناعتها، صرت أتفنَّن بأشكالها، أحببتها، وجدتها تسليني فعلًا.. بل وأُنظر لها أحيانًا، مبيّنًا فضل الأحذية على الكثير من الأشياء والكائنات، وكيف أنها تحتملنا وتحمينا وتُجمّلنا وما إلى ذلك. صنعتُ لزملائي الجنود أكثر من نَعل أو صندل جلدي وأحذية لأطفال بعضهم، ولكل أبناء النائب الضابط الطيب في مكتب قلم الوحدة، وهكذا... إلى أن انتهت خدمتي العسكرية بعد أن دامت عامين تقريبًا، وتمَّ تسريحي من الجيش.

أمضيتُ ليلتين في واحد من تلك الفنادق التي اعتدت ارتيادها، أفكر بالرحلة القادمة من حياتي، وما الذي سأفعله، دون إجابة. فاشتريت ما أستطيع من سجائر وقناني خمر، ولوازم صناعة الأحذية، وحملت حقائبي وعدت إلى القرية.

- 19 -

تَمكّن الشَلل النصفي من أُمي تمامًا، وجدتها ممدَّدَةً على سرير في الصالون، بشكل دائم، ترعاها «انضباط» بلا كَلَلٍ ولا مَلَل، بل وبحبٍّ، كأنها اتَّخذت منها طفلتها التي لم تنجبها. بدت «انضباط» أكثر حيوية وصحة، وإن زادت نحافة، تتحرَّك على مدار الساعة متكفِّلَةً بكل شيء:

المزرعة، البقرة، الدجاجات، المطبخ والبيت بكل أركانه، بما في ذلك غرفتي التي وجدتها مُرَتَّبة ونظيفة على الرغم من كونها مغلقة طوال الوقت. ما رأيت في حياتي بهجة وفرحًا بوجه أحد يستقبل أحدًا كما رأيته في وجهَيْ أمي وأختي، حتى أن أمي حاولت رفع جذعها كي تحتضنني، فهبطتُ أنا عليها في السرير وعانقتها، أحسست بارتعاشها، بنبض قلبها الراقص على صدري، وبدمعها يبلِّل رقبتي، فنزل دمعي.

كانت جدران الصالة عارية إلا من قطعة قماش كبيرة مؤطَّرَة، وقد طرَّزت فيها «انضباط» عبارة «الصَبر مفتاح الفرَج»، وصورتان معلَّقتان على الجدار المحاذي لسرير أمي، منخفضتان بحيث يمكنها رؤيتهما دون عناء وهي مستلقية في السرير، إحداها صورة لي، أذكر أنني التقطتهما أول دخولي للجامعة، ولا أدري متى وكيف وصلت إلى «انضباط»، ومتى وكيف كبَّرَتْها وأطَّرَتها، أمَّا الأخرى بجوارها، فهي صورة قديمة، علَّقها أبي بنفسه حين كان يعيش هنا. صورة عائلية بامتياز، وفق تصوره وذائقته. يقف فيها هو في المنتصف، مرتديًا زيَّ الشرطة الرسمي كاملًا، بما في ذلك شارات الكتف والصدر والقبعة، وأنا أمامه تمامًا، رأسي يصل إلى حزامه، مرتديًا ما يرتديه، وجه جامد بلا تعبير، مثل وجهه، نسخة صغيرة منه. وعلى جانبيه أمي وأختي، وهو يحيط أكتافهن بذراعيه كجناحي نسر يضم صغاره. سابقًا كان تلك الصورة تعني لي الكثير، أما الآن فلم أشعر حيالها بأية علاقة، بل باستغراب حتى من اهتمام الناس بالصور القديمة، لم أشعر أبدًا بأن الذي في الصورة هو أنا، وأن من فيها هم أبي وأمي وأُختي... على نحو ما، تُذكِّرنا الصور القديمة بأننا كنا ذات يوم أشخاصًا آخرين، ولكنهم الآن أموات، فهل يعني هذا بأننا قد متنا في حياتنا لأكثر من مرة دون أن ننتبه!

لم يسألاني عن زهراء، ولم يذكراها أمامي أبدًا، ولاحقًا، عندما خلوت بنفسي في غرفتي، عرفت السبب، وجدت أوراق طلاقي الرسمية أو الخلع، مطويَّةً بين الكتب التي كانت على الطاولة المجاورة لرأس

السرير، الكتب ذاتها التي تركتها طويلًا هنا، دون أن يمسَّها الغبار. كتب يتعلَّق أغلبها بالمسرح، وعندما حاولت القراءة فيها بعد يومين، لم أستطع إكمال أي منها، فأعدتها إلى الرفِّ وأنا أشعر بأن ثمة حاجز زمني ونفسي ما قد علا بيني وبين شغفي بالمسرح، وعلى مدى الثلاثة أشهر التي أمضيتها هناك، لم أستطع قراءة أكثر من روايتين وأربعة دواوين شِعر.

لاحظتُ أن في بعض كتب المسرحيات -التي سبق وأن اشتريناها أنا وزهراء معًا من الكتب المستعملة في شارع المتنبي- شرائطَ من القماش كفواصل قراءة، ففاجأني ذلك؛ ليقيني أن «انضباط» هي التي وضعتها، فهي تُحب الخياطة والتطريز وصنع الورود والأكياس والبُسُط وأشياء أخرى كثيرة من القماش، لا تترك ثوبًا قديمًا إلا وحوَّلته إلى أشياء أخرى... ذات مساء من مساءات حواراتنا ونحن نعمل في الحديقة (المزرَعة) سألتها إن كانت قد قرأت شيئًا من كتبي، فقالت بأنها قد حاولت ذلك، ولكنها لم تعجبها، وخاصة المسرحيات. قالتها بتردُّد كي لا يزعجني رأيها، فسألتها عن السبب، فقالت لأنها كلها قائمة على الصراعات بين الشخصيات، وأنا لا أُحب الصراعات لأي سبب كان.

أمضيتُ جُلَّ الأيام الأولى بالنوم. كنت بحاجة مُلِحَّة للراحة؛ لتنظيف نفسي ممَّا علق بها من تلويثات المرحلة العسكرية، تخفيفها من التعب المتراكم والحزن المتجذِّر في أعماقي منذ تلك الليلة التي دفنت فيها ابنتي وما تبعها من إعدام لعلاقتي بزهراء. كنت أحقِّق حلمًا رئيسًا طالما راودني أثناء مرحلتي العسكرية، وهو أن أنام وأنام، دون أن يقطع أحد أو شيء نومي، ويبدو أن «انضباط» وأمي كانتا تدركان ذلك، فلم يزعجاني أبدًا بأي قول أو فعل، وكنت أشعر بسعادتهما الحقيقية بوجودي، دون أن يغيِّر ذلك من علاقتهما الحميمة التي عرفتها عليهما منذ أن وعيت على الدنيا. معًا دائمًا، يتشاركان بالأكل واللبس والصمت والكلام والنظرات، بحيث يستحيل عليَّ تخيل إحداهما قادرة على العيش دون الأخرى.

لم أحتسِ الكحول أمامهما أبدًا، ولم تُلمِّح «انضباط» لي بشيء حول

ذلك، وهي يقينًا تعلم به. كنت أفعل ذلك وحيدًا في غرفتي أو على سطح الدار في الليل، وفي مرتين ذهبت فيهما إلى النهر، عدا ذلك، لم أخرج من البيت طول الشهور الثلاثة، إلا مرتين. لقد انفصلت عن القرية طويلًا، وأصدقاء طفولتي، بما فيهم الأقرب، الذين شاركوني في الفرقة المسرحية المدرسية، قُتِل بعضهم في الحرب، وانتقل بعضهم إلى مدينة أو قرية أخرى بحكم العمل، وآخرين صاروا آخرين تمامًا، متزوِّجين، ولديهم الكثير من الأطفال يقضون كل وقتهم بالكدح لخدمة عوائلهم.

كنت أساعد وأشارك «انضباط» في كل شيء تقريبًا: العناية بالمزرعة، والبقرات الثلاث، والدجاجات وحتى في الطبخ أحيانًا، وأنوب عنها أكثر بالعناية بأمي التي تحتاج إلى تغيير وضعية جسدها كل ثلاث ساعات، كي لا يتقرَّح جلدها من طول السكون، وكنت آخذها في جولات يومية داخل سور بيتنا الواسع، أمرِّرها في الدروب الصغيرة بين النباتات، أُقَرِّبها من فناء الزريبة التي في أبعد زاوية من الحوش. لم تكن أمي تستطيع الكلام إلا بصعوبة؛ لأن نصف فمها، نصف وجهها، نصف جسدها- كان مشلولًا تمامًا، لكنها تستطيع إيصال ما تريد قوله عند الضرورة. كانت تشير إليَّ كثيرًا بعينيها وهزَّة من رأسها، أن تعال، فأعرف بأنها تريد تقبيلي. أنحني لها وأمنحها خدي أو جبهتي فتقبِّلني بملامسة من شفتيها ليس أكثر، ضامَّةً رأسي إليها بكفِّها المتحرِّكة. كانت تكرِّر ذلك الطلب عشرات المرات، منذ أول صحوها حتى نومها، وأرد عليها أنا بتقبيل كفها وجبينها.

أما «انضباط» فكانت تحتضنني في اليوم، أكثر من مرة، وفي بعض أوقات الاسترخاء أو العمل في الحديقة أو المطبخ، نتجاذب أطراف الحديث. سألتها مرة إن كان أبي قد زارهما، فقالت إنه يفعل ذلك كلما استطاع.

فقلت: وكم مرة استطاع منذ عودتكما إلى هنا؟

صمتت قليلًا، وقالت: مرتين. وعاودَت الصمت، ثم أضافت: إنه معذور، الأعباء عليه كثيرة، فعدا وظيفته، صار لديه أربعة أطفال، توأم أولاد وابنتان.

- هل جاء بهما إلى هنا؟

- نعم، في المرة الثانية. أربعة ملائكة جميلة.

وانتهزَت اللحظة بتهذيب، فباحت لي برغبتها، هي وأمي، أن يرينني أتزوج ثانية، وأبقى معهما في هذا البيت، فأخبرتها بأنني لا أفكر بهذا الأمر، وليست هناك أية امرأة في حياتي بعد زهراء، مثلما لم يكن في حياتي قبلها أية بنت.

حاولَت إقناعي بحديثها عن عِدَّة بنات في القرية، واصفةً بأنهن جميلات ورائعات ومتعلِّمات أيضًا، ويناسبنني تمامًا، وحين لم تجد مني أي تفاعل أو حماسة تخلَّت عن الموضوع، ولكنها فاجأتني بأن قدَّمت لي كيس قماش صغير فيه رُزم من الدنانير وقِطَع ذهبية من مصوغاتهما الخاصة، قائلة بأنها وأمي، كُنَّ يوفِّرنَ المال ليوم زواجي، ويمكنني الآن أن أستخدمه لإنتاج مسرحية إذا كان هذا ما أُريده ويسعدني، فاحترتُ ماذا أقول، دمعت عيناي، قبَّلتها وقبَّلت أُمي، شكرتهما من أعماق قلبي، ورفضتُ أخذ المبلغ، تاركًا إيَّاه لهما.

حين سألتها عمَّا إذا كان أبي يساعدهن ماديًّا، قالت: كان... كان يبعث لنا شهريًّا مبلغًا بسيطًا من المال، وأنا التي طلبتُ منه أن يكفَّ عن ذلك، ولا يكلف نفسه أكثر فوق التكاليف الكثيرة التي على كاهله، بل صرت أبعث له بمبلغ شهري... نحن لسنا بحاجة، بل إن ما يَرِدُنا من بيع ثمار المزرعة، وحليب البقرات وبيض الدجاجات، والتطريز والملابس التي أفصِّلها وأخيطها لنساء القرية- يفيض عن حاجتنا...

صمتت للحظات، بدت طويلة، ثم أضافت: عدا ذلك، فبين الحين والآخر يأتينا خالي بمبلغ محترم، وهو الذي أتانا بهذا الكرسي المتحرك لأمي.

فقلت باستغراب: خالي! ومن أين له بالمال وليس لديه سوى راتبه التقاعدي البسيط والمزرعة؟

- من ابنه «مَنهَل»، فهو تاجر ثري الآن في اسبانيا، وهو الذي بعث بالكرسي لأمي؛ لأن الحصول على كراسي المعاقين في العراق صعب ومكلِّف جدًّا؛ لكثرة المُعاقين.

- متى ذهبَ إلى اسبانيا؟
- منذ أعوام طويلة.

نطقَت كلمة «طويلة» بغصَّة. وددتُ لو أسألها إن كانت ما زالت تُحبه، لكنني لم أفعل؛ لأن ذلك كان واضحًا من نبرة حديثها عنه، فلا داعي لأن أُقلِّب عليها مواجع جرح كامِن في أعماقها حتمًا.

لاحقًا، عرفتُ بأنه باع فندقًا كان مُسجَّلًا باسمه، وهو لأحد المسؤولين الكبار في الدولة، واحد من أولئك الذين اعتاد التعامل معهم مبكِّرًا، وفي خدمتهم وإدارة أعمالهم التجارية، ويبدو أن المسؤول، صاحب الفندق، لا يستطيع حتى التقدم بشكوى ومقاضاته، كي لا تنكشف تجارته وحجم ثرواته التي يكنزها عبر استخدامه لمنصبه دون علم الحكومة، كما أن الفندق أصلًا كان مسجَّلًا باسم منهل للسبب نفسه، وعليه فليس بمقدور صاحبه كسب هذه القضية قانونيًّا.

تلك الشهور الثلاثة، كانت أكثر أوقات حياتي سلامًا وراحة. مفعمة بالهدوء والمحبة والحنان، بل وحتى جلسات روحية هادئة صافية تشبه حالات المتصوفة، وخاصة في تلك المرات القلية التي أسمع فيها «انضباط» وهي ترتِّل القرآن جهرًا لأمي بصوت غنائي عذب، ما كنت أعرف مدى جماله وصفائه هذا من قبل. «وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ»... لاحظت بأنهما قد صارتا أكثر تديُّنًا منذ غياب أبي، الذي لم أعرف للدين أي وجود في حياته أو في ذهنه. كانت «انضباط» تؤدِّي كل الصلوات في أوقاتها، وتوضِّئ أمي وتوجِّه سريرها نحو القبلة، فتصلِّي الأم وهي مستلقية، بتمتمات بالكاد تُسمع، وحركات خفيفة متتابعة من شفتيها وجفنيها. علَّمتُ «انضباط» صناعة أحذية الأطفال وعلَّمتني التطريز.

على الرغم من كل تلك الراحة وذلك السلام، كان عليَّ أن أقرِّر ما الذي سأفعله في حياتي القادمة، وبالطبع، لم يكن يقنعني أو يريحني

ويرضيني أن أمضيها على هذا النحو حتى النهاية، فمنذ طفولتي وأنا مختلف عن سائر أبناء القرية، لم أُحب الزراعة ولا رعاية الحيوانات، كما لم تجذبني مجمل العادات والتقاليد هنا، كنت أتمرَّد عليها مبكِّرًا، حالِمًا بأشياء وأجواء أخرى بعيدة ومختلفة تمامًا.

لاحظت «انضباط» مدى حيرتي وانشغال تفكيري، وعبَّرت لأكثر من مرة عن سعادتها هي وأمي بوجودي معهما، إلا أنها تنتهي بالقول أن سعادتي هي الأولى والأهم بالنسبة لهما، وبأنهما سيدعمانني بأي قرار أتَّخذه... وبشكل ما، كانت هي الأخرى تحاول مساعدتي بالتفكير، اقترحَت ذات مرة أن أُراجع مديرية التربية، وأحاول الحصول على تعيين كمُدرِّس، في أية مدرسة كانت، لكن ذلك كان يعني لي تكبيل نفسي بشيء لا يعجبني وليس له أي أفق متغيِّر، سيكون روتينًا مملًّا حتى النهاية، فاقترحَت عليَّ أن أعود إلى أكثر شيء أحببته في حياتي، إلى المسرح، أن أذهب إلى بغداد وأدخل الوسط الفني من الصفر، ولكن لهذا السبب تحديدًا، سبب الحب، لم أفعل؛ لأن المسرح بالنسبة لي ليس وظيفة، وإنما حُبٌّ أوَّلًا وأخيرًا، وعلاقة حبي به انقطعت، بل وأصيبت بمقتل بعد أن وصل حبي له ذروته عند اقترانه بحبي لزهراء، كما أن الخدمة العسكرية قد سحقت في نفسي كل حماسة لفعل جسدي بعد أن استخدمتني كجسد وحسب، هذا على الرغم من أن جسدي الصحي والقوي أصلًا، قد ازداد قوة بشكل عام. كنت أشعر بالاغتراب عن كل ما يحيطني، لا رغبة لي حتى بالذهاب إلى بغداد لرؤية مسرحية، أو الأماكن التي أحببتها سابقًا، لا أشعر بأي انتماء لأحد أو لأي شيء... ولا حتى لهذا البلد.

لذا حين أدركَت «انضباط» هذا الأمر، اقترحت عليَّ مغادرته، السفر إلى الخارج، الذهاب إلى اسبانيا حيث «مَنهَل»، فكان اقتراحها أكثر شيء أثار في نفسي الحماسة، وجدَّد فيَّ الرغبة بتجديد نفسي، في محيط جديد، بعيدًا عن هذا الذي يحاصرني ولا أشعر بأي تفاعل أو انتماء له.

تهلَّل وجهها، وانهال دمعها حين رأتني قد عثرتُ على شيء أُريده، فقامت هي بكل شيء... لا أدري كيف تواصَلَت مع «مَنهل» وقريتنا بلا هواتف! بحيث رتَّب لي كل الإجراءات سريعًا: عقد عمل، وتأشيرة، وبطاقات سَفر.

- 20 -

استقبلني «منهل» في مطار برشلونة بكامل أناقته المعهودة: بذلة، وربطة عنق، بل ازداد وسامةً بعد أن بدأ الشيب يخضِّب شَعره. عانقني مبتسمًا ومرحِّبًا بحرارة: الحمد لله على السلامة يا فنان.

قدَّم لي باقة ورد وأقلَّني بسيارته، مرسيدس سوداء نظيفة ومعطَّرة. حين أدار مفتاح تشغيل السيارة، صدحت أغنية فلامنكو غَجر إسبانية من المسجلة، فبدَّلها بقرص أغاني غَجر عراقية، قائلًا: كي لا تشعر بمرض الحنين إلى الوطن من أولها.

وقهقه عاليًا. لم يسألني عن أحد، فهو يقينًا يعرف أخبار أهالينا أفضل مني. اكتفى بسؤالي سريعًا عن نفسي، وبمجرد أن قلت له بروتينية: «تمام»، تكفَّل هو بالحديث طوال الطريق، مازجًا بين الجد والمرح.

- خلاص، لا تهتم لأي شيء من الآن فصاعدًا، وعش حياتك كما تريد بمطلق الحرية. إذا شئت، بعد أن ترتاح يوم أو يومين، تعمل ما تستطيعه في المطعم، يعني أن تتواجد وتراقب وتساعد في المطبخ، إلى أن تتعلم اللغة، وتصبح أنت المسؤول عنه. فوق المطعم تمامًا لديَّ شقة صغيرة، فيها غرفتان، واحدة لك والأخرى لي «غرفة عمليات»، وضحك.

حين توقَّفنا أمام المطعم لفت انتباهي اسمه على اليافطة مكتوبًا بالعربية والإسبانية (مطعم انضباط للمأكولات العربية) فالتفتُّ إليه باستغراب قبل أن أُنزل حقيبتي. وجدته يبتسم لي ويقول: «اسم جميل، أليس كذلك؟ كي تعرف كم أنا أصيل ولا أنسى أحبَّتي وأهلي مهما حدث».

لم أعلّق بشيء، وماذا كان بإمكاني أن أقول، وإن كنتُ في داخلي قد انزعجت من إطلاقه اسم أختي على مطعمه، إلا أنني سرعان ما تجاهلت الأمر إلى أن نسيته تقريبًا، حتى وأنا أعمل فيه وأسكن فوقه. دخلنا إلى المطعم الذي كان أغلب ديكوره وأثاثه على الطراز الشرقي: أرائك عليها وسائد وبسط عربية، الطاولات ولوحات الجدران، وهناك الكثير من الأرغيلات. عرّفني على العاملات. مارينا من كولومبيا. قَدَّرْتُها في الأربعين من عمرها أو أقل قليلًا، هي المسؤولة. ساندرا، أسبانيَّة. قدَّرتها في العشرين من عمرها، نادلة، وكوثر المغربية. قدَّرتها في الثلاثين من عمرها، وهي المسؤولة عن المطبخ، وأخبرني بأنها هي التي ستشرح لي كل شيء بالعربية وتترجم عند أي تعامُل؛ لذا فليكن أكثر عملي معها في المطبخ، ومتنقِّلًا في الصالة عند كثرة الزبائن. تحدث معهن عني بالإسبانية، وكان يُضحكهن كثيرًا. قال لي بأنه ذاهب الآن، وسيراني هنا ليلة الغد، ثم غادر بعد أن أعطاني مفتاح الشقة.

كان المدخل الرئيسي للعمارة مجاورًا لباب المطعم. مبنى من أربعة طوابق والشقة في الطابق الأول، فوق المطعم تمامًا. لها شرفة تطل على الشارع الضيق. صعَدت معي مارينا إليها، وهي تشير لي بمفتاح كل باب كي أعرفه، وتشرح لي، بالإشارات وبضع كلمات إنكليزية، كيفية استخدام الحمام والمطبخ وتشغيل التلفاز. شعرت بالراحة للمكان حال دخولي إليه، صالون صغير له شرفة، غرفتان على جانبي الصالون، حمام ومطبخ، وكانت غرفتي نظيفة وأنيقة، كأنها غرفة فندق حديث. سرير واسع، طاولة فوقها بضعة رفوف، خزانة ملابس كبيرة ونافذة تجلب النور وتطل على زقاق جانبي، وما إن تركتني مارينا لوحدي، حتى أعدتُ تفحُّص الشقة، محاولًا استعادة ما علَّمتني إياه عن تشغيل الأشياء. الغرفة الأخرى، والتي أسماها «غرفة العمليات» تشبه غرفتي تمامًا، لا فرق سوى أنها مُستخدَمة، كومة أوراق ومغلَّفات رسائل على الطاولة، هاتف، عُلب بيرة ومنفضة سجائر مليئة بالأعقاب.

الخزانة عامرة بالملابس، بذلات، قمصان، ربطات عنق وصف طويل من الأحذية في أسفلها.

أفرغتُ حقيبتي موزِّعًا ما فيها، كلٌّ في مكانه في غرفتي، ثم جئت من المطبخ بكأس كبير كي أضع فيه باقة الورد التي استقبلني بها «منهل»، وعند خلع الورق الذي يلفُّها من الأسفل، فاجأني أن نهايات الأغصان كانت مجموعة في إحدى فردَتَيْ حذاء طفل رياضي بحجم القبضة. أعجبني هذا التفصيل من قبل «منهل»، كدليل اهتمام واحتفاء، وأفزعني في الوقت نفسه؛ فذلك يعني بأنه يعرف عني كل شيء، والشعور بأنك مكشوف بتفاصيلك الحميمة الخاصة أمام شخص آخر، هو شعور ليس مريحًا أبدًا. لا أنكر إعجابي بجمال فردَتَيْ الحذاء الصغيرتين، وبكونهما يربطانني بذاتي السابقة؛ لذًا علقتهما أمام السرير، أعلى المرآة الكبيرة المُثَبَّتة فوق الطاولة الكبيرة، واستلقيت على الفراش قليلًا، أتأمَّلهما وأنظر إلى نفسي ممدَّدًا في المرآة، محاولًا التفكير في حياتي الجديدة، وكيف ستكون.

- 21 -

خلال الثلاثة أشهر الأولى، عرفت جُلَّ ما يحيطني في المطعم والحيِّ والمدينة، أحببته وتآلفت معه. كانت كوثر هي مفتاحي لهذه المعرفة. أرافقها أغلب الوقت في المطبخ. أغسل الصحون وشتَّى أنواع المواعين، أغسل الخضروات وأقشِّرها، أقطع اللحوم وأمسح الأرضية، أُعِدُّ الأرغيلة لمن يطلبها من الزبائن. كوثر طيبة وبسيطة، مُحَجَّبة بمنديل يخفي نصف الرأس. فكرت في البداية أنها تضعه تجنُّبًا لوصول قطرات زيت الطبخ وبخاره ورائحة الأطعمة إلى شَعرها، إلا أنني رأيتها تضعه دائمًا حتى حين نلتقي خارج المطعم لتعرِّفني على المنطقة، وعندما نذهب لشراء بعض المواد الغذائية، وكنت أنا بالطبع أحمل كل المشتريات، رغم محاولاتها أن تساعدني في حملها، لكنني كنت أرفض، فهي

عرجاء، تعاني من قِصَرٍ قليل في أحد ساقيها منذ الولادة. إذًا هي متدينة إلى حدٍّ ما. تعمل من أجل أمها المريضة وشقيقتيها اللاتي يصغرنها سنًّا. تقول بأنها تريدهما أن يكملا دراستيهما في الجامعة ولا ينتهي الأمر بهما مثلها، فقد اضطرَّت لترك دراستها منذ موت والدها الذي كان عاملًا في البناء، وتوفِّي قبل سبعة أعوام إثر سقوطه من أعلى إحدى البنايات، وبالتعويض المادي الذي دفعته الشركة، استطعن شراء شقة صغيرة لهن، وقرَّرت كوثر ترك الدراسة والعمل من أجل المصاريف. كان عمرها تسع سنوات حين جاء بها والدها إلى برشلونة مع أمها. وجدتُ طبيعة كوثر تشبه كثيرًا أختي انضباط، وأغلب الأحيان تعاملتُ معها على هذا الأساس، على الرغم من أنني شعرتُ بأنها صارت تُحبِّني.. لكنني قرَّرت ألَّا أدخل في أية علاقة عاطفية جادة تستولي على قلبي بعد زهراء.

يقع المطعم وشقتي في أحد أزقة حيٍّ «الرابال»، وفي هذا الحيِّ الكثيرُ من المهاجرين من كل الجنسيات، بما في ذلك بائعات هوى يقفن في زاويته منذ الغروب وحتى الصباح. كانت كوثر تعلمني الكثير من الكلمات والعبارات بالإسبانية والكاتالانية أثناء العمل، بل واصطحبتني للتسجيل في كورس لغة مجاني للمهاجرين، تقدِّمه إحدى الجمعيات الثقافية بدعم من البلدية، وهناك رأيت أجمل امرأة في حياتي، شابَّة روسية شقراء تجلس إلى جواري. كنت أذهب إلى الدروس في ساعات الصباح؛ لأن دوامنا في المطعم يبدأ من الثانية عشرة ظهرًا إلى الثانية عشرة ليلًا، باستثناء ليلتَيْ الجمعة والسبت، نبقى حتى الثانية، وأحيانًا الثالثة بعد منتصف الليل، أمَّا يوم العطلة الأسبوعي فهو الإثنين فقط، وكان منهل الذي يناديه الجميع «مانويل» لا يأتي إلينا إلا في الليل، بكامل أناقته وعطره، يجلس على أريكة قرب الباب، مدخِّنًا أرغيلته ممازحًا الجميع، وما أكثر ما رأيت من أشخاص يأتون للسلام عليه بحرارة أو يجلسون معه، وما من زبون دخل إلا وتبادل معه بعض الحديث والضحكات. كان ساحرًا اجتماعيًّا بحق. يحفظ الكثير من النكات والأشعار والأغاني

والأقوال، يعرف شيئًا عن كل شي، بحيث يستطيع الحديث مع أي كان مهما كان اهتمامه واختصاصه. عرفتُ أن لديه العديد من الإشكاليات القانونية، ولكنه كان يحلها بذكاء وود، بمعيَّة صديقه المحامي «رامون»، الذي يشبهه في التفكير وفي السلوك، يأتي حاملًا حقيبته للسهر معه مرة في الأسبوع، يقلِّبان الأوراق ويوقِّعانها فيما تعلو ضحكاتهما وهما يواليان احتساء كؤوس النبيذ دون توقُّف.

تقول لي كوثر إن «منهل» رجل ثري وذكي. لديه محلات لبيع الملابس ومطاعم أخرى، ولديه شاليه كبير في حيٍّ راقٍ. له علاقات بآلاف الناس في المدينة، مسؤولين كبار وأناس عاديين من الشارع. إنه إنسان (عجيب) على حد وصفها، وعن تغييره لاسمه من «مَنهَل» إلى «مانويل» قالت بأن الكثير من المهاجرين يفعلون ذلك، عندما تكون أسماؤهم الأصلية صعبة اللفظ أو غريبة، فيختصرونها أو يختارون اسمًا محليًّا مشابهًا للتعامل به شفاهة، ولأن الأسبان لا يلفظون حرف الهاء؛ كانوا ينادونه (منيل أو منال) فغيَّر اسمه إلى (مانويل) منذ البداية، ولا أحد يعرفه الآن بغير هذا الاسم لاحقًا، حتى أنا صرت أناديه به.

عند انتهاء دوامي وإغلاق المطعم ذات ليلة وصعودي إلى الشقة، فاجأني وجوده مع مارينا الكولومبية في الصالون. جالسان على الأريكة شبه عاريَيْن، يقبِّلان بعضهما، وأمامهما، على الطاولة، قنينة ويسكي، عُلب سجائر، صحون طعام خفيف وأقداح أخرى كثيرة، فيما يبثّ التلفاز قبالتهما أغاني سامبا. رحَّبا بي ودعياني للجلوس معهما، لكنني اعتذرت ودخلت إلى الحمام أغتسل، وعند خروجي دعياني مرة أخرى وهما يلوِّحان لي بكأسيهما من بعيد ويهتفان: بصحتك يا أمير، تعال وخذ لك كأسًا يا جميل.

فاقتربت منهما، ساكبًا لي كأسًا من الويسكي على قطع من الثلج، قارعته مع كأسيهما ثم دخلت إلى غرفتي، وبعد أن أنهيته في نصف ساعة تقريبًا، خرجت للذهاب إلى الحمام للمرة الأخيرة قبل النوم، فلم أجدهما في

الصالون، كانا قد دخلا الغرفة الثانية، ومن وراء الباب كانت تتناهى إلى سمعي تنهداتهما وشهقات متعتهما، لحظتها شعرت بحاجتي إلى جسد امرأة.

حين سألت كوثر في اليوم التالي عن علاقة مانويل ومارينا. قالت بأن علاقتهما معروفة، كأنهما زوجان، إلا أنهما غير متزوجين رسميًّا؛ لهذا فإن مارينا هي مديرة المطعم والمسؤولة عن كل شيء فيه، وهمست لي بأن مانويل زير نساء، وبأنه لم يتزوج إلا مرة واحدة أول وصوله إلى هنا من امرأة أسبانية، زواجًا مؤقّتًا، وبالاتفاق؛ من أجل ترتيب أوراقه والحصول على الجنسية. وسألتها إن كان قد حاول معها أيضًا، فابتسمت قائلة بأنه يفعل ذلك مع كل امرأة يلتقيها، حتى وإن كانت زبونة أو عابرة أمام الباب تحييه، ولكنه لا يفرض شيئًا على أحد، ويتعامل باحترام تام. يعرف جيدًا ما يمكن وما لا يمكن، إلا أنه يجيد التلميح والغزل الذي من النادر ألّا تلين أمامه امرأة.

ما من مرة جاء فيها إلى المطعم إلا ومرَّ على البار المقابل لنا على الرصيف الآخر من الشارع. عرفت من كوثر أنه شريك فيه مع السيدة الأسبانية التي تديره مع ابنة عمها، وهو بار مخصَّص للشراب أكثر من الطعام، ودوامه من الرابعة عصرًا وحتى الثانية ليلًا. ذهبتُ مع مانويل عدة مرات إلى هناك بعد إغلاق المطعم، وكنت أجد البار ضاجًّا بالصخب والازدحام. يعرف مانويل أغلب زبائنه، ورأيته يحتضن صاحبة البار (كارمن) لأكثر من مرة، بل وقبَّلها من فمها ذات مرة. كانت امرأة في الأربعين أو أقل، ممتلئة البدن وبثديين كبيرين، تترك نصفهما الأعلى مكشوفًا دائمًا، وتتيح للجميع تأمُّلَه كلما انحنت لفعل شيء. ثدياها مُغْريان فعلًا وهي تدرك ذلك وتوظفه. كانت تأتي أحيانًا، هي أو ابنة عمها العاملة معها، إلى المطعم لطلب شيء ينقصهما من بيرة، شرائح جبن، قطع خبز، زيتون وما إلى ذلك، وكنا نفعل الشيء نفسه بالذهاب إليها لجلب شيء ينقصنا.

عند انتهاء دوامنا ذات ليلة، انتقلنا جميعًا إلى بارها، فعرفتُ بأن المناسبة عيد ميلادها؛ لذا تمَّ إغلاق البار في الساعة الواحدة، وبقينا فيه نحن وآخرون من أقاربها ومعارفها فقط. كانت سهرة رائعة حقًّا،

غناء ورقص ودخان وسُكْر، غنَّى الجميع، بمن فيهم أنا ومانويل، غنَّينا «طالعة من بيت أبوها رايحة لبيت الجيران، فات ما سلَّم عليَّ، يمكن الحلو زعلان»، وكان الجميع يردِّد معنا النهايات فقط ويضحك «آن، آن». تحدَّثوا عن الأعمار، وأزمة سن الأربعين الذي دخلته كارمن الليلة، وعرفتُ أن عمر مارينا ستة وثلاثين عامًا، وكوثر ثلاثين، وقال مانويل إنه مراهق، عمره عشرة... وأربعون، فضحكوا. كانت كوثر أول المغادرين وأنا آخرهم، فعند نزولي الدرج إلى الحمام في إحدى المرات، تصادف ذلك وصعود كارمن خارجة منه. كانت منتشية وسكرانة، فمدَّت كفها بين ساقي وقبَّلتني قائلة: شكرًا يا أمير على حضورك، ولا تذهب إلَّا آخر واحد، كي تساعدني في إغلاق البار، ثم غمزت لي وصعدَت ضاحكة، بعد أن أشعلت النار في دمي.

كانت تلك ألذَّ ليلة لي منذ وقت طويل. قالت اعتبرها هدية عيد ميلادي. كنا عاريين تمامًا لوحدنا في البار المغلق. ضوء خافت وبقايا دخان وكؤوس. التحمنا لأكثر من مرة وفي أكثر من مكان: فوق طاولتين، على كرسي وهي تجلس فوق فخذي فاتحة فخذيها وكل صدرها المدهش أمام وجهي، منحنية على دكَّة البار وأنا خلفها... بعدها، صعدنا إلى غرفتي؛ لأن الوقت قد تأخَّر كثيرًا. نامت معي، وفي الصباح كرَّرنا التحامنا في السرير... وعلى مدى شهرين، صارت تأتي للمبيت عندي كل ليلة، وفي مرتين، صادفنا وجود مانويل ومارينا في الصالون وسهرنا معهما، وجرَّبتُ أنا -لأول مرة- تدخين الماريوانا، لكنها لم تعجبني، فلم أكرِّر تدخينها مرة ثانية.

- 22 -

لم تعد كارمن تأتي للمبيت معي كل ليلة، وصارت تقدِّم شتى الأعذار كلما طلبت منها ذلك، ثم راحت تلمِّح لي بشأن رفيقتها في البار، ابنة عمها، قائلة: «أنا عجوز، وأخذتُ نصيبي بما فيه الكفاية، انظر إليها.. ما أجملها».

تقول الجملة الأخيرة بصوت مسموع، فتلتفت ابنة عمها وتبتسم لي بغنج؛ لذا لم أتردَّد طويلًا بمرافقتها للمبيت على مدى ثلاثة أشهر، لأكتشف بعدها ما صدمني وهزَّ طبيعة حياتي الجديدة التي تآلفت معها وأحببتها. الاثنتان حاملتان مني، ولا أدري ما الذي عليَّ قوله أو فعله حيال ذلك، فكنت أذهب للجلوس وحيدًا على شاطىء البحر ليلًا. هناك على مصطبة قرب «الميناء القديم». أتأمَّل البحر وأدخِّن وأفكِّر، دون الوصول إلى خلاصة أو الاهتداء إلى موقف أتخذه؛ لذا كانت الفرصة مواتية حين دخلت الشقة ووجدت مانويل في غرفته وهو منشغل بكومة أوراقه على الطاولة تاركًا باب الغرفة مفتوحًا، فحيَّيته وسألته إن كان لديه وقت لكي أتحدث معه في موضوع مهم، فقال: أعِدَّ طاولة الشراب في الصالون وسآتيك بعد دقائق.

فاجأني رد فعله عندما أبلغته بأمر حمل كارمن وابنة عمها. قال بأنه يعرف ذلك. هنَّأني بحرارة وقارع كأسه بكأسي قائلًا إنه فخور بي لأنني أوسِّع عائلتنا إلى هنا وأمدُّ جذورها في العالم. قالها وهو يضحك، فقلت له بانزعاج: ولماذا لم تفعل ذلك أنتَ إذًا؟

قال: أنا عقيم يا صديقي، لا أحد يحصل على كل شيء في هذه الدنيا، ولو لم أكن عقيمًا لملأت الأرض بأبنائي كما فعل الخلفاء وأمراء المؤمنين من سلفنا الصالح.

وقهقه ضاربًا أمثلة عن عدد أبناء بعض السلاطين والخلفاء، ثم راح يطمئنني بعد أن رأى فزعي، ويقنعني بأن الأمر عادي، وأن أجدادنا العرب القدماء، في الجاهلية، كانوا يفعلونه باسم «الاستبضاع»، وهو عادي في عالم اليوم أيضًا، حيث هناك الملايين ممن يسمَّينَ بالأمهات العزباوات، وثمة سوق للعيادات والبنوك المنويَّة، فرحتُ أُكثِر من الأسئلة وعمَّا يمكنني فعله، فقال: «ليس بيدك شيء تفعله، هذا الأمر بيدهما، والقانون معهما». واستفسرتُ عن مسؤولياتي كأب وعن التسجيل القانوني للأطفال وما إلى ذلك،

فطمأنني بأنه ليس هناك أية مسؤولية عليَّ ما دام الأمر برضا الأمهات ورغبتهن، أما عن التسجيل فالأمر متروك لرغبتي في أن يحملوا لقبي أم لا، ويمكن للأمهات أن يمنحن ألقابهن لأبنائهن عند التسجيل. تحدث معي طويلًا إلى أن اطمأن عليَّ، وهو يؤكِّد لي بألَّا أقلق ولا أهتم لأي أمر وأن أفعل ما أشاء، وأي إشكال فهو موجود لحلِّه، عدا أنه يعرف كارمن جيدًا، وكانت له علاقة بها من قبل حين اشتغلت عنده في المطعم كنادلة، ثم ساعدها وشاركها بفتح البار المقابل، وأنها دائمًا كانت تحلم بإنجاب طفل قبل أن يمضي بها العمر، ولكي تُسعد والدها العجوز الذي يعيش معها، وهي ليست بحاجة لأي مال منكَ ولا أي شيء، ولك أن تتعامل مع الطفل بالطريقة التي تريدها أو ألا تتعامل معه أبدًا... لا تقلق يا أمير، واستمتع بالحياة ومَتّع الآخرين. إنك تسعدهن بذلك دون أن تخسر شيئًا. «وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وتفاخر بينكم..».

لم يكمل الآية التي تشير للتفاخر بالأولاد، وعقّب بالقول: «حسب معرفتي وقناعتي وتجاربي الطويلة في الحياة، إن هذا هو أفضل وأدق تعريف للحياة، وهو في نهاية الأمر تعريف رب العالمين لها، هو رب الحياة والموت والعارف بها، فالعَب والهُ بها يا أمير، إنها هدية منه. إن الحياة جميلة وقصيرة، فعشها بكل ذرة وتفصيل فيها، بمتعة وليس بقلقٍ وكآبة».

لقد كان مانويل بالفعل، التطبيق الحقيقي والكامل لما كان ينصحنا به الدكتور ياسين، من أن نعيش الحياة في أوانها، أن نعيش اليوم بيومه واللحظة بلحظتها، أن نعيش الحاضر ولا ننشغل بالماضي والمستقبل... بعدها بأيام، فاجأني خبر صاعق آخر، قرأته في الصفحة الثقافية لجريدة جزائرية نسيها سائحان عابران تناولا عشاءهما في المطعم. «مسرحية (السيدة هاملت) العراقية تفوز بجائزتَيْ التمثيل والإخراج في مهرجان المسرح العربي في الجزائر»، وتحت العنوان، صورة تجمع زهراء والدكتور ياسين، وتختم الصحفية تقريرها بالقول: «ومن الطريف الجدير بالذكر، أن المخرج والممثلة متزوِّجان ولديهما طفلة أسمياها هاملت».

تركتُ كل شيء وصعدت راكضًا إلى غرفتي والجريدة في يدي، وهناك رحت أعيد قراءة التقرير وأحدِّق بالصورة مرة تلو مرة، بيد مرتعشة، أنفاس متسارعة، قلب مضطرب وتدخين متواصل، حتى كدت أحفظ التقرير عن ظهر قلب. المسرحية من إعدادهما المشترك، وتقوم على تغيير الأدوار في مسرحية شكسبير، محوِّلَةً كل الشخصيات النسائية إلى رجال والعكس. بديا سعيدين في الصورة، ملتصقي الكتفين، مبتسمين للكاميرا وفي يد كل منهما جائزته. زهراء لا تزال محافظة على قَصَّة شعرها القصير ذاتها، ولم تعد نحيفة كما عرفتها، جسدها الآن أكثر امتلاءً؛ ممَّا جعلها أكثر جمالًا، بِخَدَّيْن لامعين، أما «سينو» فقد تخلَّى عن ثيابه الغريبة المتمردة التي عرفناه بها وارتدى بذلة تقليدية أنيقة وربطة عنق، وقصَّ نصف ذيل شَعره ليصبح بمستوى قصة شَعر زهراء تقريبًا.

اجتاحني غضب عارم ووجدت نفسي أدور حول نفسي في الحجرة المغلقة، أركلُ الأثاث والجدران بقدمي، أضربها بقبضتي، أدُقُّ بجبهتي عليها، أشدُّ شَعري، أبصق وأشتم بصوت مسموع. وحشٌ جريح في قفص، في مصيَدة، في كمين، خدعوه وأوقعوه في أعماق بئر حفروه له... لا، ليس وحشًا... إنما هو قلبي الساذج وقد طعنوه. أهذه هي التي كسرتُ ذراعي من أجلها! وددتُ لو أبكي حين رميت بجسدي على السرير، لكن غضبي كان أقوى، واكتفيت بدعك الجريدة بين قبضتيَّ بعنف، بصقتُ عليها، ثم حملتها إلى المطبخ وأشعلت النار بها في المغسلة، أُحدِّقُ باللهب يأكلها وأكزُّ بأسناني، إلى أن تحوَّلَت إلى رماد، ثم فتحتُ فوقها حنفية الماء ورحتُ أتابع تسرُّب الرماد في جوف فتحة المجاري حتى اختفى بكامله تمامًا. غسلت كفَّيَّ ووجهي بماء بارد. ووجدتُ نفسي أبتسم ثم أضحك وأقهقه مردِّدًا: «آه... أيها الملاعين.. يا سلاحِف.. ههههها هاهاها.. اغربوا عن وجهي أيها السلاحِف»... وخرجت.

ذهبتُ مباشرة إلى بار كارمن، هنَّأتها بالحمل هي وابنة عمها، وطلبت منهن أقوى شراب. شربتُ ودخنتُ وثرثتُ هناك إلى أن غبتُ عن الوعي،

وأذكر من بين ما قلته لهما، جادًّا وممازحًا، أمام استغرابهما من حالي وقلقهما عليَّ، بأنني على استعداد لمنحهما، هما أو سواهما، المزيد من الحَمل. بقيتُ لأيام شارد الذهن، الحنق يغلي في رأسي وقلبي يؤلمني مثل دملة...

عادت بعدها علاقاتي طبيعية مع كارمن وابنة عمها، وكانت تسرني سعادتهما وهما يحدثانني عن تطوُّرات حملهما، يأخذان كفي لتمسيد بطنيهما وتحسُّس نبضات الجنين... وبشكل ما، صرتُ أفكِّر بأمر الإنجاب على أنه نوع من الانتقام مِن زهراء، ومِن سينو، ومِن نفسي، ومِن أبي الذي حرمني من الإخوة والأصدقاء. ومن كل المنظومات الاجتماعية والبشرية المُخادِعة. أتقلَّب بالتفكير بين التبرير لزهراء وسينو وبين وصمهم بالخائنين لي، بين الانتقام من الموت لخطفه ابنتي وتدمير حُبي وبين التعويض عن خسارتها وخسارة حُبي، فأبرِّر لنفسي أحيانًا، حدَّ الرضى، بأنه تعويض لفقدي طفلتي الأولى «أميرة الزهراء»، فإن كنتُ قد خيَّبتُ أمل زهراء كزوج، وفشلتُ بأداء الدور الصحيح كأب حين دفنتُ صغيرتي على ذلك النحو الفوضوي، بلا أية طقوس تليق بميت، فها أنا أعوِّض كل ذلك بمزيد من الأحياء، دون الحاجة لتحمُّل أية مسؤولية، لا كزوج ولا كأب، لا أريد ممارسة دور الأب على أبنائي، لن أفعل كما فعل أبي معي، سأتركهم أحرارًا تمامًا.. يقتصر دوري على إسعاد الآخرين وبَثِّ حياة جديدة، بدل تلك الحيوات التي أخذتها الحروب وأنظمة القمع، ذلك الخوف القديم من فقدان المعارِف والزملاء... أبرِّر لنفسي ولغيري أحيانًا، وأنتقم من نفسي ومن غيري أحيانًا أخرى، ثم كففتُ بالتدريج، عن كلا الأمرين المُتعِبين، بلا طائل، وأصبحتُ، في أغلب الأحيان، أتجَنَّب، بل لا أُبرِّر ولا أُفكر أصلًا... وهكذا وجدتُ نفسي -دون تردُّد- أستجيب لكل امرأة ترغب بإنجاب طفل، شرط الاتفاق بألَّا تقع على عاتقي أية مسؤولية أو التزام. بعضهن كانت تجلبهن كارمن من معارفها وزبائنها، أغلبهن قد أوشكن على

بلوغ الأربعين، ومنهن ثَرِيَّات اصطحبنني إلى بيوتهن الفخمة، وأغرقنني بالهدايا من ثياب وعطور وأحذية، بل حتى بمنحي المال أحيانًا.

تغيَّرت نظرتي للحياة وصرتُ أسعى لعيشها بانفتاح وحرية مطلقين، بل صرت أعيشها بمتعة حقيقية، وبلا أي هدف منها سوى المتعة، ولاحظت تزايد استجابتي لتأثيرات مانويل عليَّ، بمرحه، لعبه، تمتُّعه وأناقته، حتى وإن لم أعتد ارتداء البذلات وربطات العنق مثله، إلا أنني رحتُ أعتني بنفسي أكثر. ملابس حديثة، ماركات، عطور، طعام، شراب، ضحك، جنس، استرخاء، ثقة بالنفس، ضحك، ذاتي.. أو حتى أنانية... زرتُ أماكن جميلة في برشلونة وحولها، أطلتُ شَعري بعناية، حَسَّنتُ لغة تواصلي بالإسبانية، سهرتُ في أماكن غالية، حضرتُ حفلات خاصة وعامة... وحقَّقتُ رغبتي بالشقراء الروسية التي كانت تبدو مستحيلة.

- 23 -

طوال أشهر كورس اللغة، كانت «دوشكا» تجلس قربي، بيني وبين النافذة، ومشهد انعكاس النور على شَعرها الذهبي وبشرتها الرقيقة البَضَّة الصافية يسحرني، صرتُ أعرف حتى تفاصيل الزغب الخفيف على ذراعيها، وحين يكون النور أشعة شمس، أراه يتخلَّل لحمها لفرط شفافيته. يمرُّ الضوء من خلال عنقها وأُذنها؛ فتبدو حمراء مُزهِرة، وأكاد أُحصي شعيرات الدم فيها، كذلك الأمر مع الفاصل الغضروفي وسط أنفها، حين يتسلَّل شعاعٌ عِبر منخرها الذي من جهة النافذة إلى المنخر الذي من جهتي، يبدو كفراشة صغيرة حقًّا. ساق على ساق. كفان طريان بأصابع كقطع حلوى، أحسد الورق والقلم عليهم. صدرها نافر بحلمتين تدفعان قميصها بوضوح؛ لأنها لا ترتدي حمَّالة صدر. رشيقة، أنيقة، فاتنة القوام، أود لو أحتضنها، أطوِّق خصرها وأشدها إليَّ؛ لذا أقول -بلا تردد- بأنني لم أرَ امرأة أجمل منها في حياتي، وأكاد أجزم بأنني لن أرى بجمالها مستقبلًا أبدًا. كانت بالغة الرِّقَّة واللطف والتهذيب، بنبرة

صوت تقطر أُنوثة. كل شيء يعجبني فيها ويجذبني إليها، باستثناء اسمها: «دوشكا»؛ لأنه يذكِّرني بأعوام خدمتي في الجيش، فهذا الاسم لسلاح الدوشكا الذي طالما أمضيتُ النهارات والليالي المريرة المهدورة من عمري مرابطًا عليه. لم أشعر حيالها بالحُب، ولن أسمح لنفسي بذلك، لكنني كنتُ أشتهيها حقًّا. شعوري تجاهها يشبه الحُبَّ، ولكنه ليس حُبًّا... عاطفة غريبة أو حتى مجنونة، إلى الحد الذي تصوَّرتُ فيه بأنني إن لم ألتحم بها عارية فلا يمكنني حتى الادِّعاء بأنني راضٍ عمَّا عرفته من أجساد النساء في حياتي؛ لذا لا بُدَّ لي من نَيْلِها بأي شكل كان، أن ألمسها، أضمها، أشمها، أُقبِّلها ولو لمرة واحدة فقط، وإلا سأمضي حياتي وسأموت وفي داخلي رغبة حقيقية، أو بوصف أدق: غُصَّة أو حَسرة.

رحتُ أتقرَّب إليها بكل السبل. أسئلة عن الدروس، مشاركة في حَلِّ الواجبات، تناول شيءٍ في كافيتيريا الجمعية أو خارجها. دعوتها في كل مناسبة إلى المطعم أو بار كارمن، فصرنا أصدقاء إلى حدٍّ ما، ولكن لا شيء أكثر من ذلك، فقرَّرتُ أن أقول لها بأنني أُحبها لفتح علاقة أخرى معها، حتى وإن كنتُ في داخلي -حقيقة- لا أشعر بما يمكن تسميته حُبًّا، فكانت خيبتي أنها اعترَفت لي بأنها مُرتبطة، تُحب فتاة أخرى وتعيش معها، وأنهما يخطِّطان للزواج قريبًا، بل إنها قد هجرت بلدها روسيا من أجل حُبِّها، وجاءت إلى هنا لتعيش مع المرأة التي عرفَتها قبل عام وعشقَتها عندما جاءت في زيارة إلى هنا كسائحة، ثم عرَّفتني لاحقًا على حبيبتها «إيبا»، فتاة برشلونية جميلة هي الأخرى، وكان العشق بينهما طافحًا بائِنًا. قَبِلتني كصديق وخرجنا للسهر معًا مرَّاتٍ عديدة، ومع ذلك لم أستطع الخلاص من شدَّة اشتهائي لها أبدًا، ولم تُتِح لي أية فرصة أو تُوحي بأي أمل بها، حتى كدت أفقد الأمل فعلًا... إلى أن حدَثت المفاجأة ذات ليلة، عندما سهرنا في بار كارمن التي كانت في شهرها الثامن من الحمل، وبنت عمها في الشهر الخامس، وتعاقدن مع فتاة أخرى لتقوم بالخدمة الأكبر، وبعد أن دار في رؤوسنا الشراب وتعالت

القهقهات والممازحات، لا أدري كيف أخبرتهما كارمن بأنني أنا الأب لهذين الجنينين. سألتني دوشكا غير مُصدقة، وأكَّدتُ لهما صحة القول، عندها نظرتا إلى بعضهما وسألتني إيبا: أهذا يعني بأنك مستعدٌّ للتبرُّع بحيامِنكَ أو بيعها؟

فقلت بزهو: لا، لا أتبرَّع بها أو أبيعها في العيادات والمختبرات ليأخذها من بَعْدُ أناسٌ مجهولون، وإنما فقط أُهديها مباشرة لأناس أعرفهم وأحبهم وأثق بهم، وأعرف أنهم يستحقون هدية عظيمة كهذه.

فقالت دوشكا: وهل تعتبرنا أنا وإيبا من هؤلاء الناس؟

فهتفت منتشيًا بسكري وبالحوار: طبعًا، بكل تأكيد، بل إنني مستعد لأن أدفع أنا كي تقبلا مني هذه الهدية.

ضحكنا وتهلَّل وجهاهما، ثم سألت إيبا: وكيف سنفعل ذلك؟ هل أنتَ مستعد للذهاب إلى عيادة فعلًا؟

- لا، لا أبدًا، وإنما كما يفعل الناس منذ آدم وحواء.

فرأيتُ على وجهيهما بعض التعبير عن الاشمئزاز وهما تتبادلان النظرات، فسألتهما: «هل يعني هذا بأنكما لم تلامسا رجلًا في حياتيكما؟».

فقالتا: «نعم، في بداية المراهقة والنضج».

وكانت تجاربهما مزعجة وسيئة جدًّا، فقلت لهما: «ربما كان العيب كامنًا في جهل أولئك الذين عرفتاهم آنذاك»، فقالتا: «ربما». ولكن مسألة المثليَّة الجنسية عندهما أصيلة وفطرية، طبيعية، وليست مجرد رِدَّة فعل أو عقدة من حادث ما، فأكدت لهما تفهمي لذلك واحترامي له، وكلما حاولتُ تغيير الموضوع كي لا أجرح حساسيتهما، كانا هما من تَعُودان إليه بأسئلة مثل: «وهل أنت على استعداد بعدم التدخُّل إطلاقًا بعد الحمل والولادة وما بعدهما؟»، فأكَّدت لهما: «بل إن هذا هو شرطي أنا؛ لأنني أريد أن أبقى حُرًّا دون الارتباط بأحد؛ ولهما أن يتأكَّدا من ذلك بسؤال كارمن».

بعدها بأسبوع دعتاني للعشاء في شقتهما. كانت عشًّا جميلًا، بالغ الأناقة والنظافة، ولها شرفة واسعة تطل على البحر، تم تقسيمها إلى قسمين واسعين. أحدهما غرفة نوم وفيها الحمام، والقسم الآخر صالون، وفيه مطبخ مفتوح، وطاولة كبيرة مستطيلة، عليها جهازًا كمبيوتر والكثير من الكتب والأوراق والأدوات المكتبيَّة، فيما تحتلُّ رفوف الكُتب جدارًا كاملًا، وعلى بقية الجدران بعض اللوحات وصور عديدة لنساء معروفات، كفيرجينيا وولف وسيمون دي بوفار وفريدا كالو وجان دارك وماري كوري وغيرهن، وليس هناك أية صورة لرجل باستثناء أوسكار وايلد.

أعدَّتَا عشاءً رائعًا، قرابة العشرين صحنًا بأشكال مختلفة ومتناسقة وأغلبها صحون فنية التصميم وفيها أنواع من الحساء والسلاطة والخبز وطبخات الخضروات، إلا أنها خالية من أية قطعة لحم. قالتا بأنهما نباتيَّتان... جلسنا طويلًا حول مائدة الطعام نتبادل الأحاديث، بصحبة موسيقى كلاسيكية هادئة. عرفت بأنهما تعملان في ميدان الثقافة عمومًا، في الآداب وترجمتها بشكل أكثر، فعدا عملهما كوَكِيلتين أدبيتين للعديد من الكُتَّاب في العالم، وتتوسَّطان بينهم وبين الناشرين والصحافة.. وغيرها، فهما تعملان في القراءة وتحرير النصوص والترجمة مع عِدَّة دور نشر في أكثر من بلد، فكل منهما تجيد أربع لغات على الأقل، وتفكِّران مستقبلًا بتأسيس دار نشر ومكتبة هنا خاصة بهما، وسألتاني عن نفسي، فحدَّثتهما عن شغفي القديم بالمسرح ودراستي له، فزاد ذلك من ثقتهما بي، بل وإعجابهما، وحاولا بحماس حقيقي إقناعي بالعودة إلى المسرح، وبأنهما ستساعدانني في هذا المجال من خلال معرفتهما به ومعارفهما في الوسط الثقافي هنا، أو حتى أن أكتب نصوصًا مسرحية كما كُنت أفعل، وهما ستجدان مَن يترجمها من العربية بسهولة، أو حتى أن أكتب كتابًا تعريفيًّا بالمسرح العربي أو العراقي. كانت اقتراحاتهما تنهال بإبداعية وصدق، حتى كدت أُقرِّر ذلك؛ لكنني قاومت بصعوبة، وحدثتهما عمَّا قد يسبِّبه لي ذلك من ألم، وخشيتي من أن يفتح جرحًا

قديمًا مرتبطًا بزهراء، فقالتا إن العكس هو الصحيح، وإن مواجهة نفسية كهذه ستكون هي العلاج للتخفيف أو حتى التخلّص من ألم مكتوم، وكما تعلم، أن الفن عمومًا أو المسرح تحديدًا قد نشأ باعتباره أداة تعبير وتطهير، ولم أستطع مقاومة حججهما وطريقة طرحهما وتجنُّب إلحاحهما بالاقتراحات، إلى أن وعدتهما بأنني سأفكر بالأمر لاحقًا على مهل. مرَّ الوقت سريعًا ورائعًا معهما بحيث لم ننتبه إلا وقد تجاوزت الساعة الواحدة ليلًا، وبأننا قد شربنا الكثير، وأن الأمر الذي قد دَعَتاني من أجله قد حان.

- 24 -

بدا ارتباكهما واضحًا، وأعلنتا عنه صراحة، ثم اهتديَتا إلى حلٍّ أراحهما وأزعجني، وهو أن يتمَّ كل شيء في الظلام. ذهبنا إلى غرفة النوم المُرَتَّبة المُعَطَّرة الجميلة، وتخيلتهما عاريتين كحوريتين تسبحان في بياض هذا السرير الواسع. رفضتا اعتراضي على إطفاء النور، قالتا بأنه ستار يعينهما على مداراة خجلهما مني وغيرتهما على بعضهما، فاستسلمت للتجربة. كنا نقف ثلاثتنا قرب السرير حين أطفأت إيبا النور، فصارتا أكثر مرحًا، ومن خلال الأصوات كنت أتخيلهما وهما تخلعان ثيابيهما الواحدة عن الأخرى، احتضانهما لبعضهما، التقبيل والمداعبات، وتصاعد الأنفاس، فيما بقيتُ أنا واقفًا مكاني، أسترق السمع واللَّذَّة القريبة، إلى أن امتدت يد إحداهما تلمسني: اخلع ثيابكَ.

ففعلتُ، راميًا بها على الأرضية كيفما اتَّفق، فقد كان فحيحهما يحرِّك دبيب الرغبة في دمي، ومع ذلك قلتُ بأنني لن أُثار ولن ينتصب فيَّ شيء على هذا النحو، ولا بُدَّ من بعض الملامسات على الأقل، وحال سماعي لصوت إحداهما يندُّ بآهة تعني: نعم. صادرة من فم ملتحم بفم آخر. مددت ذراعي في الظلام، فلامست إحدى كفَّيَّ كتفًا عارية، أحسستُ بها تجفل حال لمسي إياها، وأطبقت الكف الأخرى مقابله فلمس ظهرًا

ضامرًا عرفت أنه ظهر دوشكا على الفور، من خلال ملامسة أصابعي لأطراف شعرها الطويل، فيما كان شَعر إيبا قصيرًا. جفلت دوشكا هي الأخرى حال ملامستها؛ لكنهما واصلتا التحامهما ببعضهما، فواصلتُ أنا اقترابي وتحسسي لِقَفاها، نزولًا من الرقبة إلى الكتفين، الظهر، والأرداف. كل شيء فيهما كان ناعمًا وطريًّا بشكل أجَّج الشهوة فيَّ بقوة، فوقفت خلف دوشكا، دسست أنفي في شعرها الناعم المُعَطَّر، وأنا أتذكَّر التماعه الذهبي الساحر أمام نافذة دروس اللغة، ورحت أشمُّها، أُقَبِّل رقبتها، خلف أذنيها، ونزولًا على امتداد ظهرها، فيما كفَّاي تجوبان جانبيها دون أن أفلح بالوصول إلى حلمتيها اللتين أتوق إليهما؛ لأن صدرها كان ملتحمًا ومُغَطًّى بصدر إيبا الأكبر منه، فتحسَّست النهود الأربعة من الجانبين، ثم أنزلتُ كفَّيَّ على خصرها، فخذيها، ساقيها، دون التوقُّف عن تقبيل رقبتها وكتفيها وخدَّيها. مددتُ أصابعي من تحت إليَتيها فاصطدمت بأصابع تداعِب ما بين ساقيها، هي حتمًا أصابع حبيبتها، وحين دفعت كفي أكثر، لامست أصابع دوشكا وهي تداعب إيبا، لم يكن ثمة فرصة لأصابعي هناك في تلك اللحظة. استدرتُ خلف إيبا، أفعل الشيء نفسه. كانت أكثر امتلاءً من دوشكا وبمؤخرة أشد بروزًا وتكوُّرًا، فالتصقتُ بها أكثر ورحت أحتكُّ، صعودًا ونزولًا فيما ذراعاي تطوقَّانهما معًا، وكفاي على خصر دوشكا وردفيها تَشُدَّانهم. دسستُه مستقيمًا أسفل إيبا، مقتحمًا معركة أصابعهن هناك، فجفلتا معًا، وضممتهما بين ذراعيَّ بشكل أقوى، مُحتكًّا أكثر، علَّني أُولِج في أحد النَبعين، ولم أفلح، فاستدرتُ بجانبهما على أمل التحام شفتيَّ بشفاههن والنفاذ بينها، لكنهما كانتا ملتحمتين ببعضهما بشكل عجيب، كمن يحمي طفله من قصف أو عاصفة. كان لهاثنا، تنهداتنا، وأصوات تأوُّهاتنا تعلو تدريجيًّا على صوت الموسيقى القادم من الصالون. رحت أدفعهما برفق، بكامل جسدي نحو السرير... إلى أن لامستاه، فدفعتهما بكفَّيَّ فوقه وارتميت فوقهما، لم تَفُكَّا إلتحامهما ولو للحظة؛ لذا صرت أتعامل معهما كجسد امرأة واحدة، امرأة وفيرة الثمار، امرأة مُضاعَفة..

ضاعَفت اشتهائي. صرنا كتلة واحدة، ننزلق على بعضنا بفعل التَّعرُّق الذي أذاب كريمات جلديهما الرقيقين. إيبا في الأسفل ودوشكا فوقها وأنا فوق دوشكا، أكاد ألتهم كل شيء فيها. توحَّش جسدي، ألصقتُ وسطي على ردفيها الطريين الصغيرين ورحت أحكُّه هناك باحتدام، إلى أن تغلغل وغاص في أحد النبعَين، دفء، حرارة... فصرخَت إحداهما وشاركتها الثانية صرختها، فاتَّقدَت شهوتي بجنون، وراح كل كياني يهتز ويرهز بعنف، واهتَدَت غريزتي إلى مَدخلَيْ النبعين المتلاصقين، فأخذتُ أخرج من هذا وأدخل في هذا، وأواصل الرهز بقوة وعنف، فيما هما تزدادان تشبُّثًا ببعضهما، متشاركتين بالصرخات واللهاث، والتأوُّهات التي كانت تُفجِّر كل براكين الشهوة واللذة في جسدي بشكل مذهل. أخرج من نبع ساخن وأدخل في آخر أسخَن، بكل ثقلي، أحفر هنا وهناك، أعمق وأعمق... حتى حسبتُ الاثنين نبعًا واحدًا، جوفه اللذة، وماؤه يفيض مُبلِّلًا الحواف، والعشب على كل جوانبه، وبعد متعة نادرة طالَت كرِحلة وقصُرت كنبضة قلب، بادرتُ، في محاولة أخيرة لفَض التحامهما، دون أن أفلح، فواصلتُ حفري، ضربي، صعودي، نزولي، اهتزازي، رهزي وغوصي إلى أقصى أعماق النبع حتى تفجَّر كل الماء هناك وتدفَّق بغزارة، فَيضًا، وقد صاحَب الذروة صراخ ثلاثي مشترك، كأنه نشيد الحياة والموت في لحظة واحدة.

والآن، أستطيع القول بثقة، إن تلك كانت أقوى وألذ تجربة جنسيَّة في حياتي، وأن طول تخيلي واشتهائي لدوشكا لم يكن خطأ، وبأنني عرفتُ طعم أجمل النساء في حياتي، وسيستحيل عليَّ نسيان مشهدهما عاريتين ملتصقتين نائمتين جواري وسط تجعُّدات الشراشف البيضاء في السرير الواسع كبحر من حليب. رأيت ذلك على ضوء الفجر الأبيض المتسلِّل من النافذة حين صحوت قبلهما، وبقيت أنظر طويلًا إلى هذا المشهد الفتَّان مأخوذًا دون أن يطرف لي جفن. قاومت بصعوبة بالغة رغبتي بلمسهما، شمِّهما، احتضانهما والتهامهما. لم أُرِدْ تخريب هذا المشهد

المدهش، جسدان بضَّان، ناعمان طريان، ملائكيان وسط البياض، لم أرد إزعاج نومهما العميق، وهذه الحركة الخفيفة لتنفُّسهما المطمئن العذب كتنفُّس طفل. وحده تنفُّسهما كان ظاهرة من ظواهر الطبيعة، أربعة نهود، قباب طرية شهيَّة، يُبرز استداراتها انعكاس الضوء الصافي وهو يزداد سطوعًا بالتدريج مع أول طلوع الشمس، فانسحبتُ بهدوء، بعد أن نقشتُ في ذاكرتي كل التفاصيل، بما فيها نتوءات الأضلاع، السُّرَّتين، والتماعات الزغب الذهبي الساحر.

- 25 -

أصبحت دوشكا وإيبا صديقتيَّ حقًّا، إذا كان لي أن أتحدث عن الصداقة الحقَّة، التي لم أعرفها من قبل، تكرَّرت لقاءاتنا في عطل نهايات الأسابيع، في عُشِّهما الأنيق الدافىء. تبادلنا الأحاديث الطويلة عن كل شيء في الصالون والمطبخ وغرفة النوم وفي الشرفة أمام البحر. كانت أكثرها أحاديث تتعلق بالثقافة والفنون ومفاهيم الأشياء. مشينا، وطبخنا، وأكلنا، وشربنا، ورقصنا عراة لأكثر من مرة، ومارسنا الحب في الظلام والنور، وتحت الدش في الحمام، وفي حوضه المملوء بالماء الدافىء، وعطر الزهر، ووريقات الزهر، قلت لهما –صدقًا– بأنني أحبهما، وقالتا لي –صادقتين– بأنهما يحبانني، بل أعربت لهما عن رغبتي بالعيش معهما، بل وحتى الزواج بهما بشكلٍ ما إذا أرادتا، لكنهما أجابتاني بالضحك والقول إن ذلك مستحيل... وبالطبع توقَّفَتا عن ممارسة الحب معي حالما تأكَّدتا من حملهما، ولم تكرِّرا دعوتهما لي إلى عُشِّهما؛ تجنُّبًا لعدم سيطرتي على اشتهائي لهما فيما لو انفردنا، فصارت لقاءاتنا تتباعد تدريجيًّا، ولكنها في الخارج، كما أنني ازددت انشغالًا بالعمل، بعد أن فتح مانويل لي محلًّا صغيرًا للأحذية في زقاق مجاور لزقاق المطعم. محل بمساحة أربعة أمتار مربعة، وكل بضاعته أحذية أطفال وقطع زينة صغيرة، شتى أنواع الأساور، القلائد، الخواتم

والأقـراط، وغيرها، والمدهش في الأمر، أن كل بضاعة المحل كنا نحصل عليها مجَّانًا، وعندها عرفت لماذا لا يتجاهل مانويل أية مجلة أو كتالوج أو قصاصة فيها إعلان عن شيء. كنت أستغرب من قبل، هَوَسَهُ بالاحتفاظ بأي إعلان تجاري يمرُّ عليه، وقد علَّمني الحيلة لإدامة العمل، وهو أن أراسل أو أتصل بكل صاحب إعلان طالبًا منه نماذج من كل بضاعة للاطِّلاع عليها، فكانت تصلنا يوميًّا عشرات العيِّنات من البضائع الصغيرة، وخاصة من الصين وكوريا الجنوبية والهند والبرتغال.

لا شكَّ أبدًا بحدة ذكاء مانويل، ومن ذلك أيضًا أنه اختار اللحظة المناسبة لفصلي عن المطعم، بعد أن تعلَّمتُ لغة التواصل جيدًا، وصرت أتواجد في الصالة وخلف صندوق الحسابات أكثر من تواجدي في المطبخ، على حساب سلطة مارينا التي لا يريد إزعاجها أو أن تشعر بأنها لم تعد المديرة الرئيسية لهذا المكان، وبالنسبة لي كان مريحًا أيضًا لأنه أبعدني عن كوثر التي تغيَّرت علاقتها معي بعد أن عرفت -متأخِّرة- بعلاقاتي مع الأخريات؛ لأنها تقضي كل وقت دوامها في المطبخ، ولا تختلط إلا نادرًا بالآخرين؛ لذا لم تعرف إلا بعد أن أنجبَت كارمن، وقطعَت الشارع نحو بارها لتهنِّئها حاملة معها هدية جميلة، ثوب أنثوي مغربي صغير، فعرفَت أن أب المولودة هو أنا، وأب التي ستولد قريبًا من ابنة عم كارمن، هو أنا. صدمها الأمر، عادت من هناك متجهِّمةً حزينة، وحين تقاطع عبورنا في باب المطبخ، وقفَت أمامي، نظرت في عيني بحدّة وقالت: حرام عليك.

ثم دخلت إلى المطبخ. جلَست على الكرسي الوحيد هناك وراحت تبكي. لم أعرف ماذا أقول لها، لكنَّ كلمتيها الوحيدتين بقيتا كمسمار في حلقي حتى منتصف الليل، فتبعتها بعد أن أغلقنا المطعم. سرتُ إلى جانبها وهي مُتَّجِهَة نحو دارها صامتة. قطعنا نصف المسافة دون أية كلمة، فقلت لها بارتباك: كلماتكِ ودموعك أحزنتني، دون أن أعرف السبب بالضبط، ودون أن أفهم قصدكِ من قولكِ «حرام عليك»!

فتوقَّفَت ونظرت في عيني تحت نور الشارع، كما فعلت سابقًا في باب المطبخ. كانت غاضبة، بل وشعرتُ بأنها ستصفعني، حين سمعت نبرتها الحادة كالخنجر: ولن تفهم أبدًا؛ لأنك مجرد ثورٌ ضائع.

ثم سارت مسرعة رغم عَرجها، كأنها تريد الفرار مني، فتبعتها مسرعًا: كوثر، أرجوكِ توقفي، اهدئي، أفْهِميني.

لكنها لم تفعل. بقيتُ أسير بمحاذاتها إلى أن قالت: حرام عليك الذي تفعله بنفسك وتفعله بالآخرين. الأطفال ليسوا لُعبة، ومشاعر الناس ليست لُعبة، إنك تتصرف كالحيوانات، مع إنك إنسان طيب. لماذا تفعل ذلك؟

- بالعكس، إنني أتصرف بكل إنسانية، وعلى حسابي؛ لإسعاد الآخرين.

- على حسابك؟! إنك لا تفكِّر إلا بغريزتك مثل أي ثور، قد تَسْعَدُ الأمَّهات، ولكن ماذا عن الأطفال؟ هل تدرك مدى معاناتي أنا وأخواتي بعد فقدنا لأبي؟ على الرغم من أننا فقدناه ونحن بالغات، فكيف بأطفال سيفتحون عيونهم ولا يرون لهم أبًا مثل بقية الأطفال!

- أنا لا أخدع أحـدًا، والأمهات أردن ويفعلن ذلك بمحض إرادتهن وقرارهن، ثم ما جدوى الأب في نهاية الأمر، ها نحن ننتهي بلا آباء ومع ذلك نواصل عيشنا، وفي النهاية النهائية كلنا زائلون ومنسيُّون، فما المانع في محاولة إسعاد بعضنا خلال وجودنا المؤقَّت هذا في الحياة! هل تعلمين مثلًا بأن السلطان المغربي مولاي إسماعيل قد أنجب 888 طفلًا؟ والبعض يقول أكثر من ألف، وربما تكونين أنتِ من سلالته، فلولاه لم تكوني موجودة الآن.

- ما هذا الهراء! أرجوك اتركني، ودعني أُكمل طريقي وحدي.

توقَّفتُ فيما واصلت هي سيرها، وأنا أنظر إليها وهي تبتعد.

تأخَّرتُ بالعودة إلى بيتي، أدخِّن وأفكِّر بموقفها وما قالته، احتسيت

كأسين في طريق عودتي في أحد البارات الساهرة. يعزُّ عليَّ أن تغضب مني كوثر الطيبة، وفكَّرتُ حتمًا في أنها حزينة لأنها تحبُّني. ثم ماذا عن وصفها لي بأني ثور وضائع، فهاتان الكلمتان طالما سمعتهما من أبي؛ لذا رافقتها في الليلة التالية، في طريق عودتها نفسه، وكانت أهدأ قليلًا، وممَّا قالته لي: «بالمناسبة، لقد بحثتُ عن سلطانك ومولاك وقدوتك إسماعيل هذا. لقد كان مجرمًا حقيقيًّا، وفي الوقت الذي كان فيه الملوك الأسبان يطردون المسلمين ويدعِّمون العِلم والتجهيز لرحلة كولمبس التي غيَّرت العالم؛ كان هو مشغولًا بغريزته، بمضاعفة عدد حريمه، أربع زوجات وخمسمائة أمَة، واسمع هذه، فحين كان يحتضر وأراد تولية أحد أبنائه خليفة له، نادى على وزيره ليسأله عن أي أولاده أنسب لخلافته؛ لأنه لم يكن يعرفهم كما يعرفهم الوزير، فأجابه بأن لا أحد منهم يصلح، فقال: بالفعل لم أنجب. ثم فطس وذهب إلى جهنم، دون أن يجد مَن يخلفه، وعليه، فإذا كنتَ تريد الإنجاب، فالعبرة بالنوعية لا بالكمية، أن تُنجب ابنًا واحدًا صالحًا خير من أن تنجب ألفًا وتلقيهم في الحياة للعذاب وعلى طريق الجريمة».

- أنا لا أريد ابنًا يا كوثر، ولا أصلح أن أكون أبًا أو زوجًا.

- كنتَ تصلح لذلك يا أمير، أمَّا الآن، وبعد هذه الحماقات فلا. كنت تصلح عندما كنت إنسانًا طيِّبًا، أما الآن فأنت مجرد ثور ضائع.

- ما حكاية الثور الضائع هذا، من أين لك بهذا التعبير؟

- لستُ أنا مَن تقول هذا، وإنما كلُّهم يسمُّونك هكذا، من وراء ظهرك يا مُغفَّل. اسأل عاهِرَتَيْك كارمن وابنة عمها.

صمتت قليلًا، وربما في داخلها ندم على نطقها بكلمة نابية، ثم قالت بحسرة صادقة: مع الأسف، مع الأسف عليك.

وغادرَت، تاركةً إيَّاي في منتصف الطريق كما فعلت ليلة الأمس.

-26-

زرتُ كارمن في مستشفى الولادة، حاملًا باقة ورد وحذاء أطفال صغير صنعته بنفسي. سألتني: ماذا تقترح أن تسمِّيها؟

لحظتها استعرضتُ سريعًا في ذهني أحب نساء حياتي إلى قلبي، فقلت لها: «انضباط».

- أوه، فكرة حلوة، اسم خاص ونادر، وسيُسعد مانويل أيضًا لأنه يحمل اسم مطعمه، الذي له فضل عليَّ، وغيَّر حياتي منذ عرفته. كنتُ حينها عاطلة عن العمل ولا أملك حتى ثمن السجائر التي أدخِّنها، وانْظُرْ أين أنا الآن.

كلما أخذتُ الطفلة «انضباط» بين يدي وضممتها إلى صدري، أشعر بتململ الحنان والحنين إلى حنان أختي، وعندما أنظر لوجهها الصغير وتفتَح عينيها، أكاد أجهش بالبكاء وأنا أتذكر تلك الليلة الليلاء التي حملتُ فيها «أميرة الزهراء» مغمضة العينين من المستشفى إلى المقبرة. أشعر بأنها هي، ولكنها هذه المرة حيَّة، كأنها عادت إلى الحياة، كأنني أستعيدها هي ذاتها من براثن الموت؛ لذا حين أنجبَت ابنة عم كارمن طفلتها، أنا الذي اقترحت، بل رجوتها أن تسميها «أميرة»، وأعجبها الاسم، قائلة بأنه جميل وسيجعلنا نتذكَّرك دائمًا، شكرًا يا أمير.

أما عن بقية أسماء أبنائي، فلم يستشرني بها أحد، بل حتى أنني لا أتذكَّر اسم الذَّكَرَيْن اللذين أنجبتهما صديقتاي دوشكا وإيبا، لستُ متأكِّدًا من أن دوشكا قد قالت بأن اسم ابنها نيكولاس واسم ابن قرينتها جوردي، أطلقتا اسمَيْ والديهما على ابنيهما، كما لم أتابع ولم أتواصل مع الأمهات المثليَّات اللاتي جئن عن طريق دوشكا وإيبا من صديقاتهما أو معارفهما، ولا النساء اللاتي جئن عن طريق كارمن وابنة عمها، ولا الأفغانية الطويلة، المُمثِّلة المسرحية الإيروتيكية التي قدَّمها لي مانويل ذات ليلة، وهي الوحيدة التي ذهبتُ معها لمشاهدة بضع

مسرحيات، بعد أن انقطعتُ عن مشاهدة أو متابعة المسرح منذ موت طفلتي الأولى، وهَجر أمها زهراء لي، وعلى الرغم من طول قامتي، كانت الأفغانية أطول مني بنصف متر تقريبًا، فكان السير إلى جانبها غير مريح وأنا أمدُّ رأسي إلى الأعلى عند تبادلنا للحديث، فأعود من لقاءاتي معها بألم في رقبتي، وكانت قد قالت لي بأن طول قامتها هذا، وارتفاع وقوة صوتها هما اللذان أبعدا عنها الرجال دائمًا، هذا عدا أنها ممثلة مسرحية إيروتيكية تستعرض جسدها العاري في مسرحيات مونودرامية قصيرة في صالات فنادق الدرجة الأولى. حدَّثتني بحب عن والدها الشيوعي الذي هرب من أفغانستان شابًّا خائفًا من أن يقتله المتديِّنون أو رجال العشيرة، ولأنها البنت الوحيدة فقد كانت تجسد شخصيات أخوات لها، وحيدة في غرفتها فولعت بالتمثيل منذ الصغر، وعلى الرغم من أنها درَست المسرح هنا إلا أنها لم تجد عملًا في المسرح بعد تخرُّجها يكفي لسد مصاريفها وإيجار الشقة التي استقلَّت بها منذ أن بلغَت العشرين، حيث ماتت أمها وتزوج والدها بامرأة إيطالية، وذهب للعيش معها في روما.

حين قدَّمها لي مانويل، قال بأنها فنانة مسرحية مِثلك، وربما تستطيعان أن تقوما بأعمال مشتركة. نطق جملته الأخيرة مصحوبة بغمزة لي، وبالفعل، حاولَت هي إقناعي بإعداد وتقديم أعمال ثنائية إيروتيكية، قائلة بأن هذه الأعمال وحدها الآن، التي تدرُّ مالًا، فيما يعاني المسرح الجاد أزمة جمهور هنا وفي كل العالم تقريبًا، ودعتني لحضور بعض عروضها. غالبًا ما تتقمَّص شخصيات نساء شرقيات، بثياب وزينة شرقية، بما يشبه التصوُّرَ عن نساء «ألف ليلة وليلة» في أذهان الناس عمومًا، والغربيين خصوصًا. رقص شرقي، إغراءات، غنج وتعرٍّ تدريجيٌّ... والحق يُقال إنها كانت بارعة في ذلك، ويبدو جسدها تحت أضواء المسرح الموزَّعة من قِبَلها بعناية، وكأنه جسد مثالي للمرأة المُشْتَهاة، بحيث ليس من رجل في القاعة إلا ويسيل لعابه عليها، واعترفَت بأنها توافق أحيانًا على

المبيت لليلة مع أحد الحضور الأثرياء حين يعرضون عليها مبلغًا كبيرًا بعد العرض وهم تحت تأثير فنِّها عليهم وتأثير الشُّرب.

شخصيًّا، لم يعجبني شيء فيها ممَّا يعجب بقية الرجال، لا قامتها ولا صوتها، ولم يعجبني تمثيلها أيضًا، ولا نصوص مسرحياتها الساذجة المتشابهة من حيث أنها تنتهي جميعها بالتعرِّي التدريجي، والغنج، وتأوُّهات الجنس وحركاته، كما لم تعجبني فوضى شقتها واتساخها، وأكثر ما أزعجني هو كلبها الذي تُحبُّه بشكل جنوني؛ لأنه حبيبها الوحيد كما تقول. كان يتبعنا في كل خطوة داخل البيت، حتى حين تعرَّينا في السرير ونمتُ فوقها، وفي أول اللذة، فاجأني، بل أفزعني وأثار قرفي، عندما وجدته يلعق مؤخرتي العارية، فهببت واقفًا على السرير، وصرخت بها أن تطرده فورًا، فكانت تضحك وتقول، بأنه كلب مسالم، وبأنه يفعل ذلك من باب التآلف معك، ويبدو أنه قد ارتاح لك وأحبَّك، فقلت لها لا أريده ولا أريد حبه، وإن بقي هنا سأغادِر حالًا، فنهضَت وقادته خارج الغرفة وأقفلت الباب، لكنه ظل يدقُّ على الباب ويخربشه كلَّما هممنا ببعضنا، فكانت تلك ليلة جنسية فاشلة بامتياز، مع أن بدنها العاري كان مغريًا وهي مفروشة على ظهرها وأطراف أطرافها تصل زوايا السرير، كانت كأنها كلها سرير واسع مفروش بالجسد الأنثوي الشهي، وكانت رؤيتها مستلقية هكذا هي الشيء الوحيد الذي يعجبني فيها. قلت لها: «أنتِ جسد كثير وثَمَر شهوته وفير» فكان ذلك يبهجها، وتطالبني بترداد العبارة المُقفَّاة بالعربية، تحاول ترديدها بعدي وتضحك. لم أبِت معها إلا مرات قليلة، ودائمًا بشرط أن تربط الكلب أو تحبسه في المطبخ. كان يغريني، أو يُرضي غروري بشكل ما، أنها امرأة يدفع لها الأثرياء من أجل ليلة عابرة واحدة، فيما أنا، هي التي تدعوني إلى بيتها دائمًا. أما المرأة الأخرى التي جاءت علاقتي بها عن طريق مانويل، وكان يسميها لي «زبونة» ويضيف كلمة «ممتازة» ويضحك. قال: «هذه تدفع لكَ ما تشاء».

وحين قلت له بأني لا أفعل ذلك من أجل المال، ولا أفكِّر به أصلًا، إنما أُهدي كل امرأة تحلم بالأمومة طفلًا. قال: «لا تكن غبيًّا، فهي مليونيرة، ومهما أعطتكَ من مالها لن يكون ذلك سوى شَعرة من جِلد خنزير. خُذْ منها وأَعْطِ لغيرها ممَّن هم بحاجة للمال إذا كنت لا تريده لنفسك».

وحين وجدني رافضًا وأعبِّر له عن خجلي من فعل ذلك، قال: «حسنًا، دَعْ أمر المال لي، أنا سأعرف كيف أتفاوض معها على المبلغ وآخذه منها وأضعه في حسابك».

فعلتُ ونسيتُ الأمر، ثم جاءني بعدها بأخرى واصفًا إيَّاها بالوصف ذاته: «زبونة، ممتازة. إنها زوجة وزير قديم»، وتلك التجربة كانت هي أصعب تجاربي من هذا النوع؛ لذا أتذكَّرها دائمًا، فعدا فخامة القصر وغرفة النوم الملَكية التي تردَّدتُ عليها وخلوتُ ومارستُ، كان أشد ما يحرجني ويصعب عليَّ هضمه، هو إصرار الزوج الوزير على البقاء في القصر واستقبالي، ثم انتظاره لنا على الأريكة في الصالون إلى أن ننتهي. أعترفُ بأنني كنت أتعذَّب في داخلي وأنا أتخيَّل عذابه وهو ينتظر خلف الباب رجلًا يضاجع زوجته. لا يُخفِّف عني حتى ما قالته هي، حين سألتها في المرة الأولى، إن كانت هذه أول مرة تضاجع فيها رجلًا غير زوجها منذ زواجهما. قالت بأنها خانته كثيرًا لأنها تعرف تمامًا بأنه قد خانها أكثر منها. بالطبع، لم يكن يعرف أي شيء عن خياناتي له، ويُنكر خياناته لي؛ لذا فهذه أول مرة نفعلها بعلم الطرفين. قد تجاوز الستين من عمره، وهو عقيم، وها أنا أوشك أن أصل سن اليأس؛ لذا فأنا التي أقنعته بالأمر وفرضته عليه مهدِّدَةً إيَّاه بفعلها دون إرادته وأُسبِّب له الفضيحة أو أهجره. ليس لديه عائلة سواي، وأعرف بأنه يحبني فعلًا، منذ أن تعارفنا صدفة قبل عشرة أعوام، وأنا أحبه أيضًا؛ لذا تزوَّجنا رغم كل الفوارق بيننا في السن والمال والوجاهة، ولا زلنا سعداء مع بعضنا، لا ينقصنا سوى الابن.

كلَّما خرجتُ من مخدعها، وجدته بانتظار خروجنا، يودِّعني حزينًا، منحني الرأس، دون النظر في عينيَّ، وإنما مجرد تمتمات غامضة. يوجعني تصوُّري لوجعه، ومدى وطأة شعوره بالإذلال والمهانة، والطعنات في كبرياء رجولته. أتخيَّل هذا الرجل الذي حتمًا كان مكافحًا ومتفوِّقًا في كل شيء، بينما يُهزم بقوة في شيء واحد تافه كهذا، شيء خارج إرادته. يودِّعني بكفٍّ مصافحة بسرعة وارتخاء، كأنه يريد طَردي، ويغلق الباب خلفي على عجل، وأنا بدوري، أُسارع بمغادرتي قدر الإمكان دون النظر إلى وجهه، وفي كل مرة أقول له وداعًا، وأفرُّ هاربًا إلى ليل الشوارع، إلى حانة، إلى شاطىء البحر، أدخِّن وأفكِّر به في الظلام إلى أن يهدَّني التعب والنعاس.

لم أكن أعرف كيف أخاطبه في بداية الأمر، فإن قلت له معالي أو سعادة أو حضرة، فأية معالي أو سعادة أو حضرة! وزوجته الحبيبة مع رجل غريب خلف الباب، في المرة الثالثة من المرات الست التي زرتهما فيها، اهتديتُ إلى مخاطبته «سيِّد» و«سيِّدي»، علَّ في ذلك ما يوحي له بأنني أعتبره أرفَع مني.

- 27 -

لا أدري متى وكيف وكم أخذ مانويل مالًا من «الزبونتين الممتازتين»، فمنذ وصولي لا أتحدَّث معه عن المال أو الراتب؛ فبفضله لم أَحْتَجْ إلى مال إلا وجدته. كان يسمح لي أن آخذ ما أريد من صندوق حساب المطعم وبعِلم مارينا، وهي التي كانت تسألني دائمًا فيما إذا كنتُ بحاجة لنقود، وحال أن استخرج لي محاميه رامون بطاقة الإقامة، أخذني مانويل معه إلى بنك قريب، فاستقبله مدير البنك بحفاوة، وكانا يتضاحكان أثناء الحوار، وقدَّم لنا القهوة. لا بُدَّ وأنه زبون مهم للبنك أو صديق لمديره. هناك فتح لي حسابًا بنكيًّا، وكانت تلك، أول مرة يكون لي فيها حساب في بنك، فأنا أسمع به ولا أعرف استخدامه؛ لأنني لم

أمتلك من قبل مالاً فائضًا عن مصروفي. قال لي حال خروجنا: «دع دفتر التوفير والبطاقة البنكية معي، وكلما احتجتَ إليهما سأعطيك إياهما»، وكان يبعثني في الشهور الأولى، حاملًا ألفَيْ دولار وورقة مكتوبة بالأسبانية، أعطيها للموظف مع المال وأعود بمجمل الأوراق إلى مانويل، وأذكر أنه قال لي حينها، بأن راتبي سيدخل حسابي مباشرة، ومع ذلك فأنا لا أطلب منه في أي وقت أي مبلغ أحتاجه، أطلب ذلك من مارينا. فكَّرتُ بعدها أنه يفعل كل ذلك ليس من أجلي بقدر ما هو من أجل «انضباط»، وبطلب منها، فحين دخلت ذات مرة إلى حجرته التي في شقتي، كي أتعطَّر من عطوره الكثيرة بعد أن نفدت قارورتي، قادني الفضول لإلقاء نظرة على كومة الإعلانات والأوراق والرسائل على طاولته، فلفتت انتباهي رسالة عليها طوابع عراقية، وكانت مفتوحة، من «انضباط». عبارة عن بطاقة كارتونية صغيرة خضراء، يبدو أنها صنعتها بنفسها، من خلال رسوماتها التي أعرفها، زهور وفراشات وقلوب، وسطها عبارة بخط جميل من تلك التي رأيتها تطرِّزها على القماش وتهديها أو تبيعها للناس «أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ»، وعلى الوجه الآخر من البطاقة تخاطبه، «يا حبيب عمري» وترجوه بحق حبهما أن يعتني بي ويراعيني ولا يتركني بحاجة إلى أي شيء. لحظتها دمعت عيناي، ضممتُ الرسالة بكامل كفي على صدري، شممتها، علَّ عطر أختي فيها، قبَّلتها، ثم أعدتها إلى مكانها وبحثت عن رسائل عراقية أخرى فلم أجد، بل إن الرسالة نفسها لم أجدها في اليوم التالي، يبدو أنه يأخذها إلى بيته الرئيسي أو إلى أحد مكاتبه، أو حتى يحفظها في البنك، فما أدراني بأسرار هذا الرجل المدهش الذي لا يَعرف أسراره الكثيرة إلا خالقه، وحين سألته ذات مرة عن كيفية تواصله مع أهله في العراق، وخاصة أننا من قرية بسيطة بلا هواتف، قال بأن والده أو أحد إخوانه يذهب شهريًا إلى البريد المركزي في بغداد، ليستلم الحوالات والرسائل المتبادلة، ويتحدَّث معه بالهاتف من هناك، وسألني إن كنتُ أريد التحدُّث مع أحد من أهلي كي يرتِّب الأمر، فقلت له، لا داعي

لذلك، وليس لي هناك أحد أحتاج إلى التواصل معه، ليس لي إلا أختي وأمي المريضة، ولا أريد لهما أن تتجشَّما عناء الذهاب إلى بغداد وطوابير البريد دون ضرورة مُلحَّة.

تخيَّلتُ أن تواصله مع «انضباط» هو عن طريق أهله، شَفاهَةً وعبر تبادل الرسائل، بشكل عام، زادت ثقتي بمانويل تدريجيًّا، بل وأستطيع القول: احترامي الكبير وإعجابي الشديد به؛ فلم أرَ منه إلا خيرًا وابتسامًا لي ولغيري، وأذكر أنه اصطحبني معه مرتين، قبل إغلاق المطعم، لنوزِّع الطعام المتبقِّي على المشرَّدين والفقراء في المنطقة المحيطة، فوجدتهم يعرفونه وهو يعرفهم ويمازحهم. رأيت وجوههم الملتحية والمتَّسخة تتهلَّل فرحًا كلما رأوه، حتى لو كان عابرًا في سيارته وحيَّاهم. أعجبني سلوكه ذلك كثيرًا، وسألته حينها عن سبب فعله، فقال إنهم مساكين، ثم إن كل شيء هو نوع من الاستثمار. حين لاحظ استغرابي، راح يشرح لي بأن كل كائن وكل شيء لديه ما يمكن استثماره، مهما بدا مجرَّدًا أو عاريًا تمامًا، فهؤلاء عيوني على كل ما يحدث في هذه المنطقة، وعلى محلَّاتي في غيابي وما بعد منتصف الليالي، ويمكنني بهم أن أُزعج أيضًا مَن يزعجني من المنافسين في السوق هنا. قال لي إن الإنسان مهما كان فقيرًا فلديه شيء يمكن الاستفادة منه، بما في ذلك أعضائه؛ لهذا تسمع عن بيع وشراء ومتاجرة بالدم والأعضاء، خُذْ نفسك مثالًا أيضًا، فحتى لو كنت لا تملك شيئًا ماديًّا، لديك حيامنك التي يمكنك بيعها لعيادات التخصيب أو لمن تشاء مباشرة، أو حتى التبرع بها لإسعاد الآخرين كما تفعل، حتى النملة يمكن صناعة الدواء منها، والزبالة يمكن تدويرها وتحويلها إلى طاقة. لم أفكِّر كثيرًا حينها فيما قاله، فهو كثير التفلسف أحيانًا، مثلما هو كثير المزاح، ويتمتع بقدرة عالية على التحكم وإجادة التعبير عما يريد، بل وإقناع المقابل بالشيء ونقيضه؛ لذا لم أفكر لحظتها إلا بمدى ذكائه وزيادة ثقتي وإعجابي به، وكنت بالمقابل أجد بأنه يحترمني ويثق بي، والدليل كل ما فعله، وهذا المحل الذي فتحه لي

منذ أشهر دون أن يسألني عن مال، أو يحسب بعدي ما أعطيه من مال المحل شهريًّا، بل كان يحرص فقط على وصول البضائع «النماذج» إليَّ، وأكثر بضاعة كان يسأل عن وصولها، هي بكرات السلاسل المذهَّبة الناعمة، التي كانت تجيء من كولومبيا، يأخذها بسيارته، وبعد أيام يعود إليَّ ببعض السلاسل الجاهزة للبيع، ويسألني إن كان ينقصني شيء. جَلب لي ما طلبته منه بعد شهر من افتتاح المحل، ماكينة خياطة أحذية صغيرة، أدوات إسكافي، ومواد لصنع الأحذية، حيث كنت أمضي أوقات الفراغ بفعل ما يعجبني وأجيده، صناعة أحذية الأطفال، من الجلود والصوف والكتان وكل المواد، وكذلك إصلاح أحذية الأطفال التي تأتيني بها الأمهات في الحيِّ، عدا أني أفتح وأغلق المحل متى أشاء... وهكذا كنت أشعر بمزيد من الاستقرار والرضا عن سير حياتي وعلاقاتي ومتعي، التمتُّع بحريتي، وهو ما أوصاني مانويل به منذ وصولي إلى برشلونة، مُذكِّرًا إيَّاي بقيمة هذه الحرية، في بعض سهراتنا في المطعم أحيانًا، قائلًا بأنها نعمة حقيقية مقارنة بما كنا نعيشه في بلدنا ولا يزال أهلنا يعيشونه هناك تحت ديكتاتورية قامعة قاتلة، وحروب متواصلة، وتقاليد دينية واجتماعية بالية، ومشوِّهة خانقة. كنا هناك كحيوانات في قفص ضيق، وصاحب القفص لا يرى فينا أية قيمة إلا بقدر ما نخدمه به، أما هنا، خارج ذلك القفص، فانظر كيف يعيش الناس بحرية وأمان وسلام ومتعة وكرامة. الحياة جميلة وقصيرة يا أمير فاستمتع بها. ويربت على كتفي دافعًا إليَّ بسيجارة ماريوانا في يده، ثم يتذكَّر بأنها لم تعجبني فيقول «أوه» ويستبعدها، مستبدلًا إياها بحمل كأس الويسكي المفضَّل أمامه، كي يقرعه بكأسي هاتفًا بالعربية على مسمع ومرأى كل من في المطعم «بصحتك يا أمير، بصحتك يا فنان، يا ابن العمة الحبيبة»، ثم ينهض منتشيًا ويترجم ما قاله طالبًا من الجميع أن يرفعوا كؤوسهم نخبي، ويخلق بعدها احتفالية من لا شيء، تَسُرُّ الجميع.

- 28 -

فجأة تَغيَّر كل شيء، أو لا بُدَّ من تغيير كل شيء في حياتي، وانكشف لي وجه آخر لمانويل، أو وجهه الحقيقي منذ عرفته في طفولتنا، حين كنا نسمِّيه «منهل الحرامي»، وأنني مثل غالبية مَن يعرفونه، قد وثَقتُ به فانخدعت، على الرغم من أنني كنت أعرف أصله أكثر منهم، لكنه «شيطان» أو «جِنٌّ» كما وصفته كوثر بإيجابية حينها.

كنت قد أغلقت دُكَّاني في السابعة مساءً وعدت إلى شقتي كي أجهِّز نفسي للخروج وتناول العشاء مع دوشكا وإيبا في أحد مطاعم شارع لارامبلا الرئيسي، فدخل عليَّ حاملًا معه زجاجة ويسكي وطلب أن نشرب كأسًا في الصالون، وأنه يريد الحديث معي في موضوع مهم، وهناك مهَّد ببعض الممازحات، وطلب مقدَّمًا أن أحافظ على هدوئي وأحكِّم العقل وأتجنَّب الانفعالات السريعة، ثم أخبرني بأن عليَّ ترك محل الإكسسوارات والأحذية منذ الغد، وأن أجمع بضاعته كلها في صناديق، وهو سيبعث مَن يأخذها إلى مكان آخر، قال بأن عليه مشاكل قانونية وصاحبه لجأ إلى المحاكم، فسألته إن كان عليَّ أن أعود للعمل في المطعم إذًا، أم أنه سيفتح لي محلًّا غيره، أم العمل في مكان آخر؟ قال: على مهلك، سأوضح لك كل شيء، لا تقلق.

عندها تركته يتحدث دون مقاطعة، فأخبرني بأن عليَّ السفر مع مارينا إلى كولومبيا بأسرع وقت. هي ستعود إلى هنا وأنا سأبقى هناك، وعقَّب: ذلك لشؤون تجارية وكحلول قانونية لمصلحة الجميع.

وحين لاحظ فزعي، ربَّت على كتفي مهدِّئًا ومؤكِّدًا: لا تقلق، كل شيء مُخطَّط له بدقة وإحكام، وكل شيء سيكون على ما يرام.

- وماذا سأفعل في كولومبيا؟ وكم سأبقى هناك؟

- لن تفعل أي شيء، مارينا ستقوم بكل شيء، أنت سترافقها فيما لو احتاجت إلى مساعدة، أما المدة فمبدئيًّا يمكنك البقاء هناك كل الوقت

الذي تريده، فربما ستعجبك الحياة هناك. كولومبيا بلد جميل وساحر في طبيعته وناسه وطعامه ولياليه المجنونة. أنا على يقين من أنه سيعجبك، وخاصة أنت فنان وصاحب ذوق وحس وتحب الجمال.

ثم غمزني وأضاف:

- والنساء هناك من شتَّى الأشكال والألوان والأمزجة، وكلهنَّ يُجِدن الرقص الساخن.

- وأين وكيف سأعيش؟ ومتى أعود إن أردت العودة؟

- قلت لكَ لا تقلق يا أمير. أنا ومارينا سنُرتِّب كل شيء. أنت فقط ترافقها، وهي التي ستتولَّى شؤون العمل التجاري، وستخبرك بما يمكنك القيام به هناك، وكم سيتطلَّب من الوقت لإنجازه. المهم عندي أن تثق بي كما أثق بك، وتأكَّد بأنك ستكون رابحًا، وستكون لك حصتك الكبيرة من كل الأرباح، كما أنها فرصة لتسافر وتتعرف على العالم أكثر، اتَّفقنا؟

- اتَّفقنا.

استغرقَت رحلتنا ثلاثين ساعة متواصلة، طائرتان وأربع سيارات، وكانت الرحلة في السيارة الأخيرة هي الأكثر رعبًا؛ لأنها سارت بنا في جغرافية وعرة. غابات وجبال وأودية عميقة، وكانت الطُّرق ترابيَّة، محفورة في سفوح الجبال العالية ومليئة بالمطبات؛ لذا كنت لا أجرؤ على النظر إلى الوديان العميقة تحتنا، فعدا خوفي من الأماكن العالية، كان المنظر رهيبًا، صخور ودغل وأشجار كثيفة تمتدُّ عميقًا أسفلنا، بالكاد نرى القعر، مظلمًا بحكم عتمة المساء، والسيارة القديمة التي استأجرَتها مارينا تسير على حافة الدرب البدائي الضيق ويرعشها الحصى الذي تدوسه. عندما أحوِّل نظري عن جهة الوادي، أجد في الجهة الأخرى جرفًا مخيفًا يكاد يسقط علينا وهو مُرَصَّع بالصخور الكبيرة وجذوع الأشجار والأخاديد التي حفرَتها مياه الأمطار، تبدو مثل فُكوك حيوانات وحشية توشك على التهام السيارة. كنت أتوقَّع في كل لحظة، أن تظهر لنا فجأة، سيارة أو جرار

زراعي من خلف استدارات الطريق المتعرِّج ويصدمنا، وجهًا لوجه، دافعًا بنا إلى الهاوية. انتابني الخوف بشكل غير مسبوق، أحسستُ بقلبي يكاد يسقط في معدتي، وعينيَّ يشوبهما تشوُّشٌ في الرُّؤية دون أن أستطيع النوم؛ لأنني نمت كثيرًا في الطائرة التي عبرت المحيط من برشلونة إلى بوغوتا، وفي السيارة التي أقلَّتنا من العاصمة إلى مدينة أخرى.

كنَّا أنا ومارينا نجلس معًا في المقعد الخلفي صامتين فيما السائق في المقدمة يواصل تبديل أشرطة الأغاني الشعبية ويراقص كتفيه مترنِّحًا ومترنِّمًا معها. شعَرت مارينا بمدى خوفي فنظرت إليَّ وابتسمت، ثم تناولت رأسي ووضعته على كتفها بحنان، فأراحني ذلك. أغلقتُ عينيَّ وأنزلت رأسي إلى صدرها، فضمَّته أكثر وأحسستُ بأصابعها تتخلَّل شعري الطويل مداعِبة، إلى أن هدأت دقَّات قلبي واستعدتُ أنفاسي، بعد أن ازداد الجو عتمة وحلَّ الظلام. اعتدلتُ في جلستي مفكِّرًا بأنني لن أرى شيئًا الآن، إلا أن الأمر كان أسوأ، حيث البقعة الضوئية القليلة التي تضيئها مصابيح السيارة أمامها، كانت أشدَّ رعبًا. أرى حوافَّ الدرب أمامنا ونحن نوشك أن نقفز فيها، لكن السائق يستدير في اللحظة الأخيرة، أو هذا ما بدا لي؛ لأن مارينا والسائق عاودا الحديث بهدوء عن أناس وأماكن يعرفانها في المدينة التي نحن ذاهبون إليها، وكان السائق يستدير في الالتواءات الكثيرة كأنه يعرف مواضعها عن ظهر قلب، مع ذلك، فقد عاودني الشعور بالوشوك على السقوط في هُوَّة وادٍ سحيق. والصخور المتدلِّية وأخاديد المطر على الجهة الأخرى، كانت أكثر تحديدًا ووحشية، هذا إضافة إلى تقافُز حيوانات غريبة أمام الضوء بين الحين والآخر، منها ما تشبه القرود التي لا تنسحب إلَّا في اللحظة الأخيرة من وصول مقدمة السيارة إليها، وكانت بعض تلك الحيوانات مادة لأحاديث السائق ومارينا أيضًا. حَنَيتُ جذعي كاملًا وألقيتُ برأسي، هذه المرة، على فخذيها، فضحكَت هي بصوت عالٍ، وأخبرت السائق بخوفي، فضحكَ هو الآخر وقالا ليُطمئناني، بأننا على وشك الوصول،

ولم يَبْقَ إلا نصف ساعة تقريبًا... ومع ذلك، لم أرفع رأسي عن حِجْرِها، وهي تداعبه بكفِّها وتواصل حديثها مع السائق، إلى أن وصلنا.

- 29 -

كان البيت كبيرًا وقديمًا، من طابقين، مبنيًّا من الخشب والصخور. في الطابق الأرضي، يعيش زوجان شابَّان بسيطان وبملامح خلاسيَّة هنديَّة، ولهما طفلان صغيران. أقمنا أنا ومارينا في الطابق الثاني، كلٌّ في غرفة مستقلَّة. أخبرتني أنه بيتها، بيت والديها، الذي وِلِدت وعاشت فيه، ولم تغادره إلا بعد أن بلغت الرابعة والعشرين، بعد موت أمها، أما والدها فقد توفي حين كان عمرها ثلاثة عشر عامًا، كان شرطيًّا وقُتِلَ في إحدى المواجهات مع جماعات تجار المخدرات. أخبرتها بأن والدي شُرطي كذلك، فأعجبها الأمر وشعرت بأنه قرَّبني منها أكثر، أو أنني سأفهمها أكثر؛ لذا راحت تحدِّثني عن حبها له، وعن مدى طيبته وحنانه ورقَّته، وكيف أنها كانت تعاني كلما غاب عن الدار، وكم جلست ليلًا ونهارًا جوار نافذة هذه الصالة المطلة على الشارع تترقب عودته، وعند مجيئه يهتف لها من بعيد، قبل اجتياز البوابة؛ لأنه يعرف أنها بانتظاره، فتنزل راكضة إليه، يحملها من تحت إبطيها ويدور بها كمظلَّة ثم يحتضنها بقوة، يشمُّها ويمطرها بالقُبَل؛ لذا فإن مقتله قد أصاب روحها بمقتل إلى الأبد، فأخبرتها بأنني على العكس منها. كنت أرتاح أكثر بغياب أبي؛ لأنه أثناء حضوره، يكرِّس كل وقته لتدريبي ونُصحي ومرافقتي ولا يكفُّ عن الأوامر وتكليفي بالمَهمَّات ومراقبتي؛ لأنه كان يريدني أن أكون شرطيًّا مثله. كنت أحبه وكان يدلِّلني، ولكنني أرتاح أكثر في غيابه. لم تستطع تفهُّمَ الأمر؛ لأن صورة والدها في ذهنها تغطِّي على أي نموذج آخر من الآباء. علمتُ منها أن العائلة الشابة التي تعيش في الطابق الأرضي من بيتها، هم فقراء من أقارب والدها، وأنها اتفقت معهما على العيش هنا مقابل الحفاظ على الدار في غيابها.

في الصباح، استطلعتُ المكان، مُطلًّا من الشرفتين اللتين في جهتي البيت الأمامية والخلفية، تطلُّ الأمامية على حديقة واسعة مليئة بالدغل العالي والأشجار، في زاويتها حجرة، أمامها بقرة مربوطة وعِجلها، يليها الشارع وبيوت تمتدُّ حتى سفح جبل عالٍ، وتطل الخلفية على وادٍ غير عميق يفصل البيت والبيوت المجاورة عن بيوت أخرى مشابهة من حيث التصاميم والقِدَم، وتمتدُّ هي الأخرى على مسافة بعيدة يليها جبل آخر. أدركت أن المدينة تقع في سَهل غير منبسط، محاط بالجبال من كل الجهات، وثمة أودية وحقول وعيون مياه يتلألأ ماؤها أحيانًا عن بعد في سفوح الجبال، وتبين التماعاتها قليلًا من خلل الغابات الكثيفة. هي قرية كبيرة أكثر من كونها مدينة، بَلْدَة، ولكنهم يسمُّونها مدينة قياسًا بالقرى الصغيرة المتناثرة قريبًا منها في الوهاد وعلى سفوح الجبال وخلفها. قالت إن اسمها ريوسورو Riosoro وهي كلمة تشكَّلت من عبارة (ريوس دي أورو Rios de oro أنهار الذهب)؛ لأنها تكوَّنت في الأصل، من الأكواخ ثم البيوت التي شيَّدها المغامرون الباحثون عن الذهب، حيث كانوا يجيئون إلى هنا، يغربلون مياه ورمال وحصى الينابيع المتدفقة من الجبال بحثًا عن الذهب.

أتانا الشابَّان بالإفطار، ورائحة القهوة الزَّكية تسبقهما، إلى الشرفة المطلَّة على الوادي. أثناء تناوله، أبلغتني مارينا بأنها ستبدأ من اليوم اتصالاتها بالتُّجَّار لتجهيز البضائع، أما أنا فلي أن أفعل ما أشاء، وكل ما أحتاجه يمكنني أن أطلبه من هذيه الشابَّين الزوجين، آمارو (ويعني مطر، باللغة الغورانية) ووايرا (وتعني ريح، بلغة هنود الكيتشوا)، وبإمكاني مرافقة أحدهما في جولة للتعرُّف على المدينة ومقاهيها وساكنيها وساحاتها ودروبها، ثم تذكَّرَت فجأة وأشرق وجهها: أوه، يمكنك التعرُّف على (آني) المصري، سأبلغ آمارو ليأخذك إليه. إنه رجل مصري طيب جاء إلى هنا منذ أعوام طويلة، وأقام في أطراف البلدة. بنى لنفسه بيتًا ومقهى ومطعمًا صغيرًا هناك، متزوِّج ولديه أطفال. هو الأجنبي الوحيد في هذه المنطقة، والجميع يحبُّونه.

وبالفعل، كان تعارُفنا أنا وهاني (الذي ينادونه «آني» لأنهم لا يلفظون الهاء)، هي انطلاقة لأهم صداقة، بل أُخوَّة في حياة كلينا. رافقني إليه آمارو بعد الغداء، ولو لم يتوقَّف كثيرًا في الطريق ليشرح لي تواريخ الأماكن التي نمرُّ بها، وليسلم على كل من نصادفه مُقدِّمًا إيَّاي له بأنني صاحب مارينا، لكُنَّا وصلنا في نصف ساعة، على الرغم من مرورنا ببعض الأزقَّة المتعرِّجة صعودًا ونزولًا بحكم جبلية المنطقة. كان المقهى المطعم بسيطًا فعلًا. مُجرَّد عزال خارجي كله من الخشب المقطوع والمُصمَّم يدويًّا، بما في ذلك المقاعد والطاولات، أما المطبخ فهو مطبخ بيته ذاته وقد فتح له بابًا خارجيًّا ثانيًا على المقهى. فوجىء هاني كثيرًا حين حييته بالعربية، وعانقني بقوة وعاطفة، كأنه عثر على واحد من عائلته بعد غياب طويل. ترك كل شيء، وجاء للجلوس معي على طاولة جانبية، بعد أن أتى بإبريق شاي كبير. حدَّثني عن مجيئه إلى هنا منذ خمسة عشر عامًا، وأنه صعيدي قبطي، مولَعٌ برياضة الجودو منذ صِغَرِه، وما شارك في مباراة إلا وفاز بها، وكان كل حلمه أن يكون في المنتخب الوطني، ولكن عندما جاءت هذه الفرصة، واستحقَّ بجدارة أن يكون ضمن الفريق الذي سيشارك في البطولة الإفريقية، والتي منها سيتمُّ التأهُّل لبطولة العالم، وقف في وجه حلمه رئيس الاتحاد إلى جانب بعض أعضاء الرئاسة، التي كانت لديهم توجُّهات إسلامية إخوانية، فلم يرشِّحوه، على الرغم من تجاوزه لكل الاختبارات بنجاح، وأنه كان أفضل المُؤَهَّلين على الإطلاق. عندها أُصيب بصدمة حياته، ولم يتمالك نفسه، فأفرغ كل غَضبه على أحد أعضاء الرئاسة الملتحين، واستخدم في ضربه كل مهارات الجودو التي تعلَّمها في حياته. رَضَّ عظامه رضًّا، حطَّمه: «دَشدِشتُه»... حتى ظننتُ بأنني قتلته، ثم هربت. أنقذوه بأعجوبه، صار مُقْعَدًا على كرسي متحرِّك، واختفيتُ، عازمًا على عدم العودة إلى مصر أبدًا... وهكذا من بحر لبحر ومن أرض لأرض حتى قادني مصيري إلى هذه الأرض، التي لن يصلوا إليَّ فيها، حتى لو استعانوا بالجِنِّ الأزرق. وضحك.

- يااااه، ألف مليون مرحبًا يا أمير. لم أتكلَّم اللغة العربية مُنذ دَهر. اشتقتُ إلى كل شيء هناك، ولكن خلاص، لن أرجع إلى هناك أبدًا... إلَّا وأنا ميِّت.

- ولماذا الرجوع إذا مُتُّ، والقبر في هذه المنطقة وسط الطبيعة كأنه في الجنة؟

- لا أدري.. ولكن لا أريد أن أبقى مُغتربًا إلى أبد الآبدين. الغربة في الحياة كافية، فلماذا نغتربُ في الموت أيضًا؟

- وكيف ستفعل ذلك؟

- كلُّ شيء رتَّبْتُه وسجَّلته بالورقة والقلم، وهذا هو طلبي الوحيد ووصيَّتي لزوجتي وأولادي بعد موتي. بالمناسبة، تعال أُعَرِّفكَ عليهم.

وقادني بفرح من ذراعي إلى داخل بيته. كانت زوجته وأحد أولاده في المطبخ.

- هذه زوجتي «ماريًّا»، وهذا ابني الكبير «نِيل».

ثم قادني إلى صالة البيت وأشار إلى طفل وطفلة كانا يلعبان هناك، مناديًا إياهم كي يسلِّما عليَّ معرِّفًا بي: «العَم أمير». وهذه «ميريت»، وهذا «رمسيس»، آخر العنقود.

فقلت له: كيف تقول بأنك خلاص، رميت مصر وراء ظهرك إلى الأبد، وها أنت تُطلق على أولادك أسماء مصرية؟

- لا بأس يا أخ أمير، فالواحد مِنَّا، مهما زعل من بلده، وحتى لو كرهها... يبقى شيء منها في داخله، في دمه، شيء متجذِّر لا يعرف ما هو، ولا يستطيع اقتلاعه.

- 30 -

أصبحتُ أمضي أغلب وقتي مع هاني، وفي اليوم الذي لا أذهب فيه إليه، يبعث إليَّ بابنه البِكْر «نيل»، ليطمئن عليَّ أو يأتي بنفسه. كنا نتحدث

في كل شيء، وهو الذي وصف لي هذه المنطقة بأنها تشبه هامشًا بين الجنة والجحيم. تقع على الحدود بين القوى الثلاث المتصارعة، ولا أحد منها يسيطر عليها بالكامل: الحكومة، الثُّوَّار المُسلَّحون وتُجَّار المخدرات، وكأنهم متواطئون على اتخاذها مثل «منطقة حُرَّة»؛ لتعاملاتهم، تجاراتهم، مفاوضاتهم وصراعاتهم. بين الحين والآخر، تجري فيها معركة طاحنة بينهم، وبالطبع يروح ضحيتها بعض المساكين. الكثير من الشباب العاطلين أو الذين لا يحبُّون العمل بالزراعة يتَّجهون للانتماء إلى إحدى هذه الجهات، وكثير من الرجال، المتعاملين مع إحدى هذه الجهات، يتم اختطافهم أو اغتيالهم؛ لذا تجد أكثر سكان ريوسورو والقرى حولها نساء. المهم في الأمر ألَّا تكون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، و«أنا إنسان كافي خَيري شَري».

قال إن الصدفة هي التي قادته إلى هنا، أو رغبته بالابتعاد إلى أقصى حدٍّ عن مصر التي أحبطَت حلم حياته، أو أن ضياعه هو الذي قاده، ليجد نفسه هنا، وهو الآن راضٍ بحياته، بل وسعيد. اتَّخَذ هذا المكان، في أطراف البَلدَة وأقام فيه بيته وهذا المقهى المطعم البسيط، بدأ بتقديم أكلات مصرية شعبية، تعلَّم إعدادها منذ أن انتقل للدراسة في القاهرة.

- شويِّة كُشري على شويِّة فول وطعمية وبِصارَة وشكشوكة وباذنجان مقلي وحمص وما إلى ذلك، فسارت الأمور معي جيدًا، بعدها، صرت أخترِع أكلات مخلوطة من أكلاتنا وأكلاتهم، وحتى الحلويات، مهلبية، أُم علي، بقلاوة، كنافة، بسبوسة، رُز بلبن وأخرى من مختلف الفاكهة هنا، مع شوية لبن وزبادي وسُكر وغيره، وشتى أنواع العصائر والمشاريب.. وأنا أول واحد يدخل النارجيلة إلى هنا، ولكن، أولاد الذين، يريدونها دائمًا بحَشيش.

ويضحك.

في الليل، عندما أعود متأخِّرًا وأجد مارينا في البيت، أكمل السهر معها. وفي الصباح، نواصل أحاديثنا عند تناول الإفطار معًا. كانت تسألني سريعًا

عن حالي لتتأكَّد أن كل شيء على ما يرام. أراحَتها وسرَّتها علاقتي بهاني. تأخذني أحيانًا إلى المخزن الكبير في الأسفل لنحصي البضائع، والتي فاجأني من بينها، البَكَرات الكبيرة التي كنتُ أستقبل بعضها في دكاني، ويأتي مانويل لأخذها. أطلَعتني مارينا، وشَرَحت لي، أن هذه البكرات ملفوف عليها سلسلة طويلة ناعمة، يصل وزنها إلى ثلاثة كيلو غرام، وأحيانًا خمسة، وهي وإن بدت سلسلة عادية، مصنوعة من معادن رخيصة كالنحاس والفولاذ، ومطلية بلون ذهبي، إلا أن الجزء السفلي الملفوف منها، وهو الأكبر، هو من الذهب الخالص، فيما تغطِّيه بمقدار سينتمترين أو ثلاثة، سلاسل معدنية رخيصة.. باختصار، إنه تهريب للذهب. عندها فغرتُ فمي دهشة من ذكائهما، وسألتها فيما إذا كان مانويل قد جاء إلى هنا ذات مرة، فقالت: «لا، وإنما كان تعارفنا لأول مرة في مدينة «بارَّانكيا» الساحلية، فهناك لديه الكثير من المعارف والتجار الذين هم من أصول عربية، وكنت أنا أعمل سكرتيرة في مكتب أحدهم، فبعد أن أنهيت دراستي للإدارة والاقتصاد في معهد «مَدَيين»، بقيتُ أبحث عن أي عمل؛ لأنني لم أرد العودة بعد موت أمي، وليس لديَّ هنا ما أفعله، كما أن البيت كان يوجعني لخلوِّه من والديَّ. وجدتُ عملًا في «بارَّانكيا»، وأنت تعرف كيف هو ابن خالَك، سَحَرني من أول لقاء بلسانه المعسول وأقنعني بالذهاب إلى إسبانيا. أغلب التجَّار في «بارَّانكيا»، وحتى في برشلونة، يسمُّونه «حاوي الأفاعي»؛ لأن لديه قدرة عجيبة على إقناع أيٍّ كان، يُخرج أخطر الأفاعي من مخابئها وهي مستسلمة وترقص له... كانت تتحدث عنه بإعجاب شديد ويتهلَّل وجهها، فسألتها إن كانت تحبه. قالت إنها تَعشَقه.

في الليلة الثانية لوصولنا، كانت قد أخرجت الكثير من الدولارات الملفوفة في أنابيب هياكل حقائبنا وبِطاناتِها، ومن أماكن أخرى خفيَّة في طيَّات ثيابنا. أعطتني منها ألف دولار حينها، وما يُعادل ألفَيْ دولار بالعملة المحلية (بيسو، أو بيزو، كما يلفظها هاني). أذكُر بأنها قالت لحظتها، أننا قد جلبنا معنا ستين ألف دولار.

رافقتني للسهر مرة واحدة، في ليلة سَبت، أخذتني إلى بار مرقص في وسط المدينة. كانت ترتاده كثيرًا في فترة مراهقتها وأول شبابها، وهناك وجدتُ الكثيرين يصخبون فرحًا بوجودها بينهم، وأغلب صاحباتها يتغزَّلن بي ويحسدنها عليَّ، دون أن توضِّح لهنَّ شيئًا عن طبيعة علاقتنا، بل كانت تتعمَّد الإيحاء بأننا في علاقة عاطفية. أكلٌ وشربٌ ودخانٌ ورقص، حتى قُبيل الفجر، فعدنا نسير في العتمة متَّكئين على بعضنا بعد أن تَعتَعنا السُكْر، يدي على خصرها وصدرها يحتك في جانب صدري، وعند صعود الدرج، احتضنتها من الخلف حاملًا ودافعًا، وكنت أحس بلدانة مؤخرتها وهي تحتكُّ بوَسَطي ومثيرة إيَّاه، وما إن وصلنا إلى الطابق العلوي حتى وجدتها تخلع حذاءها وأغلب ثيابها وتجيء إلى غرفتي رامية بنفسها رميًا على سريري. تَخَفَّفتُ أنا بدوري من أغلب ملابسي وتمدَّدت جوارها، فلفَّت ساقها فوقي واحتضنتني، ثم راحت تُقبِّلني بشراهة، فبادلتُها التقبيل والضَّمَّ، شادًّا إيَّاها إليَّ أكثر من خصرها وإليَتها، ثم اعتليتُها وحككنا وسطينا ببعضهما من خلف ألبستنا الداخلية. تلذَّذنا كثيرًا، لكننا لم نُكمل، حيث فككنا اشتباكنا بعدها فجأة، وكأننا فكَّرنا في مانويل، في لحظة واحدة، فتبادلنا قبلة خفيفة سريعة، كقبلة وداع، واستدارت لتنام في حضني... ولم نُلمِّح أو نتطرَّق بعدها لهذا الذي حدث بيننا، كأنه لم يحدُث.

ذات صباح، استيقظتُ بصعوبة على وقع لمسات كفٍّ تجوس شَعر صدري. كنت قد نمتُ متأخِّرًا وعاريًا، بعد سَهرة شُرب ودخان عند هاني. فتحتُ إحدى عيني بجهد. وإذا بـ «وايرا»، زوجة «آمارو» تقف فوقي، إلى جانب السرير، ففتحتُ كلتا عينيَّ أكثر، ولم تَجْفُلْ أو تبتعد، وإنما اكتفت بالابتسام وواصلت لمسها لصدري ورقبتي ثم شَعر رأسي وملامح وجهي. تأكَّدت سريعًا من أنها ليست «وايرا»، على الرغم من الشبه الكبير بينهما، فهذه بالغة النحافة وليست حامل كـ «وايرا». ظننتُ بأنني أحلم.. أو أن هذه مجرد تخيُّلات وأضغاث أحلام؛ كوني لم أصحُ

تمامًا، فاستسلمتُ للمسات كفِّها التي راحت تنزل برِقة من لحيتي إلى رقبتي ثم صدري وبطني وصولًا إلى أسفلها، فأيقظَت مكمن الرغبة، واستسلمتُ لتلك اللَّذَّة، فأغمضتُ عينيَّ، وأنا ما زلتُ أعتقد بأنني أتخيَّل، لكن جسدي كله بدأ بالصحو، ففتحتُ عينيَّ من جديد.. ولم تكن مجرد خيال. مددتُ ذراعي إليها، نحو رُكبتيها، رفعتُ طرف ثوبها قليلًا ودسستُ كفي تحته. لامستُ فخذيها، فاقتربَت أكثر وهي ما تزال واقفة وتبتسم. زَحَفَت أصابعي إلى الأعلى وصولًا إلى عانتها التي وجدتها كثيفة الشَّعر، ثم إلى بطنها الضامر وصولًا إلى طرف نهديها، مماثلاً في لمساتي إيقاع لمساتها، أدركتُ بأنها لم تكن ترتدي أيَّ قطعة قماش تحت ثوبها، فعاودتُ النزول بكفي إلى ما بين ساقيها، ورحت أعزف بأصابعي وهي تكاد تُغنِّي تَنفُسًا وتنهُّدًا، وبريق الشهوة يندلق من عينيها إلى عينيَّ وهي تُحدِّق بي بتركيز. كنا نتحدَّثُ بأعيننا. نُعبِّر عمَّا يختلج في أنفسنا ويُخلِج جسدينا. نتفاوض ونتفق، فأزاحت بقيَّة الشرشف عن نصفي الأسفل ورفعت ثوبها إلى وسطها وجلسَت على وسطي، فشهقتُ عندما لامس لحمها لحمي. انحنت فوقي وراحت تتشمَّمني وتُقبِّلني بالهدوء نفسه، فأدخلتُ كفِّي تحت أعلى ثوبها، قبضتُ على نهديها، وهالني انتصاب حلمتيها وطولهما، فرفعتُ الثوب أكثر، لينكشف أمام عيني نهدان صغيران قويَّان وحلمتان طويلتان، كحبَّتَيْ عِنَب، من تلك التي كنَّا نسمِّيها في القرية «ديس العنز». حلمتان ذكَّرتاني على الفور بحلمتَيْ دوشكا اللتين طالما اشتهيتهما ولم تسمح لي بلمسهما ومصِّهما إلا مرة واحدة بعد إلحاح. كانت تلك المرة تحت الدوش في عشِّهما الجميل، لكنني لم أستطعمهما كما كنت أريد؛ بسبب تدفُّق الماء فوقنا ودخوله في فمي، ومنعي من شم رائحتهما والتعرُّف على ملمس وطعم جلدها.

قبضتُ على نهدَيْ هذه الخلاسيّة وسحبتها إلى الأسفل نحوي، ورحت أمُصُّ حلمتيها بشراهة، متخيِّلًا دوشكا، على الرغم من أن هذه

الشابَّة كانت تفوح منها رائحة الطيور -رائحة الدجاج- كلَّما ضممتها أكثر، كلمَّا أحسستُ بالرائحة أكثر، حتى تكاد تكتم الأنفاس، وكانت تضع على رأسها طاقية صوفية كثيرة الألوان، من تلك التقليدية التي يضعونها بكثرة هنا، وفي تلك الطاقية بقايا رائحة الصوف، لكن رائحة الدجاج كانت أقوى، فدفعتها برفق عن وجهي، دون أن أُفلت قبضة كفي عن نهديها وتمرير أصابعي على حلمتيها المدبَّبتين، فابتعدت إلى الخلف قليلًا، وأنا أتحسَّس طراوة إليتَيْها تمرَّان فوق ركبتيَّ، ثم انحنت على ما بين ساقيَّ وراحت تُقبِّله وتمصُّه، متخلِّيَةً عن هدوئها كلَّما وجدته أكثر توتُّرًا وصلابة في كفِّها وفي فمها. تزداد لهاثًا وسخونة وتزيدني من ذلك معها، إلى أن وجدتها تجلس فوقه بحركة سريعة، فغاص فيها وشهقت من فرط اللذة، وراحت تصعد وتنزل عليه، ترهز، تتلوَّى، ترقص عذوبة وعذابًا. وكانت تندُّ عنها بعض الأصوات المتقطِّعة كقوقأة دجاجة فعلًا... فجأة توقَّف كل شيء؛ لأننا فوجِئنا بدخول مارينا إلينا، من الباب الذي لم أغلقه أنا أبدًا، ويبدو أن هذه الدجاجة لم تغلقه خلفها هي الأخرى. تجمَّدنا نحن الثلاثة للحظة، كل في مكانه ووضعه، ورأيت التي فوقي تبتسم لمارينا بهدوء. ثم تبتسم مارينا لكلينا، وتردد كلمات اعتذار وهي تنسحب ساحبة الباب لإيصاده خلفها. عندها تيقَّنتُ بأن الذي يحدث واقعيٌّ، ولم أدر ما الذي عليَّ فعله. لم أتحرَّك، فبادرت التي فوقي بالانحناء عليَّ مجدَّدًا وهي تبتسم، فغمرتني برائحة الدجاج أكثر. قبَّلتني وأعادت انتصاب جلستها، متحرِّكة لإعادة انتصابي.

فكَّرت لحظتها بأن الأمر من تدبير مارينا، وأنها هي التي بعثت لي أو جاءت لي بهذه المرأة كنوع من الاعتذار أو التعويض عن قطعها لرغبتنا بالأمس. نهضتُ، حملتُ النحيفة ومددتها على بطنها، ثم اعتليتها، وأفرغت فيها -بحرارة وعنف- كل مكتوماتي على مدى الأيام الماضية. كانت ترتعش تحتي ثم فوقي كالذبيحة، وكنت أشعر بشدَّة تلذُّذها يكاد يكتم أنفاسها.

بعد أن انتهينا من التحامنا، ومن تمدُّد استراحتنا، ونهضت تهُمُّ بالمغادرة. سألتها عن اسمها فوجدتها ترسم في الهواء علامات سريعة بأصابعها، لم أفهمهما، فتناولَت ورقة وقلم من الطاولة القريبة وكتبَت: «اسمي سيتلالي، أنا خرساء»، ثم أعادت الورقة والقلم إلى الطاولة. رسمت نجمة وأشارت إليها بسبَّابتها ثم إلى الاسم ثم إلى صدرها، ففهمتُ أن معنى اسمها «نجمة»... عبثَت بشَعري بكفِّها كما يفعل البعض برؤوس الأطفال تعبيرًا عن المَحبَّة. قبّلَتني قبلة سريعة، ثم غادرت وهي تنظر إليَّ وتبتسم، إلى أن اختفت تاركة الباب خلفها مفتوحًا.

أكمَلت مارينا مهمتها بعد شهر تقريبًا، وسافَرت قائلة بأنها ستعود إلى هنا بعد أربعة أشهر، تاركة لي المزيد من النقود، ومؤكِّدة على الزوجين الشابين مهمة تلبية كل طلباتي.

- 31 -

في اليوم التالي، أخبرتني مارينا بأن سيتلالي خرساء منذ ولادتها، وهي الشقيقة التوأم لوايرا. تأتي إلى هنا لمساعدة أختها في شؤون البيت والأطفال والعناية بالبقرة وعجلها والدجاجات، وخاصة أن وايرا حامل الآن. قالت بأنها أكثر امرأة تستحقُّ هداياك وحنانك ورجولتك يا أمير. إنها طيِّبة ومسكينة، تسكن مع أمها وخطيبها في بيت قريب من هنا. يعيشون من تربية الطيور وبيعها، وبعض الزراعة والحياكة. هُنَّ اللاتي يَعُلْنَ الخطيب؛ لأنه مدمن على المخدرات، وبالكاد يصحو. كل الناس يعتبرونه خطيبها أو زوجها منذ أن كانا صغيرين وقالا ذلك. لم يفترقا ولم تتخلَّ عنه، حتى بعد أن أصبح عبئًا عليها وعلى أمها. هو ابن جيرانهم، وعندما كانا في الثانية عشرة من العمر تقريبًا، كان هو ساهرًا في بيتهم يلعب أو يدرس مع وايرا وسيتلالي، ووالد البنتين كان ساهرًا مع والده ووالدته، حين دخلت مجموعة إلى البيت فقتلت والديه ومعهما والد وايرا وسيتلالي، وأحرقوا البيت واختفوا. كان لوالده علاقة وتعاملات

مع إحدى عصابات تجار المخدرات؛ لذا بقي الولَد في بيت الجيران، وبعد أن كبر مع البنتين أصبح هو وسيتلالي خطيبين، وإلى اليوم، صار جزءًا من العائلة وإن تحوَّل إلى عبء عليها. أراد أن يكون متعاملًا بالمخدرات مثل أبيه فانتهى ضحية لها كما انتهى والده.

إثر ذلك، أصبحتُ أكثر حنانًا ولطفًا مع سيتلالي، التي زادت من تردُّدها على البيت، وفي كل مرة، تصعد إلى غرفتي ونمارس الحب بصمت يجعل من قوقأتها الدجاجيَّة أكثر صفاءً في رنينه. كانت تصعد إليَّ في أية لحظة، صباحًا أو مساءً، أو في منتصف الليل، أو عند الفجر أحيانًا، حال عودتي من مقهى هاني. تعرف بوجودي مهما كان الوقت، ويبدو أن شقيقتها وايرا على علم بعلاقتنا، بل وسعيدة بها. ولأنني أردت إيجاد حلٍّ لرائحة الدجاج في شَعرها وجسدها؛ ذهبتُ أكثر من مرة إلى غرفة مارينا المقابلة لغرفتي، وجئت بزجاجة عطر أرشُّها به حال دخولها، ثم اشتريت لها من السوق الرئيسي في المدينة ثلاث زجاجات عطر، هي الأفضل والأغلى هناك، وإن كانت رائحتها نفَّاذة، فعلتُ ذلك وأنا أتذكَّر قول مارينا بأن هذه هي أكثر امرأة تستحقُّ هداياي؛ لذا كنت أُكثِر من الهدايا لها كلما مررتُ بالسوق: أحذية، أساور، قفازات، فساتين وألبسة داخلية، وإن كنت أفضِّلها عند اللقاء عارية تحت الثوب تمامًا، ويبدو أنها تعرف ذلك؛ لذا كانت تجيء إليَّ بلا أيِ لباس داخلي، كما جاءتني أول مرة، باستثناء أنها صارت أكثر عطرًا وأقلَّ رائحة طيور.

بعد سفر مارينا، أصبحتُ أمضي كل وقتي بين هاني في مقهاه وبيته، وبين سيتلالي وعائلة أختها في هذا البيت. تناولتُ معهم لأول مرة وجبات شعبية كطبق الـ «بانديخا بايسا» الذي يحتوي على أكثر من عشر مواد مطبوخة معًا، منها الأرز واللحم والموز والبطاطا والبيض والباقلَّاء، ويكون أطيب إلى جانب خبز الذرة الجافة «الآريبا»، شوربة «سانكوتشو» ببهاراته الكثيرة واللحم والبطاطا والعرانيس، قِطع «الباتاكونيس» عجينة الموز الأخضر المقليَّة، أطباق الباذنجان المنوَّعة والفلفل والفاصولياء

والطماطم، حساء الـ «إيتشياكو» بالفاكهة والأعشاب المحلية والدجاج والذرة والبيض والبطاطا، مشويات الـ «فريتانغا»، حلويات «البونويلوس»، كما أدمنتُ -عند الإفطار- على خبز «الباندیبونیس» التقليدي المعمول بالجبن، فيما لم يعجبني الـ «التشيتشارونيس» أبدًا، طبيخ قشرة لحم الخنزير بشحمه وجلده.

كنَّا نأخذ الأطفال أحيانًا إلى السوق أو للعب في الساحات، أو نساعد سيتلالي برعاية البقرة وعجلها والدجاجات، وفي الحقيقة، كنا أنا والأطفال نتفرج أكثر مما نساعد، إلا أن مجرد وجودنا معها كان يُسعدها، فتُظهر مهاراتها وتحاول تعليمنا كيف نحلب البقرة التي نَفِرُّ منها كلما تحرَّكت أو نَفخَت أو هزَّت ذيلها، فتضحك سيتلالي بقوة، حتى تندَّ عنها القوقأة الشبيهة بأصوات انتشائها الشديد في السرير.

رافقتُ آمارو عدة مرات، وهو ذاهب إلى عمله في المزرعة، وهناك رأيت لأول مرة النباتات التي تنتج القهوة والكوكايين، وشجرة الـ «الماتاراتون» قاتلة الفئران، وثمار غريبة عليَّ، كثيرة بتنوُّع أشكالها وألوانها: «ماراكويا»، «كورابو»، «غواناباتا»، «غوايلابا»، «بابايا». وأصناف لا حصر لها من الورود والفراشات التي تملأ الفضاء، وكان هو يُعرِّفني باسم كل شيء... وأنسى أغلبها. كما تجوَّلت في المدينة كثيرًا. بضعة أحياء، ربما عشرة، تماثيل للعذراء وللمسيح وصلبان في كل مكان، بضعة سيارات قديمة جدًّا، وكثير من العربات التي تجرُّها الخيول والبغال والحمير والأوادم، كلاب وبط ودجاج وماعز وعجول ودواب أخرى سائبة، أرائك وكراسي على الأرصفة وموسيقى صاخبة، أناس مزيج من بيض وسمر وخلاسيين وأصول آسيوية وأوروبية وإفريقية، نساء كادحات ورجال عاطلون، حالمون يسمون أنفسهم (الرجال الأحرار)، وظللتُ أستغرب كثرة المستلقين على الأرصفة منهم مُخدَّرين وسكارى، على الرغم من أن هذا المنظر كان معتادًا منذ مجيئي إلى هنا؛ لكنني بقيت أستغربه في داخلي، وأود أحيانًا لو أقترب من كل واحد

منهم، أنظِّفه، أطعمه، أتحدث معه إلى أن يعود إنسانًا يسير على قدمين، وحين كنت أذكر ذلك لهاني، يرد عليَّ بألَّا أشغل نفسي بهذه الأمور، وهي عادية هنا، مثل وجود هذه الطبيعة الحُرَّة، والكل متعايش معها، ثم حدثني عن حبه للناس هنا وعن إعجابه بحبهم للحياة على الرغم ممَّا قد يبدو بأنهم يعادونها بسبب كثرة العنف والقتل والإدمان. قال: إنهم يعيشون يومهم قدر استطاعتهم ويحاولون الاستمتاع بالحياة، بِغَضِّ النظر عن ظروفها وأحوالها أو قِصَرها وطولها؛ لذا تراهم رغم المآسي في حياتهم مفعمين بحرارة العلاقات فيما بينهم، بكثرة الاحتفالية، والشرب والضحك والجنس والرقص. الكل هنا يجيد الرقص، ومن خلاله تشعر بأنهم يفرغون كل أحزانهم وهمومهم وأحلامهم؛ لذا تراهم لحظة الرقص أكثر بهجة، حتى وإن كان بعض الراقصين قد فقد عمله في اليوم نفسه أو فقد أحد أفراد عائلة، على العكس منَّا، نطيل أيام الأحزان ونجدِّد تذكُّرها في كل مناسبة.

ما لا يعجبني فيهم: طغيان الذهنية الذكورية، فكل الرجال الذين أعرفهم لديهم زوجات، وفي الوقت نفسه أكثر من عشيقة. كذلك مسألة اعتقادهم بالسِحر وإفراطهم في التعامل معها، قراءة الكف، الفنجان، اللسان، ورق اللعب، الشموع، عِظام الطيور، الدم والشَّعر... وغيرها من الخزعبلات، فأغلبهم يظنُّ بأنه يعاني من لعنة عمل سحري ما، عاطلون ومرضى ومُطلَّقات وعقيمات، وحتى التجار والمحاربون يستشيرون العجائز الساحرات في هذه الأمور.

كنت أبقى مع هاني في المقهى حتى ساعة متأخرة، وننام أحيانًا في مقاعدنا، مثل العديد من الزبائن حولنا. أصبحتُ واحدًا من عائلته بحق، أدخل وأخرج من بيته في أي وقت، أساعدهم أحيانًا بالطبخ وخدمة الزبائن، كما أصطحب أولاده للعب في الحديقة أو الصالون، وهناك وجدت نفسي أعود إلى المسرح بشكل ما لأول مرة؛ لأنني كنت أخترع لهم التمثيليات بالدمى التي أحرِّكها بأصابعي وأنا مختبيء خلف

الأريكة، وكان ابنه نيل أكثرهم تعلُّقًا بي. يرافقني للتجوال في المدينة أحيانًا وكفُّه في كفِّي، وكنا نذهب معًا لشراء بعض الحاجيات والمواد الغذائية التي تنقص في المطبخ. كان عمره أحد عشر عامًا، وسألته ذات مرة إن كان يعرف معنى اسمه، فقال: نعم، إنه أجمل نهر في العالم في أجمل بلد في العالم، اسمه مصر، ووالدي جاء من هناك، ورضع من مياه النيل أكثر ممَّا رضع من حليب أمه.

لحظتها، تيقَّنت من أن هاني ما زال مسكونًا بمصر، على الرغم من أنه يزعم العكس، وذات مرة طلب مني هاني أن أكون إلى جانب عائلته في غيابه؛ لأنه سيذهب في سفرة لمدة أسبوع، اعتاد أن يقوم بها بين الحين والآخر، رابطًا عربة خشبية على بغله، ويجول بين القرى الصغيرة القريبة، حاملًا إليها بعض البضائع الصغيرة والكثير من البهارات وأطعمته التي يجهِّزها جيِّدًا، ومن هناك يعود بالمزيد من الفواكه والخضروات النادرة، والتي وإن توفَّرت في البلدة، فإنها بأسعار مضاعَفة. قال بأنه اعتاد أن يفعل ذلك منذ وجوده هنا، ومن مردود هذا، استطاع أن يقيم بيته وتجارته، كما أنه تعرف على زوجته في إحدى تلك القرى، وهي وأولادهم الآن، هم أثمن ما في حياته.

أثناء غيابه، وعندما كنت في المطبخ مع زوجته ماريا، أساعدها، قالت لي: أرجوك يا أمير، ابْقَ هنا.

ففاجأني قولها، وسألتها: هنا؟ أين؟

- معنا في هذه البلدة.

- لماذا؟

- لأنني لم أرَ هاني سعيدًا إلى هذه الحدِّ ويضحك هكذا من كل قلبه من قبل، ولا حتى في أيام عرسنا. في داخله حزن ثقيل وعميق دائمًا، ولكنه منذ مجيئك أصبح شخصًا آخر، سعيدًا وخفيفًا ونشيطًا مثل ملاك، بل حتى أن صحَّته قد تحسَّنت وصار أكثر شبابًا.

صمتَت ولاحظتُ دمعًا يترقرق في عينيها، ثم قالت: إنه يحبك جدًّا يا أمير.

فقلت لها: وأنا أحبُّه أيضًا.

فعانقتني وهي تمسح دمعًا بلَّل عينيها وتضيف: يقول عنك: أمير أخي.

فضممتها أكثر وأنا أحس بالدمع في عيني أيضًا، وقلت لها بصدق حقيقي: نعم، وأنا أيضًا، أشعر بأنه أخي فعلًا.

- 32 -

لم تعد مارينا بعد مُضِيِّ أربعة أشهر، فرافقني آمارو إلى دائرة بريد صغيرة بجوار الكنيسة في مركز البلدة، ومن هناك اتَّصلت بها على هاتف مطعم «انضباط» في برشلونة، فقالت لي بأنها ستأتي بعد شهر، وأن هناك بعض الأوراق والإعدادات للسفر، وأعمال اضطرَّتها للتأجيل، وسألتني إن كنت بحاجة للمال، ولكنها لم تأتِ بعد مرور الشهر، فكرَّرتُ الاتصال وكرَّرَت الأعذار والوعد بالمجيء قريبًا. كرَّرتُ الأمر بعد شهرين، فكرَّرَت الإجابات... وهكذا، حتى تأخَّرت عودتها تسعة أشهر. كنت خلالها قد اعتدت على حياتي هنا، والتي لم يكن يشغلني فيها سوى التمتُّع والصحو والنوم على راحتي، فترة ذكَّرتني بالأشهر التي قضيتها مع أختي وأمي في القرية بعد التسريح من الخدمة العسكرية، كأنها فترة نقاهة.

في غيابها، أنجبَت وايرا طفلة، وأثناء ولادتها كانت شقيقتها سيتلالي تبقى معنا طوال الوقت وتبيت معي في الفراش كل ليلة، إلى أن حملت وانتفخ بطنها وكامل جسدها، وكانت سعيدة بشكل لم أرَ من قبل سعادة إنسان مثلها، وأختها وايرا سعيدة لسعادتها، وصارت هي التي تذهب لرؤيتها وأمها في بيتهنَّ في الأشهر الأخيرة من الحمل. أثناء ذلك نشأت لي علاقة بإحدى صديقات مارينا، التي كنت قد تعرَّفت عليها في السهرة التي اصطحبتني بها إلى مرقصها المفضَّل؛ ذلك أنني ترددت على المكان في بعض سهرات نهايات الأسابيع.

اسمها بالوما، معلِّمة في مدرسة ريوسورو، تمتاز عن مُجايِلاتها بحداثة في لبسها وسلوكياتها، وصارت تجيء معي إلى غرفتي في نهاية كل سهرة. كنت أخبر هاني بكل شيء يحدث معي، بل وبما قد حدث معي من قبل، فكان يردِّد على مسامعي كُنْ سعيدًا يا أخي، فالسعادة هي أن تسعد الآخرين كما يقول القدِّيس أوغستين، وذات سهرة كنا فيها وحدنا، بعد أن انصرف أغلب الزبائن ونام البعض الآخر على المقاعد والطاولات المحيطة، شربنا وضحكنا كثيرًا. وسألني إن كان بين النساء اللاتي منحتهن الأمومة مُسلمات أو يهوديات، فقلت له نعم، الأفغانية مسلمة، وكانت تردِّد على مسامعي آيات من القرآن تحفظها بعربية مشوَّهة، وتصلِّي بها أحيانًا، وأن دوشكا يهودية روسية، فانفجر بالضحك عاليًا، حتى فزَّ بعض النائمين قربنا، وكاد أن يقع بكرسيه إلى الخلف من شدة الضحك، الذي ما إن استطاع التحدُّث أثناءه حتى قال: أنت مثل الرَّبِّ يا أخي، الأب، رب الديانات الثلاث.

فأضحكني قوله، وواصلنا التنويع على الموضوع تعليقًا وضحكًا حتى خرجت زوجته من الدار وهي تفرك النعاس عن عينيها مستفسرة، فأخبرها هاني بالأمر، فضحكت هي الأخرى، وقبَّلت رأسينا ثم عادت إلى الدار لإكمال نومها.

اقترح عليَّ هاني أن أرافقه في إحدى رحلاته إلى تلك القرى، ولم يكن لديَّ ما يمنع من ذلك، فجئته في صباح اليوم التالي مبكِّرًا، ووجدته قد أعدَّ كل شيء، وأنهى ربط العربة الخشبية على بغله القوي، بعد أن ملأها بحمولة أشياء لم أتبيَّنها؛ لأنها كانت عشرات الأكياس المربوطة، مُحكمة الإغلاق، وصناديق صغيرة، وأَوانٍ. غطَّاها كلها بما يشبه بطانية بلاستيكية سميكة، أحكم ربطها بالحِبال على العربة من كل الجهات. وجلسنا أنا وهو في مقدِّمة العربة، على مقعد خشبي مريح، بعد أن عانق زوجته وأوصاها بالأولاد الذين كانوا نيامًا في تلك الساعة من الفجر، وأوصته هي بألَّا نتأخَّر بالعودة، كما أوصته أن يعتني بي، فضحك هو

قائلًا: «بل أوصيه بي، إنه ربٌّ صغير». ودَّعتني بقبلتين من الخدين واحتضان سريع ثم انطلقنا.

كانت تلك -بحقٍّ- أجملَ رحلة في حياتي، وبدل أن نعود في خمسة أيام عدنا بعد ثمانية؛ لأن هاني تشجَّع برفقتي أكثر، وأراد زيارة قرى أبعد كان قد توقَّف عن زيارتها مؤخَّرًا. كما أراد أن يُريني إيَّاها بعد أن وجدني مندهشًا ومرتاحًا سعيدًا في كل ما رأيناه. طُفْنا بعشرة قرى تقريبًا، أكبرها لا تتجاوز المئة دار، وكلها تقع في مناطق جغرافية وعرة يصعب الوصول إليها بسيارة. بعضها في أودية سحيقة وأخرى على سفوح الجبال أو قممها، وقريتان كانتا عبارة عن كهوف حقيقية في بطن الجبل، وعندما كان يحلُّ الليل ونحن في إحداها، نبيت فيها، بدعوة من أيِّ بيت طيب، فأغلب سكَّان تلك القرى يعرفون هاني، بل والكثير منهم ينتظر زياراته، مُحضرًا ما سيبيعه إليه أو يشتريه منه أو يقايضه، وعرفت أن البعض كان يوصيه على أشياء بعينها، وهو يدوِّنها في دفتر يحتفظ به بصندوق تحت مقعدنا في العربة. يسمُّونه «آني المصري»، وهو منسجم مع هذه التسمية قائلًا: ها أنا ربٌّ صغير مثلك، فالكل يناديني «آني/ أنا» ممَّا يعني أنني متجسِّد في الجميع. يضحك، وأحيانًا يعلق متفلسفًا: كلُّنا آنيُّون، مؤقَّتون في هذه الحياة.

يقدِّمني إليهم قائلًا: «هذا أخي العربي، اسمه أمير»، ويترجم لهم معنى الاسم، فينادونني (الأمير العربي). عرَّفني على أناس كثيرين في القرى، وعلى أشجار وحيوانات أكثر في الطريق: سحالي، أفاعٍ، خنافس، فراشات، طيور، ديدان، حجارة، صخور، ورود، ثِمار، أشواكٌ، أعشاب، عيون وجداول صغيرة... وكان الطريق، أو الطُّرق، فرصة أيضًا، للحديث عن أشياء ربما فاتنا الحديث عنها سابقًا، فعرفت منه أنه كان يبعث المال لعائلته، وظلَّ يفعل ذلك حتى بعد موت والديه، إلى أن ساعد أُختيه في زواجهن قائلًا بأنه يشعر بالرضا؛ لأنه أوفى مع عائلته الأولى بما كانوا ينتظرونه منه لو بقي هناك، فلم يتأثَّروا بغيابه إلا عاطفيًّا، ودمعت عيناه، حين عبَّر عن حسرته على موت والديه في غيابه: ما أصعب ذلك يا أخي.

تحدَّثنا عن الجودو طويلًا. شغفه الأول، وفي إحدى المرات التي جلسنا فيها لتناول الغداء وسط الأشجار على العشب، وبجوار جدول ماء قادم من أحد الينابيع في الجبل، نهضنا بعد الغداء، أجرينا جولة مصارعة، وعلى الرغم من أنني كنت أقوى منه بدنيًّا وأطول قامة وأصغر سنًّا، إلا أنه غَلَبني، وكان ذلك طبيعيًّا؛ فكل سيرته في الجودو احترافية، حتى وصل إلى أعلى درجاتها فيما لم تتجاوز معرفتي بها النوادي الأولية والمدرسية، ولم أكمل عامًا دراسيًّا لها في الكلية. وكان يحدِّثني عن جوائز كثيرة نالها، ذهبية وفضية وبرونزية في المدارس، ومن ثم في منتخبات الناشئين والشباب والبطولات المحلِّيَّة والعربية والإفريقية التي أُقيمت في مصر، ويشرح لي نظريًّا وتطبيقيًّا العديدَ من الحركات التي كنت أجهلها أو لم أُجرِّبها. يفعل ذلك، وهو في غاية نشوته وابتهاجه، ولساعات طويلة في الطريق، تخلَّلتها أوقات لتذكُّر النكات القديمة والأفلام، وللغناء معًا بأغانٍ نحبها، وخاصة أغاني عبد الحليم حافظ وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب. كنَّا نترنَّح طربًا كلما تناغمت أصواتنا في بعض المقاطع، وننفجر بالضحك كلما صعب علينا تذكر بعض الكلمات، فنعوِّضها بأخرى نختلقها، بشرط أن تفي بالوزن والقافية، حتى وإن كانت بعضها ألفاظًا بذيئة أو شتائم، فتزيد تأجُّج ضحكاتنا، التي كانت تُضاعفها تردُّدات صداها بفضل الجبال والجروف القريبة، وتفرُّ من أعالي الأشجار بعض الطيور، فيشرح لي بعض عاداتها وأسمائها، كما كان يحدثني عن كل ما نمر به من أماكن وصخور غريبة، وعمَّا حاكه الناس حولها من أساطير، ومن أين جاءت أسماؤها الغريبة والمدهشة أحيانًا، وفي بعض القرى كان يروي لي عن أحداث تاريخية جرت فيها منذ أن كانت مأهولة بأهلها الأصليين من الهنود الحُمر، وأخرى جرت بعد وصول الأسبان ومن بعدهم شتَّى الجنسيات الغربية، حتى إن إحدى القرى التي كانت أكثرها تنظيمًا وأناقة في طراز البناء، وأغلب عيون أهلها زرقاء، قال إن مؤسِّسها سويدي حالِمٌ بمدينة فاضلة، جاء إلى هنا وأقامها في هذا المكان المنعزل على مزاجه. انتقى سكانها

الأوائل بنفسه، ووضع قوانينها وعاداتها وتقاليدها على هواه، ويُقال إنه تزوج بالكثيرات في وقت واحد كي يجعل أغلب سكان القرية من بعده من ذرِّيَّته، وهكذا كان، ثم علَّق ممازحًا: لماذا لا تفعل مثله وتجمع كل أبنائك في قرية واحدة؟

فقلت له: عدا أنني متهرِّب من مسؤوليتي تجاههم، فَهُمْ كُثْرٌ، ويصعب جمعهم...

فنفض يده قائلًا: لا كثير ولا هم يحزنون، عمدة قريتنا في الصعيد، لديه أضعاف ما عندك، تزوَّج من سبع نساء، وتجاوز عدد أبنائه الأربعين.

- ربما يمكن جمع الأطفال، ولكن من المستحيل جمع أمَّهاتهم... المشكلة في الكبار دائمًا، لا في الصغار.

وفي إحدى محادثاتنا الكثيرة المتنوِّعة، ساقنا الكلام لسؤاله عن مفهوم الأخلاق بالنسبة له؛ لأن هذه مسألة تشغلني أحيانًا، ولا أعرف لها إجابة واضحة، فيما أجاب هو بوضوح أن جوهر كل الأخلاق بالنسبة له يكمن في مبدئين، هما: عدم الظلم بأي شكل من الأشكال، لا بالفعل ولا بالقول ولا حتى في الظنون؛ لأنه يعتبر الظلم أسوأ الشرور، وذلك بحكم تجربته وتعرضه للظلم الذي حطَّم حلمه الكبير وغيَّر حياته كلها، وسمَّى ما فعلته بي زهراء ظلمًا أيضًا، وأضاف بأنه حتى ضد ظلم الشخص لنفسه، حين يعاملها بأقل مما تستحق أو يقيِّمها بأقل مما هي عليه؛ لذا يحرص على زرع ثقة أبنائه بأنفسهم، وتعزيز ثقة كل شخص في نفسه ممَّن يلتقيهم في الحياة. أما المبدأ الثاني للأخلاق فهو أن يؤدِّي كل شخص واجباته بكل نزاهة وعلى أفضل وجه يستطيعه؛ لذا فهو متصالح مع نفسه؛ كونه أدَّى واجباته مع عائلته الأولى، ويؤدِّيها الآن مع عائلته الثانية، وكذلك النزاهة في عمله مهما يكن بسيطًا، فيؤكِّد: ولهذا بارك الرب لي بعائلتي وعملي.

أغلب البيوت التي استضافتنا للمبيت، كانت خالية من الرجال، نساء وحيدات، أرامل وعوائل غاب عنها الآباء هجرةً أو اختطافًا أو قتلًا أو

إدمانًا على المخدرات، وفي بعض القرى استضافنا العمدة نفسه، فيما بِتْنَا ذات ليلة في بيت قال إنهم أهل زوجته، أمها امرأة عجوز محنية الظهر مع ابنيها وكِنَّتها وحفيدها. الابن بعمرنا تقريبًا، وهو القائم على إعالة الأسرة من الزراعة ومحل نجارة بدائي صغير بجوار الدار، أما الأخت فهي شابَّة تشبه ماريا زوجة هاني إلى حد كبير، عرض عليَّ هاني الزواج بها، ففي آخر كلامنا، قبل أن ننام على أرضية الصالون متجاورين، قال: سيكون ذلك رائعًا، ونصير إخوة أكثر ممَّا نحن عليه، تأخذها إلى «ريوسورو» ونبني لك بيتًا جوار بيتي، ويختلط أولادك بأولادي، وبهذا نؤسِّس قبيلة عربية في هذه الأنحاء القَصِيَّة، ويمكنك أن تجلب ابن اليهودية أيضًا لنقيم عائلة الديانات الثلاث.

وضحك... ثم نام وشَخَّر.

- 33 -

أكثر شيء كان يحزُّ في نفسي، في تلك القرى، هو رؤيتي لأغلب أطفالها حُفاة، أو بأحذية صنعتها لهم أمَّهاتهم من الصوف والخشب، أو أحذية قديمة ورثوها من الكبار؛ لذا عزمتُ على استئناف صناعة أحذية الأطفال حال عودتي إلى البلدة، وسوف أبعثها كهدايا لهم مع هاني، كما حاولت إسعاد بعضهم في الساحات التي تجمَّعوا فيها حولنا، فأقمتُ لهم مسرحًا صغيرًا. قصص أرتجلها بعفوية، أبطالها أشياء كنا نحملها في العربة، كؤوس، ملاعق، خيوط، أكياس وشبه دُمى صنعتها سريعًا من أخشاب وأقمشة، أو بتمثيلي أنا مع إشراك بعضهم، على الرغم من أن لغتي الأسبانية كانت بسيطة ومختلفة في اللفظ عنهم، وليست كلغة هاني التي يلفظها كواحد منهم تمامًا، وإن كان بلكنة مصرية أحيانًا. تعمَّدتُ اختيار أبسط الكلمات وأقلِّها، مُضاعِفًا التعبير أكثر في أدائي الجسدي وبالأشياء التي أستعين بها من بضاعة هاني، أو ممَّا في أيدي الأطفال من لعب بدائية. أقمتُ هذا الفعل المسرحي في ثلاث قرى، فكان النجاح

مُبهرًا لهاني ولي أنا نفسي؛ ذلك أن الفرح الذي كنَّا نراه في عيون الأطفال وفي صرخاتهم يفوق أية غبطة أخرى، وكانت بعض الأمهات والجدَّات والعابرين يتوقَّفون للفُرْجَة خلف نصف دائرة الأطفال الجالسين، والكل ينتهي بالتصفيق والاحتفاء؛ لأنهم رأوا شيئًا مختلفًا عن روتينهم اليومي، وجديدًا تمامًا بالنسبة لهم.

كنت أشعر بأن شغفي الأولي بالمسرح يتململ داخلي وينفض عنه الغبار الذي تراكم إثر إهماله لأعوام طويلة. ينتابني الإحساس ذاته الذي كنت أعيشه طفلًا وصبيًّا في قريتي، نَشِطًا في المسرح المدرسي، ويذكرني بالفرقة المسرحية البسيطة التي أنشأتها مع بعض أصحابي وطُفْنا بها على القرى المجاورة. البهجة ذاتها في عيون الفلاحين والأطفال هنا وهناك، فعاودتني الثقة بالمسرح مجدَّدًا على أنه أبو الفنون، والفن الذي يرافق تحضر الإنسان وسيبقى يرافقه إلى الأبد. التعامل المباشر مع المتلقِّي، تفاعل الإنسان مع الإنسان من أجل البوح والتأمُّل والتفكير، وقول ما نريد وما نحلم به وما نحب وما نبغض، من خلال اختراع هذا الفعل، نتحرَّر فيه تمامًا، بحجة أنه ليس واقعيًّا.

كان هاني متفاجئًا بما فعلته، سعيدًا به إلى أقصى حدٍّ، وأكثر المصفِّقين حماسَةً، ويساعدني دائمًا بجلب ما أحتاجه، بل ويشاركني في بعض المشاهد التي سرعان ما صار يعرفها منذ العرض الأول. على الرغم من أنني لم أكن ألتزم بها حرفيًّا، وغالبًا ما أُغيِّر كثيرًا بين عرض وآخر، وكان يكرِّر على مسامعي العبارة ذاتها بعد كل عرض «السعادة هي إسعاد الآخرين». كما يقول القدِّيس أوغستين، ويربت على كتفي أمام الآخرين بفخر. كما كان يومىء لي برأسه أحيانًا، ويغمز مشيرًا إلى امرأة ما، ثم يهمس لي بأنها كانت تنظر إليَّ بإعجاب، «كانت تلتهمك بعينيها التهامًا يا أمير، صدِّقني، فاذهب وبِتْ معها الليلة»، لاكزًا إيَّاي في خاصرتي بمرفقه، ولم أكن بحاجة إلى تنبيهاته تلك؛ لأنني أعتقد بمعرفتي، إلى حدٍّ كبير، بلغة عيون النساء وإيماءاتهن، بعد أن كنتُ

جاهلًا بها تمامًا قبل معرفتي بزهراء، وبعدها بفترة... وأعترف لنفسي الآن على الأقل، بأنني أصبحتُ مولعًا بالنساء، إلى الحد الذي انتبهت فيه إلى نفسي، بأنهن صِرْنَ أجمل وأهمَّ وأمتع ما في حياتي، وأدرك تمامًا بأن القرار الأول والأخير عائد للمرأة لبدء أية علاقة، مهما تبجَّح وادَّعى الرجل بأنه هو المبادر الأول والصيَّاد. أحدس جيدًا وأفهم دعوة المرأة لي من نظراتها، وأتمتع أكثر، كلما وجدت إحداهن تتمتَّع معي.

في قرية صغيرة، تسمَّى (لاباريّغا/ الكرش)، مُقامة على هضبة صغيرة، محاطة بالغابات الكثيفة والأودية، تعرَّفتُ على أرملة بدينة، طيبة جدًّا، سوداء جدًّا ولها ابتسامة ساحرة، فأقنعتُ هاني بالمبيت عندها، بعد أن كان قد أعدَّ العُدَّة للهبوط إلى قرية أخرى يعرفها أكثر. كان بيتها كوخًا واسعًا على حافة الهضبة. تعيش من تربية الماعز ورعاية المُسنِّين في القرية، بعد أن مات عريسها في أحد مناجم الفحم، تاركًا إيَّاها وحيدة مع أمه العجوز العمياء وثقيلة السمع. هَرِمَة، نحيفة، سوداء، تبدو كبقايا شبح منسيَّة في عتمة زاوية الكوخ. اضطرَّ هاني للصراخ في أذنها ثلاث مرات كي تسمع سؤاله لها: «كيف حالك يا سيِّدة؟» فردَّت: «لا شيء، جالسة بانتظار الموت؛ لألتحق بابني».

قال: «لا تقلقي، ولا تستعجليه، فهو الوحيد الذي نحن على يقين من مجيئه».

قالت: «نعم، ولكن أسوأ ما فيه، هو أنه دائمًا يأتي في الوقت غير المناسب».

نامت العجوز مباشرة بعد تناول العشاء، وكذلك هاني، فيما بقينا أنا و«آرارا» نتجوَّل قرب السياج الخشبي المحيط بالكوخ والزريبة، وكانت تُقاطع كلامنا فجأة بين الحين والآخر، كي تتحدَّث بلغة غريبة مع بعض العنزات أو تَرُد بالصفير على طائر يخترق بصوته عتمة الوهاد تحتنا. أخبرتني أنها من أصول إفريقية ومن قرية بعيدة، على ساحل المحيط الهادي، لكن الحُبَّ هو الذي جاء بها إلى هنا، وأن حبيبها الذي تزوَّجها

كان من أصول إفريقية أيضًا. أحبَّت هذه القرية وناسها وأحبُّوها، وإن كانت في أعماقها تشعر بغربة ما، وتميل إلى الأجانب أمثالي، القادمين من أراضٍ بعيدة كأجدادها. وأشارَت إلى أن أمَّ زوجها، هذه السيدة العجوز العمياء التي تتمنَّى الموت، كانت في شبابها أيقونة جمال، يتنافس عليها الرجال، حدَّ المبارزة والاقتتال، وكتبوا عنها القصائد والأغنيات. كانت السماء صافية، قمر ونجوم ساطعة، حدثتني عنها «آرارا» كأنها تعرفها جيِّدًا، وقالت بأنها تتحدَّث معها أحيانًا وتغنِّي لها بعض أغاني طفولتها ذات الإيقاع الإفريقي التي تعلَّمتها من جدتها. طلبتُ منها أن تغنِّي لي إحداها، فأسعدها ذلك أكثر، وغنَّت بصوت شجيٍّ عذب، بعد أن جلسنا متلاصقين على كومة تبن في زاوية الزريبة. احتضنتها بعدها، واحتضنتني، تعانقنا، التحمنا... ثم نمنا متعانقين فوق التبن حتى الصباح.

أتساءل إن كان يمكن اعتبار عبارة هاني المفضَّلة كحقيقة حقيقية، وأن السعادة فعلًا هي إسعاد الآخرين! فيما ظلَّت مسألة التوصل إلى مفاهيمي الخاصة بالأخلاق أمرًا ضبابيًّا ومُعلَّقًا؛ لذا عاودت التطرُّق إليها في أحاديثنا أثناء طريق عودتنا، ولو من باب المزيد من التفكير فيها بصوت عالٍ أمامه. سألته إن كان يعتقد بأن الذي أفعله صحيحًا أو خاطئًا، فأكَّد بأنه هو شخصيًّا لا يفعل ذلك، على الرغم من أنه لا يرى سوءًا فيما أفعله أنا، ما دمت أقوم به بالتراضي ودون الإضرار بأحد، وحين سألته، وماذا عن أبنائي، أدركتُ بأنه حرص على التخفيف عني؛ لذا أطال في الكلام الذي صار يكاد يستطعمه باللغة العربية، كأنه يلتذُّ بها مجدَّدًا منذ أن التقينا، ويتهلَّل وجهه عندما يتذكَّر بعض الكلمات التي كان قد نسيها على مدى أعوام طويلة، وممَّا قاله: «انْظُرْ إلينا أنا وأنت، ها نحن بعيدان عن والدَيْنا منذ سنين، وعالمنا اليوم يختلف عن زمن آبائنا مثلما سيختلف زمن أبنائنا عن زمننا، حيث تتبدَّل المفاهيم والقيم، ويصبح ما كان غريبًا ومستهجنًا، بل وجريمة يتمُّ العقاب عليها بالأمس- شيئًا

مألوفًا وعاديًّا، بل ومرغوبًا اليوم. أخلاقيات عصرنا هي لا أخلاقيات، بل وضد الأخلاق تمامًا فيما لو قسناها بمعايير أزمنة سابقة. وما هو مُحرَّمٌ عند قوم، مُحلَّلٌ ومُستَحبٌّ عند قوم آخر؛ لذا فمن الأخلاقي ألَّا نحكم على أخلاق الأخرين وفق أخلاقيَّاتنا، وإنما نحترم سلوك الآخر المختلِف، بشرط ألا يكون مُضرًّا بإنسان».

واستطرد بالحديث، إلى أن شَعر بأنه قد تاه فيه، فقال: «باختصار وبصراحة، صار صعبًا عليَّ اليوم التمييز الواضح بين ما هو أخلاقي وما هو ليس كذلك. يبدو لي عالمنا فوضويًّا ومختلطًا ومتنوِّعًا إلى الحد الذي يستحيل الفرز فيه، وربما عليه التوقف لإعادة تعريف بعض الأخلاقيات وتحديدها؛ لأن البعض قد صار قادرًا على تبرير كل شيء، بما في ذلك قتل الإنسان... أمَّا عني شخصيًّا، فأنا أتمسَّك بأخلاقيات محدَّدة وقليلة وثابتة، ومتكيِّف مع المكان المنعزل الذي أعيش فيه. أعتقد أن الاستقرار هو الذي يكوِّن العائلة، وأن العائلة هي التي تكوِّن الاستقرار، والذي بدوره يُنتج ويفرض قيمًا أخلاقية واضحة، لكننا نعيش اليوم في عالم مضطرب من أقصاه إلى أقصاه. انْظُرْ إلينا من أين أتينا وأين نحن الآن!».

ثم صمت قليلًا. تلفَّت حوله وتساءل مبتسمًا: «حقًّا، أين نحن؟ وماذا نفعل هنا؟ ولماذا حدث ويحدث كل الذي حدث ويحدث معنا؟».

على الرغم من أنه كان يطلق تساؤلاته تلك بشكل تمثيلي وبما يشبه المزاح، إلا أن فيها صدقًا شعرنا أنه يلامس أعماقنا، فانتابنا الحس الوجودي الذي لا بُدَّ وأن يمر به كل إنسان في لحظةٍ ما. شعرنا لبرهة بأننا تائهان في عالم شاسع وغريب، شعرنا بغربة حقيقية في أرواحنا وكأننا ذرَّتا غبار في عاصفة، وانتبهنا بعدها إلى أننا كنَّا واقفين في منتصف الطريق، والبغل منشغل بأكل الحشائش على جانبه، فنظرنا إلى بعضنا للحظة، ابتسمنا وتعانقنا، ثم ضحكنا، وقرَّرنا التخلُّصَ من هذه الحالة فورًا عبر الترنُّم بأغنية هي أقرب للتعبير عنها، ولكننا رحنا نغنِّيها بسخرية وتهريج يزداد كلما تعثَّرنا في تذكُّر بعض كلماتها:

«جايين الدُّنيا ما نعرف ليــه، ولا رايحين فين، ولا عايزين إيــه
مشاوير مرسومة لخطاوينــا، نمشيها في غُربة ليالينــا
يوم تفرحنا ويوم تجرحنــا، واحنا ولا احنا عارفيــن ليـه
وزي ما جينا جينــا، ومُش بإيدينا جينــا
....
يَلَّا نعيش وكفاية ظنــون، يَلَّا نخلِّي عمرنا كُله، كُله ليلــة
بعيدة عن الحِرمان وعن الأحــزان، وإن لام حَد علينا نقولــُه:
لولا الحُب ما كان في الدنيا ولا إنســان».

- 34 -

عادت مارينا من إسبانيا غاضبة جدًّا، وعازمة على ألَّا تعود إليها، قائلة بأنها تيقَّنت الآن من أن مانويل كان يستغلُّها طوال هذه السنين، كما يستغلُّ كلَّ مَن يعرفهم، ومنهم أنتَ الذي من دمه ولحمه. وعَدَها بالزواج منذ أن عرَفها، وظل يؤجِّل الأمر إلى أن واجهته أخيرًا لأن قطار عمرها يفوت، وعلى الرغم من أنها تريد الزواج منه رغم عقمه، إلا أنه هو الذي يتملَّص قائلًا بأن «الزواج مشروع اقتصادي فاشل». هو الذي يحوِّل كل علاقة إنسانية إلى مصلحة مادية. سوف أُريه كيف أن رفضه الزواج مني هو المشروع الاقتصادي الفاشل. قالت ذلك وهي تفرغ حقائبها، فيما أنا جالس على حافة السرير في غرفتها.

كانت تتحرَّك بعصبيَّة وتتحدث مُحتدمة كأنها في مونولوج داخلي، كأنها تتحدَّث إلى نفسها بصوتٍ عالٍ: «ضحَّيتُ بحلم الأمومة لفرط عشقي له، ووثوقًا بوعده، ومع ذلك خذلني، ويلمِّح إلى طمعي بماله، علمًا بأنني أنا التي صنعت له نصف ثروته، إن لم تكن كلها. فكرة بَكَرات تهريب الذهب فكرتي، وأنا التي تقوم بالجزء الأكبر منها. عرفتها حين كنت أعمل في بارَّانكيا مع التجار، ومنهم دَلَلْتُه على أفكار أخرى كانوا

يقومون بها، كتهريب المخدرات عبر البحر وإيصالها إلى سواحل قاديش وغاليثيا في إسبانيا، أو تهريبها على شكل كريَّات وأنابيب صغيرة مضغوطة وإدخالها في أجساد فتيات يتم تأجيرهنَّ للغرض، بل أنا الغبيَّة نفسي، غامرتُ بذلك مرتين بدفع منه وحبًّا له. سافرت ومعدتي مليئة بالكريات وفَرجي بالأنابيب. كل ذاك ينساه، حالما يحصل على المال بين يديه».

لحظتها، كانت تُخرِج لفائف الـدولارات من أنابيب الحقائب وطيَّاتها. فقالت: «هذا ماله، بل هو مالي، سآخذه لي ولن أعود إليه. مائة ألف دولار، وسأُرمِّم به حياتي، سأنقذ مستقبلي قبل فوات الأوان. فكَّرتُ بالأمر طويلًا، وعلى مدى ساعات السفر. سأشتري شقة صغيرة في مدينة «مديين» وسأفتح هناك مطعمًا».

ومن بين الأشياء التي كانت تُخرجها من الحقائب، دفعت إليَّ بثلاثة أغلفة، أحدها كبير، وواصلَت تحرُّكَها وحديثها: «وأنتَ، إن شئت، تعال معي إلى مديين ونتشارك في كل شيء، فأنتَ أيضًا لن تستطيع العودة، إلا بعد مرور عشرة أعوام».

فاجأني قولها، ورميتُ الأغلفة إلى جانبي على السرير مُستفهِمًا، فشرحَت لي أن إبعادي إلى هنا، منذ البداية، كان بسبب وجود قضايا قانونية ضدي؛ لأن مانويل كان يستخدم وثائقي وحسابي البنكي في الكثير من عمليات إرسال واستقبال الحوالات النقدية والنصب والاحتيال، وأن القضاء هناك يُسقِط القضايا بعد مرور عشرة أعوام عليها.

ذُهلتُ، وعاتبتها على عدم إخباري بذلك منذ البداية، فقالت بأنها هي الأخرى لم تكن تعلم السبب الحقيقي لإرسالي للسفر معها، وكانت تُطيع أوامر مانويل وحسب، وذكَرت لي نماذجَ من بعض تلك القضايا ضدي، ومنها تزوير أوراق، تبييض أموال وتهريبها، شراء وتأجير عقارات ومحلات والاكتفاء بدفع الثلاثة أشهر الأولى. «ألا تتذكَّر بأنه كان يُحذِّرنا من استلام أية رسالة مُسجَّلة؟ تلك كانت تأتي من المحاكم،

وعدم استلامها بتوقيع، يجعلها تعود، ثم تُرسل مُجدَّدًا بعد ستة أشهر... وهكذا. أنت تعرف البيروقراطية في إسبانيا وبُطء القضاء».

في الحقيقة لم أكن أعرف أي شيء عن ذلك. نشف ريقي والدم في عروقي، وهي تواصل انثيالها قائلة: «إنه يَستغلُّ حتى المُشرَّدين المساكين في الشوارع، يتصدَّق عليهم بفضلات المطعم ويستخدمهم لبيع المُخدِّرات، بل وبيعها على بعض المدمنين منهم، يورِّطهم في سرقات، فيحطِّم حياتهم أكثر... ما كنتُ أتخيَّل بأن الجشع سيصل به إلى حد استِغلالنا واستغفالنا أنا وأنت، أقرب الناس إليه، ويُفترض أننا عائلته الوحيدة في إسبانيا. كنت أدير له المطعم وشؤونًا كثيرة بحرص شديد وتعب ومثابرة، كأنها أعمالي أنا... يا له من خنزير قذر!».

حين خلوتُ بنفسي في غرفتي، رحت أفتح مغلَّفات الرسائل الثلاث. كانت إحداها من منهل، يشرح لي فيها أن غيابي لعشرة أعوام هو الحل الأمثل، وعليَّ أن أعتبره مِنحة لا عقوبة، فبدل أن أقضيها في السجن، أقضيها بالحرية والحياة والمتعة وفعل ما أشاء. «اعتبرها سنوات عمل بلا عمل، ولديك مقابلها مال كثير يكفيك لبقية حياتك. حصتك من المال في الحفظ والصون، وكلَّما احتجت شيئًا منه أبلغني لأبعثه لك. آمل أن تتفهَّم الأمر بشكل عقلاني صحيح وواقعي. إن ما فعلتُه هو لصالحك، وأنا على يقين من أنك ستشكرني في نهاية الأمر، وإن لم تصدِّقْني حول صحة إجراء إبعادك، هذا هو رقم هاتف رامون المحامي، يمكنك الاتصال به وسيشرح لك كل شيء، كما أن هذا هو رقم هاتف بيتي، فيما لو أردت الاتصال بي في أي وقت ولأي شأن، عدا رقم هاتف المطعم. استمتع وعِشْ حياتك يا فنان، وأنا سَنَدك»، ثم يختمها بملاحظة هامشية «يبلغونك أجمل وأحرَّ التحيات، الممثلة الأفغانية والوزير وزوجته، وهم سعداء مع أبنائهم وممتنُّون لك مدى الحياة»... شعرت بأن صدى ضحكته يتردَّد في ختام كلماته، وكان إلى جانب ورقة الرسالة ظرف آخر، لونه فضي وورقه سميك، كأنه مطليٌّ بمعدن لامع أو بفضة حقيقية. فتحته، فوجدت فيه ستة

آلاف دولار، أما الرسالة الصغيرة الأخرى فكانت من كوثر المغربية. أغلب كلماتها دينية، تبدأ باسم الله وتنتهي بذِكره، وفي متنها أدعية لي بالخير وتوصيات بأن أذكُر الله كثيرًا كي يَذكرني وأن أنتبه إلى صحتي ونفسي، ومع ورقة الرسالة، قِلادة فضِّيَّة صغيرة وجميلة، سلسلة ناعمة تنتهي بقرص على شكل قلب، ومحفور عليه آية الكُرسي، وتوصيني بحمل هذه القلادة في رقبتي دائمًا؛ كي يحميني الله من كل شَرٍّ، أما الرسالة الأكبر حجمًا، فكانت مُشترَكة من دوشكا وإيبا، وفاجأني فيها كتاب بالعربية، نسخة قديمة من الترجمة العربية لمسرحية هاملت، من الطبعة ذاتها التي اقتنيناها أنا وزهراء من شارع المتنبي في بغداد. قالتا بأنهما عثرتا على هذا الكتاب صدفة، عند بائع كتب قديمة في شارع «لندن». قال لنا بأنه كتاب باللغة العربية ولا يعرف محتواه، لكن صورة شكسبير على غلافه تدلُّ على أن له علاقة بالمسرح، وتقولان في الرسالة إنهما بشوق إليَّ، وأنهما بخير وسعادة مع طفليهما، وأكملتا التخطيط لتأسيس دار نشر وترجمة خاصة بهما، وسيتمُّ افتتاحها بعد ثمانية أشهر تقريبًا، وتَأَمْلان أن أكون في برشلونة لأشارك في حفل الافتتاح، كما تؤكِّدان لي بأنهما ما زالتا عند اقتراحهما عليَّ، أن أكتب مسرحيات أو كُتبًا عن المسرح العربي والعراقي، وحين قلَّبت أوراق الكتاب وجدتُ في وسطه صورة لطفلين نظيفين وجميلين يلعبان معًا وسط بياض السرير ذاته الذي مارسنا الحب عليه نحن الثلاثة. سريرهما الواسع، الأبيض، النظيف، المُعطَّر، الذي يصعب نسيانه... ها هي البذور التي زرعناها فيه قد أنبَتَت على سطحه الناعم كائنين حيَّين... كان أحدهما يشبه دوشكا والآخر يشبهني أكثر.

- 35 -

بقيتُ ليومين شارد الذهن، تائهًا، وأعيد قراءة الرسائل الثلاث مرات ومرات، لكن التفكير الأشد، كان مُنصبًّا على ما فعله منهل بي، وعلى ما يجب عليَّ فعله حياله. فكرت أن أذهب إلى دائرة البريد، أتَّصل به

هاتفيًّا وأصب كل غضبي في مسامعه شتائِمَ وسُبابًا، لكنني تراجعت عن الفكرة؛ لأنني كنت كارهًا لسماع صوته وضحكاته المسمومة، ثم إن الأمر واقع واضح، لن يغيِّر منه الكلام شيئًا، وحين حدَّثتُ هاني عن الأمر، قال في البداية شاتمًا منهل: «يا ابن الذينَ.. الواطئ، الوسِخ»، إلا أنه بعدها، راح يفكر معي أو لي، بشكل آخر، ناظرًا إلى الأمر من جانبه الإيجابي، كما قال، بل ودعَّمه بآية قرآنية، «*عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ*»، وراح يقترح عليَّ البقاء للعيش هنا. نبني لك بيتًا جوار بيتي، ونفتح مطعمًا ومقهى ودكانًا في مبنى جديد وكبير بجانب بيتينا، وتتزوج وتستقر وتعيش حياتك بسلام. لم أرُدَّ على اقتراحاته؛ فما زلتُ تحت تأثير هذا الحدث غير المتوقَّع، كما لم أكن على يقين ممَّا أريده بالضبط، إضافة إلى إدراكي لكوني مُجبَرًا على حال الفِرار عشرة أعوام، يُشعِرني بأنني سجين، وإن كنتُ في الحقيقة حرًّا طليقًا.

مارينا من جهتها، كانت تحثُّني على قبول اقتراحها، وأن أصحبها إلى مديين، أشاركها بمشروعها ونؤسِّس لحياتنا من جديد. كانت تقول: «أنا وأنت ضحاياه، وعلى الضحايا أن تتكاتف فيما بينها». ولكي تخرج وتُخرجني معها من حالة الغضب والقلق والتفكير التي كنا فيها، ونبدأ بحياة جديدة؛ اصطحبتني معها ليلة السبت إلى مرقصها المفضَّل، وهناك نسينا فعلًا كل شيء لساعات طويلة وسط الدخان والشراب وحُمَّى الرقص والقهقهات والمغازلات، وعَرَفَت من بقية صديقاتها أن بالوما -صديقتها منذ الطفولة- على وشك وضع طفلة مني، فزادها ذلك هياجًا وشربًا ورقصًا، بدت وكأنها في ذروة فرحها، إلا أن الأمر تبيَّن بأنه العكس، فحين عدنا إلى البيت مترنِّحين يسند أحدنا الآخر وصعدنا السلم بالطريقة ذاتها، التي كنا نصعده بها، هي أمامي وأنا ملتصق بها من الخلف، أسندها وأدفعها، قابضًا على نهديها أحيانًا، ارتمت منكفئة على سريرها، حال وصولها إليه، وانفجرت ببكاء مرير.. فجلستُ قربها، أُمسِّد كتفيها المهتزَّين كي أُهدِّئها، أمرِّر كفي على رأسها وظهرها، ثم

تمدَّدت جوارها ملتصقًا بها ورأسي قرب رأسها، أسألها ما بها، فأجابت ساخطة وسط نحيبها دون أن ترفع وجهها «الخنزير القذر دمَّر حياتي، دمَّرني. إنه لا يستحق ذَرَّةً واحدة من الحب الذي أحببته له، أنا غبية، أنا حمارة». تُناوِب بين نوبات بكائها وبين بوحها، وأنا أواصل المسح عليها وضمَّها برفق مهدِّئًا. «النذل، الخنزير، هجرتُ وطني من أجله، غامرتُ بحياتي من أجله ثم يرميني هكذا بكل بساطة. لقد خرَّب حياتي وبَدَّدَ عمري... ها هي بالوما ستصبح أُمًّا، وحتى الخرساء الجاهلة سيتلالي، مُربِّية الدجاج التي لم تغادر بيتها أبدًا، ها هي سعيدة، أُمٌّ لطفلين... وأنا التي كنتُ أعتقد بأنني أذكى وأجمل وأجرأ منهن، ها أنا أنتهي كما كنت. لم أحقِّق شيئًا، ووحيدة بلا عائلة».

كانت توشك على الاختناق ببكائها، ووجهها مدفون في اللحاف. حزَّ في نفسي أساها على نفسها. منذ صغري لا أحب رؤية بكاء الآخرين، بحيث كنت أتخلَّى عن ألعابي، وأمنحها لهم كي يتوقَّفوا عن البكاء. قلبتها على ظهرها، أمسح وجهها وشعرها وأقول لها بأنها ليست وحيدة، فها هو بيتها مليء بأناس يحبُّونها، ويعتبرون أنفسهم عائلتها، وأن عليها اعتبار الأعوام السابقة، مثلما عليَّ أن أعتبرها أنا أعوامَ سفرٍ وتجربة وأعوام عمل للحصول على المال، فهدأت قليلًا، استدرات نحوي دافنة رأسها في صدري، وأنا أضمُّها إليَّ، وأواصل مداعبة شَعرها وظَهرها، والكلام: «أنتِ أفضل حالًا مني يا مارينا. لديكِ مال أكثر مني، وبيت ووطن، ولستِ مطلوبة للقضاء بشيء. يمكنكِ الحركة والسفر بكل حرية، وأنتِ في أفضل سنوات عمركِ، صحة جيدة وخبرات في الحياة أكثر وأفضل من كل مجايلاتكِ من بنات البلدة...».

توقَّفَت عن البكاء، تحسَّن تنفُّسها، وراحت تداعب ظهري وشعري هي الأخرى، ثم رفعت وجهها إليَّ شاكرة، فطبعتُ قبلة على جبينها، ردَّتها عليها بقُبلة على شفتيَّ، بدأت قصيرة، ثم طالَت حتى تحوَّلت إلى قبلة اشتهاء، تلتها مداعبات متبادلة لأنحاء جسدينا، إلى أن انتهينا عاريين

متداخلين، ومن بعدها نائمين بعمق حتى ساعة متأخِّرة من الصباح، بدأناها بالمداعبات صامتين مسترخيين دافئين في السرير. ظهرها العاري ملتصق بصدري العاري، وكفي تعبث بصدرها اللدن، فيما وسطي يزداد التصاقًا بمؤخرتها العريضة، إلى أن سمعتُ تصاعد أنفاسها، وزادت تقلصات جسدها ودفعها لمؤخِّرتها أكثر إليَّ، فتداخلنا على هذا الوضع. أضمُّها بين ذراعيَّ بقوة أكبر، وهي تتلوَّى وتتأوَّه لذَّةً.

بعد تناولنا إفطارنا، الذي كان في وقت الغداء، خرجنا إلى مركز البلدة، تناولنا قهوة رائعة في أحد مقاهي الرصيف. قلت لها: «لقد صَدقَ من قال بأن القهوة الكولومبية هي أفضل قهوة في العالم»، فردَّت باعتزاز: «ونحن هنا، لدينا مَثَل يقول: مَن لم يتذوَّق قهوة ريوسورو فهو لا يعرفُ معنى الكنز». قمنا بجولة قصيرة، اشترينا فيها العديد من الهدايا للأطفال الرُضَّع. زرنا بيت صديقتها بالوما، وبعدها بيت الخرساء سيتلالي، التي وجدتها تفوح هذه المرة برائحة الحليب أكثر من رائحة الدجاج، ودسستُ أنا -سِرًّا- في كفِّ كلٍّ منهما عَشرة أوراق نقدية من فئة المائة دولار، ثم ذهبنا لتناول العشاء في مقهى هاني، وتمضية بقية السهرة معه.

- 36 -

أمضَت مارينا أربعين يومًا في البلدة، وبان واضحًا أنها استعادت قوة معنوياتها وحيويتها و«نفْسها»، كما تقول، وخلال هذه الفترة، جاءت بعُمَّال لإعادة ترميم البيت القديم، إصلاح وصبغ الأبواب والشبابيك والسياج وتشذيب الحديقة، وأعدَّت خطتها لمشروعها في مديين، بشكل أكثر تفصيلية وعملية، وكنا خلال ذلك بالكاد نفترق، حتى اعتقد الجميع بأننا سنكون زوجين، وهو ما سعَت مارينا لإقناعي به، وبالشكل الذي يرضيني؛ لكنني بيَّنت لها بوضوح بأنني لن أتزوَّج بأي شكل من الأشكال؛ لأنني لا أصلُح للزواج أو الارتباط كما تدل التجربة. أخاف من أي ارتباط، ولا أريد أن أخذل أحدًا ثانية، أو أن أُخيِّب ظنَّه أو حُلمه

بي، فقد خيَّبتُ ظنَّ وحلم أبي بي، وزوجتي زهراء، التي قالت هي وأهلها صراحة، بأنني زوج فاشل، أو لا أصلح لأن أكون زوجًا أصلًا، كما لم أكن ابنًا بارًّا بأمي، ولا أخًا راعيًا لأختي، وهذا ما أكَّده لي أبي، والتجربة أيضًا، كما أنني لم أكن أبًا بمستوى المسؤولية المفروضة في التعامل مع موت ابنتي «أميرة الزهراء»، بل إنني خيَّبت حتى أملي وحلمي بنفسي، ولم أُصبح مَسرحيًّا حقيقيًّا؛ لذا فأنا على الأقل، أعرِف نفسي من هذه الناحية، ولا أريد خداع أحد، ولو بوعدٍ كاذب، كما فعل مانويل معكِ.

كان أبي يقول لأُختي، بواسطة أُمِّي المؤمنة بقوله: «تزوَّجي، فالرجل ضمان للمرأة، ضمان وحماية لمستقبلكِ»، لكن أبي تخلَّى عن أمي، وابن خالي خذَل أختي، وزوجتي قالت ما قاله لها أهلها واقتنعت به، وهو أنني لستُ ضمانًا لها ولمستقبلها، كما لم أكن ضمانًا لابنتي القادمة توًّا إلى الحياة، ولا ضمان لها بعد موتها؛ لأنني كنتُ عاجزًا حتى عن توفير دفن عادي يليق بأي آدمي؛ لذا ترسَّخت في قناعاتي، في أعماق شعوري، أنني لستُ ضمانًا لامرأة ولا لابن، لستُ على ثقة أبدًا من أنني سأكون بمستوى مسؤولية أن أكون حبيبًا، أو زوجًا أو ابنًا أو أبًا.

صورة مرعبة في ذهني، أن تتزوَّج امرأة رجلًا لأعوام وتبني حياتها على أساس وجوده، ثم لا تجده عندما تكون في حاجة إليه، أو يغيب فجأة، أو تستيقظ ذات صباح فتجده ميتًا بجوارها؛ لذا ثمَّة أمنية في داخلي تدفعني لتفضيل، أو حتى الحرص على أن أموت وحدي. هكذا وجدت نفسي، أحرص على الفصل، الانفصال والابتعاد دائمًا عن أي تعلُّق، وتحديدًا عن نسائي وأطفالي؛ كي يعتادوا على غيابي، ويبنوا حياتهم آخذين بنظر الاعتبار عدم وجودي، وبهذا أجنِّبهم الخيبة والألم مبكِّرًا. أن أقوم أنا بتبنِّي الخيبة والألم اللذين يصاحبان العزلة والوحدة حتى النهاية.

لم أشرح لها كل ذلك بالتفصيل، كما أفكر وأشعر به، وكانت تواصل محاولاتها لإقناعي بالقول إن كل أمر وموقف وظرف وشخص مختلف

عن الآخر، لكنها شَكَرت صراحتي في النهاية، بعد أن تأكَّدت من رفضي التام لفكرة الزواج، أو حتى الارتباط، وفي الحقيقة كان هذا هو تفكيري وطبيعة شعوري. صار الأمر لديَّ مثل عُقدة نفسية، أو رُهاب/ فوبيا من أي ارتباط يجعل أحدًا يُعوِّل عليَّ ويتوقَّع مني التزامًا ومسؤوليات؛ لذا لم أرتبط حتى بصداقات حقيقية، باستثناء علاقتي مؤخَّرًا مع هاني، والتي هي أصلًا حُرَّة، وبلا أية التزامات أو أي شيء ينتظره أحدنا من الآخر.

منذ صغري، وعيتُ بأنني مختلف عن كل أبناء القرية وغريبًا؛ لأنني الوحيد الذي يحلم ويفكر بشيء لم يسبق وأن طرأ على بال أحد في القرية منذ تكوُّنها، وجيلًا بعد جيل، وهو أن أكون فنَّانًا. كنت ولا زلتُ أستغرب وأتساءل: لماذا أنا أحترمُ وأتفهَّم خيارات الجميع في حياتهم، فيما لا يفعلون هم ذلك معي! لماذا يريدون صياغة حياتي وِفق تصوُّراتهم ورغباتهم هم، وليس وِفق تصوراتي ورغباتي أنا! أُدرك الآن بأن سبب كل هذا الإرباك في تكوين نفسي هو أبي، فما كنتُ أفعل شيئًا، حتى وإن كان مُجرَّدَ تركيب لعبة أطفال تافهة، إلا وتَدخَّل قائلًا لي بأن الأمر ليس هكذا، وإنما هو هكذا. يفكِّك ما ركَّبته أنا ثم يُرَكِّبها هو ولا يدعني أقوم بذلك بنفسي؛ ممَّا جعل الثقة بنفسي مهزوزة حيال كل ما أفعله، ولطالما جعلني أشك بجدوى وجود الأب في حياة الأبناء، ثم جاءت بعده زهراء، التي أصابتني بعدوى الثقة بالنفس، لكنها سرعان ما محتها بصرخة واحدة، أوجدت لذاتي دَربًا ملائمًا للتآلُف مع بعض الآخرين، والإقدام، أو الأصح، الموافقة على التعامل معهم بقُرب، ألا وهم أؤلئك الذين يتفهَّمونني ويحترمون إشكاليَّاتي ومخاوفي، ويُظهِرون لي مُبكِّرًا -ودائمًا- بأنهم لا ينتظرون مني التزامًا بشيء ما؛ لذا أقترب منهم وأُحبُّهم، ومن هؤلاء أختي انضباط وأمي وهاني، وكل النساء اللاتي عرفتهم وعاشرتهن بعد زهراء. كنت واضحًا معهن منذ البداية ولم أخدَع أحدًا... أشعُر بأن الانتظار هو نوع من أنواع الألم؛ لذا لا أُريد لأحد أن ينتظر مني شيئًا كي لا يتألم، حتى أنا نفسي صرتُ لا أنتظر شيئًا

بعينه من أحد، أو من نفسي أو من الحياة. كل ذلك تجنُّبًا لوجع لا داعي له. شعوري بأن المقابل لا ينتظر مني شيئًا، يمنحني الراحة والحرية... وهكذا، فربما سأُقدِّم له لاحقًا أكثر ممَّا يتوقَّع، وقد أقترب منه أسرع ممَّا ينتظر. أعتقد أحيانًا، بأنني في الأصل شخص عاطفي، لكنني أخاف من إظهار التعامل بعاطفيتي. كنت أحب أبي وأخافه. هذا ما أفكر به عادة عن نفسي ومع نفسي، ولا أبوح به للآخرين على هذا النحو، كما لا أُريد من الذين أحبهم أن يطالبوني بشرح وتبرير كل شيء.

أتحدَّثُ أحيانًا مع هاني في هذه الهواجس، وهو يُجيد الإصغاء، ويعرف كيف يرد ومتى أو كيف لا يرد حتى. إنه يعرض أمامي ما يفكر به، ولا يدفعه إليَّ دفعًا، وحين أخبرته باقتراح مارينا للارتباط بي أو مشاركتها في مشروعها والعيش في مديين، نبَّهني إلى نقطة كنت غافلًا عنها، وهي أنه يخشى أن يتمَّ القبض عليَّ هناك وتسليمي إلى السلطات الإسبانية، إذا ما كان ثمة اتفاق بين الدوليتن بشأن هذه المسائل، بينما هنا، في بلدة ريوسورو، فحتى أخطر المطلوبين للقضاء الكولومبي نفسه، لا يتم أو لا يمكن القبض عليهم، أما عن فكرة الزواج، فقال إن أمه كانت تنصحه دائمًا بعدم التدخُّل بين البَصَلة وقِشرتها، وأثبتت له التجارب صحة هذه النصيحة؛ لأن العلاقات بين الزوج وزوجته أو الأب وابنه أو الحبيب وحبيبته، هي علاقات تنطوي على شبكة معقَّدة من العواطف والأفكار والذكريات والتفاصيل والأحاسيس التي من الاستحالة أن يعرفها سوى هذين الطرفين؛ لذا مهما اعتقد أحدنا بأنه يفهم جيِّدًا خفايا علاقة بين اثنين، وأنه يستطيع التدخُّل والحكم بإنصاف فيها، فهو واهِم، وعليه، فالأسلم هو إبداء الرأي المحايد والمحدَّد بشأن ما يُقال لك أو ما تراه فحسب، دون الخوض والغرق بتأويلات ما وراءه.

أقامت مارينا سهرة عائلية في البيت قبل سفرها. جمعت فيها بعض أقاربها والأصدقاء، وأبلغتنا بأنها ستأتي إلى زيارتنا بين الحين والآخر، وبأن آمارو سيكون حلقة الوصل بينها وبيننا، فهو سيبقى على تواصل

دائم معها عبر الهاتف أو المسافرين وسائقي السيارات، أو بسفره هو إذا لزم الأمر، وبأنها ستبلغه بكل أخبارها وستعرف منه أخبارنا، وأثناء ختمنا لتلك الليلة معًا في فراشها، أكَّدت عليَّ مرَّةً أخرى أن بابها سيبقى مفتوحًا لي متى أشاء، فيما لو غيَّرتُ رأيي وأردتُ العمل والعيش معها في مديين، كما أن بيتها هنا هو بيتي، ولي أن أقيم فيه أو أفعل ما أشاء. قالت بصدق: أنتَ إنسان طيب ونبيل يا أمير.

أسعَدَني قولها؛ فعانقتها بامتنان...

- 37 -

أمضيت في ريوسورو وضواحيها من القرى القريبة ثمانية أعوام، وأنجبتُ اثني عشر طفلًا، إلى أن ظهَرت إيراسيما في حياتي، فشغفتني عشقًا، بل استعبدت قلبي وغيَّرت حياتي وعلاقتي بالنساء إلى الأبد.

كانت تلك الأعوام عمرًا كاملًا بالنسبة لي، ولو أنها كانت كل حياتي لكَفتني. مفعمة بالصحة والراحة والسلام الروحي والمحبة والمتعة والحرية والنسيان، كما جعلتني أتعرَّف على الطبيعة لأول مرة على النحو القريب، الحميم، المتداخل وأحببتها، بعد أن كنت منذ صغري في القرية لا أحب الزراعة والحقول والنباتات والحيوانات، ولا أهتم بمعرفة أي شيء عنها ولا وجود لها في نفسي، ولم أكترث يومًا بمعرفة أسمائها. بينما، وسط هذا العالم الطبيعي كله: الغابات، الجبال، الوديان الينابيع، الأحراش، الفراشات، الفواكه، الطيور، الزواحف، الخضراوات، الأزهار وشتى أنواع الحيوانات والهواء النقي، المناخ المعتدل، المطر الدافئ، الغيوم المتحركة، متغيرة الأشكال والألوان... حتى الهواء، صرت أستنشقه بشكل آخر... أصبحتُ أشعر بأنني جزء من الطبيعة، وأعرف الكثير من تفاصيلها وأسرارها، أكاد أتحدث لُغاتها بكل حواسي، وقد حاورتها طويلًا أثناء رحلاتي المتكررة إلى القرى القريبة التي عرَّفني عليها هاني، بل ووسعت من دائرة رحلاتي إلى قرى أخرى لم يزرها

هو من قبل، وكنت أحدثه عنها كلَّما عدت، وأعطيته نصيبه من تجارتنا المشتركة التي أصبحتُ أجيد القيام بها وحدي مستخدمًا بغله وعربته، حاملًا معي أنواعًا من البهارات والعطور والأدوية والأغذية، ورحتُ أُضيف إليها بعض الثياب والأدوات المنزلية، إلى جانب أحذية الأطفال التي صرت أصنع المزيد منها، وإن كنت أُهدي أغلبها لأبنائي وأطفال آخرين أراهم حفاة في طريقي أو بعد العروض المسرحية التهريجية التي أُمتِّعهم بها، ويشاركني إياها بعضهم... كان الجميع ينتظر قدومي، صغارًا وكبارًا، وزاد عدد الذين يُوصونني كي أجلب لهم حاجيات معي.

الجميع يناديني «الأمير العربي»، منذ أن عرَّفهم هاني عليَّ، والذي لم يرافقني في رحلات هذه الأعوام إلا مرتين... وفي قرية أهل زوجته، كرَّر عليَّ اقتراح الزواج من أخت زوجته، وكرَّرتُ عليه الرفض أيضًا، فعدا إلغائي لفكرة الزواج أساسًا، فإن أخت زوجته تشبه زوجته تمامًا، كأنها نسخة ثانية منها؛ لذا كان شعوري نحوها أخويًّا بحتًا، ولأنها كانت تزيد من احتفائها وعنايتها بي ومرافقتي طوال تواجدي في قريتهم واحتضاني، بل والاحتكاك بي أحيانًا؛ فقد تعمَّدت التقليل من زيارتي لقريتهم، أو الاكتفاء بالمرور بها سريعًا دون المبيت، باستثناء مرة واحدة، بِتُّ في بيتهم أربعة ليالي اضطرارًا بعد أن لدغتني إحدى الزواحف في ساقي، فتعاونت هي ووالدتها العجوز العارفة بالأعشاب والأدوية الطبيعية على معالجتي، إلى أن استطعت النهوض، وقالتا لي إن هذه اللدغة والأدوية التي استخدمتاها سيجعلني أكثر مناعة من قرصات الحشرات ولدغات العقارب والأفاعي وعضّات العضايا.. وغيرها.

رحتُ أَبِيتُ أكثر في قرية «الكرش» المجاورة لقريتهما، لا يفصل بينهما إلا وادٍ، فهناك كانت مُضيِّفتي آرارا السوداء، عذبة الابتسامة والروح والصوت، وأنجبَت مني توأمًا بالغ الجمال، ووارثًا منها أجمل ما فيها: ابتسامتها. ذكر وأنثى بلون القمح، بل بلون القهوة بالحليب. هكذا قلت لها حين رأيتهما أول مرة بعد ولادتهما. ضحكَت وسألتني

كيف تُقال «قهوة وحليب» بلغتي، فأعجبها نطق الكلمتين وأصرَّت على تسميتهما كذلك، حين تذهب لتسجيلهما بعد عام أو عندما يمر موظف التسجيل بالقرى. البنت «كاهوا» (قهوة)، والوَلَد «هاليب» (حليب). وبالطبع تخيَّلتُ كيف ستتم مناداتهما مستقبلًا، حيث لا تُنطَق الهاء (كاوا وآليب). كانا يبتسمان طوال الوقت... وقد شغفا قلب الأم حبًا وقلوب جيرانها وأهالي القرية، وكذلك قلبي، وإذا كان لي أن أُصنِّف مراتب الذين أحببتهم في هذه البقعة المعزولة الساحرة في هذا العالم القائم بذاته، فالأول هاني، ومن بعده طفلاي الجميلان: كاهوا وهاليب. أمضي في قريتهم أسبوعًا كاملًا في كل رحلة من رحلاتي تلك، إلى أن ظهَرَت «إيراسيما»، فاجتاحت الجميع عند اجتياحها لقلبي، الذي ظننتُ بأنه قد أصبح مُحصَّنًا ومُغلقًا تمامًا أمام العشق بعد حُبي لزهراء.

ظهرت لي جزمتها العسكرية السوداء الأنيقة اللامعة أولًا، ثم كتاب مفتوح، محمولاً بكف ذراع رفيع عارٍ، قليلًا من جنبها، وتكويرة المؤخرة الضاغطة على أسفل الشبكة، بشرتها بلون الخبز المحمَّص، بلون التراب، بلون الخشب، بلون القمح، بلون القهوة بالحليب... لون طفليَّ التوأم. رأيتها حين جئت ذات مساء إلى مقهى هاني، ولسبب لا أتذكره، دخلتُ إلى البيت، فرأيت ذلك في الحديقة، في إحدى الشِباك المعلَّقة بين شجرتين، الشِباك التي تسمّى «آماكا» أُرجوحة أو سرير معلّق للاسترخاء، والنوم ليلًا أو نهارًا في الأيام الحارَّة. في الشَبكة ذاتها، التي طالما نمتُ فيها، كلما تأخَّرتُ في السَّهَر عند هاني. رفَّ قلبي لسبب أجهله عند رؤيتي للجزمة والذراع والكتاب، فتراجعتُ لخطوات، والتفَتُّ إلى الخلف، فرأيت زوجة هاني في المطبخ تنظر إليَّ مبتسمة، ذهبت إليها وهمست: «مَن»؟ قالت: «الرفيقة إيراسيما»، ووجدت نفسي أكرِّر باستغراب: «الرفيقة إيراسيما؟!»، فأضافت: «أُختي»، فكرَّرتُ باستغراب أشد: «أُختكِ؟!»، فأدركَت سبب دهشتي، وأنا أعرف أختها ممتلئة البدن مثلها، وبيضاء قصيرة، قالت: «لا، ليست أختي التي عرفتها

وتعيش مع أمي، هذه الأخرى.. هذه أختي من أبي فقط، وتعيش في الغابات خلف الجبال، مع المحاربين، وُلِدَت هناك وتعيش هناك، ولا تجيء إلى هنا إلَّا في مرات نادرة وسريعة، اذهب وسَلِّمْ عليها، وتعرَّف عليها بنفسك، جاءت هذا الصباح وستذهب هذا المساء».

أقتربتُ بهدوء من الشبكة المعلقة، وقلتُ بصوت خفيض للتنبيه «مرحبًا»، فسمعتها ترد «مرحبًا» دون أن تتحرك؛ لذا تقدَّمتُ بحذر، ووقفت جوار جذع الشجرة القريب من قدميها، أمامها تمامًا، وحين أزاحت الكتاب من أمام وجهها، ارتعَد قلبي، انخلع من مكانه وسقط في هُوَّة عميقة، فلم أشهد في حياتي، بل ولم يكن ليخطر على خيالي أبدًا، أن ثمة عينين بهذه الخُضرة الحادَّة في الكون، ولا حتى بين عيون القطط ذاتها. عينان واسعتان في وجه صغير، رمشان وحاجبان كثَّان سوداوان وعينان خضراوان. اخضرار فاقع يُشِعُّ ببريق أخَّاذ، كأشعة تخترق ما أمامها، أو هذا ما شعرتُ به، بريق عينيها النمريُّ الأخضر اخترق صدري. قطَع حبال قلبي وأسقَطَه. وجه حنطي جدًّا، كرغيف ساخن، والنَّمَش موزَّع فيه بشكل رائع، كأنَّ فنانًا بارعًا قد وزَّعه بعنايةٍ نقطةً فنقطة، نَمْشَةً فنمشة، سِمسمة فسِمسمة على هذا الرغيف. أنف صغير، شفتان مثل نصف تينة طازجة، وشَعر أسود قصير، كشَعر زهراء تمامًا، بل وبالقصَّة الولّادِيَّة ذاتها.

رفعَت جذعها قليلًا، معتدلة في جلستها، دون أن تحوِّل عينيها عن عينيَّ... لا أدري كم من الوقت بقينا على هذا النحو، صامتين، مثل حيوانين وحشيَّين يلتقيان في الغابة فجأة، فيبقيان ينظران في عيون بعضهما البعض جامدين. لحظات تشبه اكتشاف العالم لأول مرة. لحظات قد لا تحدث للإنسان إلا مرة واحدة في حياته، وقد لا تحدث أبدًا، تتحوَّل فيها كل حواس المرء، بل كل كيانه ولغته في عينيه، في نظراته. لم أصحُ منها، إلا على سؤال واضح النطق، وبصوت أنثوي واثق وعذب، يشبه طريقة نطق زهراء: «أأنتَ الأمير العربي؟».

كان ريقي ناشفًا، فاكتفيت بهز رأسي، أن نَعم.

- أنت عراقي، أليس كذلك؟

فهززت رأسي ثانية بالموافقة، ويبدو أن ريقها قد كان جافًّا هو الآخر. ذلك ما خمَّنتُه من نبرتها، ولأنها مدَّت كفها إلى جانبها وتناولت زمزمية ماء عسكرية. كان كل لبسها عسكريًّا. دفعَتها نحوي فأشرتُ إليها برأسي وعينيَّ، أن تشرب هي أولًا، ففعلَت ثم قدَّمَتها لي وشربتُ.

- هل كنتَ عسكريًّا ذات مرة؟
- نعم.
- هل قتلتَ أحدًا؟
- لا... وأنتِ؟
- لا لحد الآن، ولكنني جاهزة لفعل ذلك في أية لحظة... وأنتَ؟
- أنا ماذا؟
- هل أنتَ مستعد للقتل؟
- لا.
- ولا حتى من أجل العراق؟
- ولا حتى من أجل الله ذاته.
- ولا حتى من أجل امرأة؟

فاجأني السؤال، ففكَّرتُ به، وتذكَّرت كيف أني واجهتُ أبي لأول وآخر مرة، وكنت على استعداد لحظتها لقتله دفاعًا عن أمي وأختي انضباط، فقلت: «ربما».

قالت: «هذا عظيم».

ثم تحرَّكت في جلستها، وبدا أنها تَهُمُّ بالنزول من الشبكة، وهي تقول: «ما رأيكَ أن تدعوني إلى فنجان قهوة؟».

- تفضَّلي.
- لا، هنا.

فانطَلقْتُ فورًا إلى المطبخ.

أرى كل شيء أخضرَ، فاقع الخُضْرَةِ كلون عينيها، بما في ذلك القهوة التي كنت أُعدُّها لها ساهيًا غائبًا عمَّا حولي، إلى أن انتبهتُ على صوت هاني وهو يصيح بي من أقصى المقهى بالعربية، ضاحكًا: «احذَر من هذه الطِفلة، إنها مجنونة».

لم أفهم قصده، ولم أهتم. عدتُ إليها حاملًا الفنجانين وجلست قبالتها على طاولة الحديقة. شكرتني ثم قالت وهي تضع ساقًا على ساق: «لدينا في القيادة كامارادا عراقي منذ أعوام، لم أره، ولكنني أسمع عنه، إن شئت يمكنني طلب مقابلته ونراه معًا».

- لا، لا تهمُّني معرفته.

- هل أنتَ هارب هنا من قضية ما؟

- لا، إنما هو قدري الذي ساقني إلى هنا. فيما مضى، كنتُ أعتقد بأنه لا وجود لشيء اسمه القدر أو المصير، وإنما نحن الذين نخلق مصائرنا، لكن مع الوقت، صرتُ أفكِّر بأننا نُوهِم أنفسنا بأننا نحن الذين نختار مصائرنا فيما الحقيقة هي أننا لا نملك إلا هامشًا صغيرًا، نتصرَّف فيه وفق الظرف التي نجد أنفسنا فيها.

- لا أتفق معك، فأنا ممَّن يؤمنون بقوة الإرادة في الاختيار والتغيير.

- ذلك لأنكِ ما زلتِ شابَّةً صغيرة. مع الوقت ستُجبركِ حقائق الواقع على تغيير رؤيتك. ستهزمكِ تقلُّبات الحياة.

- لا أحب الهزيمة. أُفضِّل الموت على أن أُهزم. نكون أو لا نكون، تلك هي المسألة.

هزَّني ذِكرها لعبارة هاملت. فجأة، شعرتُ وكأنني مع زهراء. بينهما شبه كبير بأسلوب الحديث والحركات والثقة بالنفس وقَصَّة الشَّعر.

- هل قرأتِ هاملت؟

- طبعًا، أنا قارئة نَهِمَة، مثل قائدنا جيفارا، وجُلُّ ما أفعله هو التدريب البدني العسكري والقراءة. أنا مسؤولة التثقيف الشبابي.

- ما الذي تسعين لتحقيقه؟

- العدالة، الحرية، وإنقاذ الفقراء من الجشعين.

- أقصد على الصعيد الشخصي.

- لا فرق لديَّ بين الشخصي والجماعي، وأنتَ؟

- أن أعيش بسلام مع نفسي ومع الآخرين.

- هذه أنانية.

- ولكن لو طبَّقها كل الناس؛ لساد السلام كل العالم. أما أنتم فتضربون بعضه ببعض لتفرضوا رؤيتكم، وأنا أعتقد بأن سبب كل مآسي العالم هو سعي البعض فَرض رؤيتهم على البعض الآخر؛ لذا فمبدئي ألّا أفرض شيئًا على أحد.

فجأة، قاطعنا صوت هاني وهو يدنو: «جئتُ لإنقاذ أخي الأمير العربي من براثن أُختي الأمازونية المجنونة».

فضحكنا مجاملة، وقالت له: «ألا ترى بأنه يشبه أبي، وفيه شَبه من جيفارا أيضًا: شكل الرأس، الشاربين، اللحية.. وهذا الشَعر الطويل؟».

قال: «هذه أمور ظاهرية، أمَّا في العمق فهو يشبهني».

ضحكنا، وجاءتنا بعدها زوجة هاني بوجبة طعام من شرائح لحم البقر ومقليات البطاطا والبيض والباذنجان والفلفل.

عرَفتُ بأنها لا تَشرب الكحول ولا تُدخِّن. كنت أسترِق النظر إلى نهديها الصغيرين، يوحيان بأنهما قويين كحجرين، وكلما نظرت إلى عينيها الخضراوين أجدها تنظر في عينيَّ بحِدَّة، فأُغَصُّ في لقمتي، وأود لو آخذها من خصرها النحيل وأضمُّها. لا أدري لماذا كنت أشعُر بالارتباك على الرغم ممَّا أتظاهر به من هدوء، ومشاركتهم أحاديثهم العامة ومزاحهم. أُداري بصعوبة هيمنة حضورها على دواخلي، ولم

أتمالك نفسي، فاحتضنتها بقوة عند الوداع، حين جاء مرافقاها الشابان على حصانيهما، كانا يرتديان الزي العسكري مثلها... بقيتُ أراقبها طويلًا وهي تغادر ممتطية حصانها، وتلوِّح لنا، إلى أن اختفت عن النظر.

أخبرني هاني بعدها أن إيراسيما قد وُلِدَتْ هناك في الأحراش من أم أمازونية محارِبة، تعرَّف عليها، والد زوجته، حين انضمَّ إلى صفوف الثوار من أتباع جيفارا، أنجباها ثم قُتِلا حين كان عمرها عشرة أعوام، وهي الآن تتصدَّر قيادة الشباب، وتدعو لما تسمِّيه «تصحيح الحركة النضالية»، تجيء بين الحين والآخر إلى البلدة في مهمات نجهل تفاصيلها، تتعلَّق بكسب المزيد من الشباب، نقل رسائل معينة، استطلاع... وما إلى ذلك، وفي كل مرة تجيء بها إلى هنا تقوم بزيارتنا. إنها بنت طيبة وأصيلة، ومسكينة أيضًا؛ لأنها لا تعرف إلا العالم الذي ولِدت فيه، وبالطريقة التي عرَّفوها بها عليه. الكل يحبها، وأنا أيضًا، ولكنني أحرص ألَّا تؤثِّر على أفكار أولادي مستقبلًا، فإذا كانوا قد غسلوا دماغها، فلا أريدها أن تغسل أدمغة أولادي. بالنسبة لي هي بريئة ونبيلة، لكنها واهِمة لا ذنب لها في وهمها؛ لأنها فتحت عينيها فوجدت مَن حولها يتحدثون عن النضال وثُوَّار حرب العصابات، وبالنسبة لي فإن النضال والثوار قد انتهوا منذ زمن، ولم يبق إلا حرب وعصابات، وحين أحدثها بهذا الأمر، تقول إنها تدركه، لكن مرض بعض الجسد لا يعني التخلي عن الجسد كاملًا، وإنما معالجته، وأنا لا أطيق صبرًا على النقاشات الطويلة والجدال معها؛ لأنها عنيدة؛ لذا تعلَّمت منذ البداية أن أتجنَّب الخوض في هذه الأحاديث وأكتفي بالشخصي العائلي.

أما زوجة هاني، أختها من أبيها، فقالت لي عنها بأنها في الأصل بنت رقيقة وحنونة ورومانسية مهما بدت صلبة وقوية من الخارج؛ ذلك لأن الخارج كان قاسيًا عليها؛ ولأنها نشأت طفلة يتيمة بين أغراب؛ لذا فحتى الآن ليس لها خطيب ولم تُجرِّب الحُب، وأنا متأكدة بأنها لو جرَّبته ستتغيَّر. كل ما في الأمر أنها نشأت في غابة وتتخيَّل العالم كله على أنه غابة ويحكمه نظام الغاب.

لم أستطع التخلُّص من هيمنة التفكير فيها طوال الأيام التالية، وعند زياراتي لهاني أنتهز أية حجة لمعرفة المزيد عنها، ومن ذلك أن اسمها «إيراسيما» معناه (خُلاصَة العَسَل) بلهجة التوبي، كما أخبرتني زوجة هاني. صرت أتقلَّب في السرير كثيرًا قبل النوم مستعيدًا لون عينيها الأخضر، نظراتها الثاقبة الناطقة، حَجَر نهديها، أو نهديها الحَجَر، نحافة خصرها، نَمَش وجهها، نبرة صوتها ورنين ضحكتها، وحين أسترسل بالخيال في معانقتها ينتابني شعور بالقوة والشباب والغبطة، بل وحتى السعادة تقريبًا؛ لأنني أجد نفسي أستحضر العيش في أسعد لحظات حياتي مع زهراء، وخاصة أيام العسل في شقة الدكتور ياسين، فأتنهَّد وأنتبه لنفسي أقول بصوت مسموع: «آآه يا خلاصة العسل، آه يا إيراسيما».

- 39 -

مرَّ أكثر من شهر على لقائي بإيراسيما، ومع ذلك لم أكف عن التفكير بها لحظة واحدة؛ لذا حين جاء موعد رحلتي للتجوال في القرى، فكَّرت أنها فرصة لنسيانها. الانشغال بإعداد البضائع واللقاء بمعارفي هناك، والاندماج بسماع أخبارهم وحكاياتهم، ورؤية أطفالي، وبشكل خاص «كاهوا» و«هاليب» اللذين اشتقت إليهما وإلى ابتساماتهما وكَركَراتهما؛ لكنني وحال خروجي من بلدة ريوسورو، عندما أصبحتُ وحيدًا في درب حصى ضيق بين الأشجار وقمم الجبال. وجدت نفسي أغرق في التفكير بها أكثر، أخاطبها بصوت مسموع، بل وأُحَدِّث البغل عنها، أسأله إن كان قد رأى حتى في عالم الحيوانات عينين بخضرة عينيها. ثم وجدت نفسي أطوِّر فكرة مسرحية جديدة لأطفال القرى، بطلتها فارسة جميلة نبيلة، صغيرة وشجاعة، تحارب من أجل إحقاق الحق والعدالة، والدفاع عن الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام. فارسة تشبه «دون كيخوته»، وتساعد الأطفال على تحقيق أحلامهم. سأصنعها من أجمل الدمى التي في حوزتي، وأقوم أنا بدور التابع لها، ووجدت نفسي وأنا راكب العربة،

أُسارع بإخراج كيس الدمى وأشرع بتفكيك وتركيب أطرافها لأصنع أكبر وأجمل دمية لفارسة بعينين خضراوين وترتدي الأخضر الزيتوني، وفي الوقت نفسه أواصل الحديث المسرحي بصوت عالٍ، مستجيبًا بسرعة لتبلور الشخصية والمسرحية وأحداثها في ذهني، شاعرًا بلذة لحظات الإلهام الإبداعي التي أعرفها حين تنتابني وتنسيني نفسي والعالم كله من حولي؛ لأنني أخلقُ عالمًا مجاورًا أجد نفسي عائشًا فيه؛ لذا لم أصدِّق أنها كانت إيراسيما الحقيقية. هذه التي رأيتها تنزل مسرعة من سفح الجبل، ممتطية حصانها ومتجهة نحوي بسرعة. ظننت بأنها من صنع خيالي حتى حين دنَت مني وأُبصر تلويحها، أسمع وقع الحوافر على الحصى ومناداتها لي: «هيييبي، أيها الأمير العربي».

بقيت أنظر إليها دون ردٍّ أو حركة، تاركًا لخيالي الحرية في أن يتصوَّر ما الذي ستفعله، لقد اعتدت على وجودها في خيالي مذ عرفتها؛ لذا لم أصدِّق بأنها إيراسيما الحقيقية، إلى أن وصلتني وترجَّلَت عن حصانها، فنزلتُ من عربتي... وتعانقنا، وكنت أقول لها: «اقرصيني، اقرصيني كي أُصدِّق بأنك حقيقية»، فضحكَت وعَضَّتني بقوة من كتفي، حتى صرختُ، فازداد ضحكها وهي تسأل: «ها، تأكَّدتَ الآن بأنني حقيقية؟».

- لا، إلا بعد أن أعضَّكِ أنا أيضًا وأسمع صرختكِ. يبدو أن الحقيقة مرتبطة بالألم.

فقدَّمَت لي ذراعها بعد أن رفعت كُمَّها حتى الكتف، وشعرتُ برغبة بالتهامه وليس عضِّه وحسب، بلونه القمحي المُنَمَّش الشهي هذا، لكنني اكتفيت بطبع قبلة خفيفة عليه وسألتها: ماذا تفعلين هنا؟

قهقهَت بصوت عالٍ وحُر، ثم قالت: «بل أنت الذي ماذا تفعل هنا؟ أنا في أرضي وبلدي وعالمي».

- أنا رحَّالة، بائع وممثل، أو مُهرِّج مُتجوِّل.
- أعرف... أعرف، أكاد أعرف كل شيء عنك.

- وأنا كذلك.

ضحكنا متقابلين، عيوننا تنظر في بعضها بثبات وتتحدَّث، تمامًا كتلك النظرات التي كبَّلتنا عندما رأينا بعضنا لأول مرة. لا أدرى كم طالت تلك اللحظات الصامتة الصاخبة الساحرة الفريدة، ووجدتُ نفسي أعترف لها: «لم أَكُفَّ عن التفكير بكِ لحظة واحدة».

قالت: «أعرف، ولا أنا كففتُ عن التفكير بكَ».

- أستطيع القول لك بكل صدق إنني.. إنني...

وحين وجدَتني أطيل الصمت والارتباك، أكملت هي بثقتها المعهودة بنفسها عند التحاور: «أنَّكَ اشتقتَ إليَّ؟».

- نعم.

- وأنا كذلك.

فاحتضنتها مرة أخرى ويكاد الدمع يفرُّ من عينيَّ. أحسستُ بنهديها الصلبين على صدري، وبفقرات عظام ظهرها تحت أصابعي. شعرتُ بأنها صغيرة وناعمة وخفيفة، فضممتها أكثر، حتى خشيتُ أن تنكسر بين ذراعي فأفلَتُّها، وكرَّرتُ السؤال: «حقًّا.. ماذا تفعلين هنا؟».

- جئتُ في مهمة استطلاع سريعة إلى ريوسورو، وحَدسي قال لي بأنني سألتقيك في هذا الدرب تحديدًا، وها قد صدق حدسي كالعادة.

- وماذا قال لك حدسكِ عني أيضًا؟

- قال بأنكَ إنسان نقي وسط عالم ملوَّث، وأنكَ مجروح وحزين في داخلك، تائه مستسلم لقدَرك، وأنكَ مليء بالمحبة والشوق والحنان الذي لا تعرف أو تخاف التعبير عنه، على الرغم من أنك ممثل بارع، لم يوظف موهبته في التمثيل لخداع أحد. بل يرى التمثيل هو فعل حياتي صادق وحقيقي لا يُفترض استخدامه إلا لما هو في صالح الحياة.

بقيت فاغر الفم محدقًا بفمها المسترسل في القول الواثق، كأنه يقرأ نصًّا أمامه، وحين توقَّفَتْ عن الحديث شهقتُ قائلًا: «يا إلهي، كيف عرفتِ كل هذا عني؟!».

فضحِكَت: «إنه حَدسي أيضًا».

- من أين خرجتِ لي؟!
- أنا قدَرك.
- أهلًا قَدَري.

دعوتها للجلوس وأن نأكل أو نشرب شيئًا معًا، فقالت بأنها لا تستطيع الآن، عليها أداء مهمتها بسرعة والعودة قبل حلول الليل، لكنها تعِدني بالعودة لرؤيتي بشكل خاص ولوقت أطول، ثم عانقتني على عجل وامتطت حصانها، وقبل أن تغادر، خلَعت قُبَّعتها التي تشبه قبعة جيفارا، في وسطها نجمة حمراء، وقالت: «هذه هدية لك، ضعها على رأسك كي تحميك من الشمس أو المطر، أو في الحقيقة لتُذكِّر من يراكَ بقائدنا جيفارا، فأنتَ تشبهه كثيرًا، وإن كانت قامتك أطول».

- ألهذا السبب فقط.

فصمتَت وحوَّلت نظرها عني لأول مرة وهي تتحدث معي. نظَرَت إلى الأرض وقالت: «لا، أشعُر بأن فيكَ شيئًا من أبي الذي لم أشبع منه، أشعر بأنك مُختلِف عن كل الذين عرفتهم في حياتي، وهذا حقيقي، فأنت طينة أخرى ومن عالم آخر».

ولأول مرة أيضًا، شعرتُ بأنها تغصُّ بالكلام وفي نبرتها رغبة بالبكاء، فقلت لها: «وأنتِ كذلك بالنسبة لي. مختلفة تمامًا عن الذين عرفتهم في حياتي».

نزعتُ عن رقبتي القلادة الفضية التي بعثتها لي كوثر، وفيها آية الكرسي، قائلًا: «وهذه لكِ، كي تحفظكِ».

شرحتُ لها معناها، فَسَرَّها ذلك كثيرًا، علَّقتُها في رقبتها وهي تنظر إليَّ مبتسمة، ولاحظت اختلاج شفتيها القريبتين من وجهي، وددتُ تقبيلهما. شكرَتني بصدق، ثم سحَبت رسن حصانها فتحرك وهي تقول: «حسنًا، انتبه لنفسك».

ابتعَدت قليلًا، ووضعتُ أنا الطاقية على رأسي دون الكفِّ عن النظر

إليها، فاستدارت فجأة بحصانها وعادت إليَّ، توقّفتْ قُرْبي، بل فوقي، حيث كنتُ أراها كملاك في السماء، وقالت: «بالمناسبة، أعرفُ بأنك تُعاشِر النساء كثيرًا، بل تعاشر أية امرأة مستعدة لذلك. هذا صحيح؟».

- نعم.

- إذًا، فهذه فرصتكَ الأخيرة لفعل ذلك، أمامكَ وقت حتى أعود و... أتزوَّجك، وبعدها سوف أقطع عضوك لمجرد أن تفكر بذلك. أنا قَدَرك.

وغادرت مُلَوِّحَةً بالحَربَة العسكرية التي استلَّتها من حزامها ملتمعة تحت نور الظهيرة. ابتعدَت للمسافة القليلة السابقة ذاتها، ثم توقَّفت واستدارت بحصانها نحوي، ولأنها كانت تسحب رسنه بقوة؛ ظلَّ يلتف حول نفسه، ومن هناك قالت لي: «أُحبُّك».

ثم انطلقَت سريعًا، وحصانها ينثر الحصى والغبار تحت قوائمه، فيما بقيتُ أنا متجمِّدًا في مكاني، ودقات قلبي تقرع بقوة متناغمة مع قرع حوافر حصانها. تتردَّد في سمعي آخر كلمة نطقتها كطبول حرب «أُحبك... أُحبك» ويلتمع بريق حربتها في عينيَّ المتحجِّرتين. أعرف هذه الحَربَة جيِّدًا منذ أيام الخدمة العسكرية، مدية مخيفة، روسية الصُّنْع، بحوافَّ متنوِّعة بين الرهافة والمنشار، وفي وسطها ثقب لإدخال الهواء في جرح المطعون، كما أخبرونا أثناء التدريب على استخدامها، والذي كلما كنت أراه أو أتذكَّره يقشعرُّ بدني، وألعن كل فكرة إبداع شريرة في مخ الإنسان، لكنني هذه المرة شعرت بانجذاب خفيٍّ نحو الحربة المخيفة، ووجدت نفسي أهمس لنفسي: «يبدو أن الحب مرتبط بالألم أيضًا، وأنا أحبُّكِ أيضًا... يا خُلاصة العَسل. أهلًا قَدَري».

- 40 -

كانت تلك أقصر وآخر رحلة إلى تلك القرى، بل لم أمرَّ إلا على بعضها سريعًا. أوصلتُ الطَلبات، عرضتُ مسرحيتي الجديدة «الفارِسة الجميلة»

في كل ساحات القرى التي مررت بها، لم ألمس أية امرأة، وكنت أتحجَّج بالتعب أو المغص أو الصداع وما إلى ذلك. احتضنتُ وقبَّلت ولاعبتُ من رأيتهم من أطفالي، كأنَّني أودِّعهم، وبقيت يومين مع أحبَّتي «كاهوا» و«هاليب»... وحال عودتي إلى ريوسورو أخبرت هاني بكل الذي حدث، ففوجىء ولم يُطَعِّم كلامه بالسخرية هذه المرة. قال بأن إيراسيما إذا وعَدت فعلَت، فماذا أنت فاعل يا صديقي؟ فقلت له على الفور بأنني موافق طبعًا، ومقتنع تمامًا، هذه المرَّة، بتنازلي عن فكرة رفضي للزواج. أشعر بأنني أُحبها، بل أعشقها يا هاني. أشعر بأنني مسلوب الإرادة أمامها، وبأنها قدَري، وما كل الذي حدث في حياتي وقادني إلى هنا، إلا من أجلها. سحب هاني نفسًا طويلًا من أرغيلته وتساءل: ولكن ماذا عن فَرق العمر والثقافة والظروف بينكما؟ ماذا عن التزامها بالجماعات المسلَّحة والغابات؟ إنها امرأة سلاح وحرب، وأنت رجل فن وسلام! إنها نَمِرَةٌ وحشيَّة، وأنت حمامة وديعة! ربما هي تبحث عن أبيها فيك وليس عنك!

- لا أدري؛ ولكن ليس لديَّ شيء أخسره، لا أملك سوى حياتي، وحياتي بدونها ستكون بلا معنى. أعترف لك بأنني لم أَشْتَهِ ولم ألمس أية امرأة في جولتي هذه. كانت هي وحدها في ذهني وعقلي وقلبي، كأنها تختصر لي كل النساء، وتكفيني عن كل النساء.

- واضح جدًّا أنك عاشق يا صديقي، وأمام العشق لا جدوى من أي كلام أو نُصح عقلاني أو حِسابات واقعيَّة، وعليه فليس لديَّ ما أقول لك سوى أنني سأكون معك، وداعمًا لك في أي موقف تتخذه، وفي كل ما تحتاجني فيه.

نادى على زوجته التي كانت في المطبخ وأخبرها، فتهلَّل وجهها فرحًا، وانحَنت عليَّ محتضنة ومقبِّلة رأسي مهنئة، وقالت بأنها قد خمَّنَت ذلك من خلال مراقبتها لنظرات أختها وحركاتها أثناء تناولنا للطعام، قبل مغادرتها. رأت في عينيها نظرات الإعجاب والحب لأول مرة، وأكَّدت لي مجدَّدًا بأنها بنت طيبة ونبيلة، وبأنها ستتغيَّر بعد الزواج،

وستتغيَّر أكثر فيما لو أنجَبَت، فاطمئن من هذه الناحية يا أمير. أنا على يقين من أنها ستترك الغابات وستستقر هنا معنا. إن زواجكما سيُفرحنا جميعًا، وبالنسبة لي سيكون ذلك يوم السَّعْد، فكم حاولتُ إقناعها بالبقاء هنا وفشِلْت، على الرغم من أنها تعتبرني أُمًّا لها.

كلامها غيَّر ملامح هاني ونبرته، أزاح قلقه وخفف من قلقي، فراح يعرض بلهفة أن نبني لنا بيتًا صغيرًا هنا جوار بيته، بل في ركن حديقته، وهكذا نكون عائلة واحدة حقيقية طوال العمر.

لم أُجِبهما بشيء، لأن الأمر كله في الحقيقة عائد إلى إيراسيما، فلا أعرف ما فكَّرَت وما ستفكر به وتقرِّره حيال كل هذا والمستقبل، وحين كنت أعود للنوم في حجرتي في بيت مارينا، بالكاد أستطيع النوم. أفكر فيها على مدار الساعات، يزداد اشتياقي إليها في كل لحظة ويعذِّبني انتظارها، وبشكل ما، شعرت بأنني متطابق أكثر مع ذهني وطبيعتي وقناعتي من أن القدر هو الذي يشكِّل حياتي كلها ولم أكن فاعلًا حقيقيًّا فيها، وفي كل مراحل حياتي كان هناك من يشكِّلها لي، في الصغر أبي، بعدها زهراء، بعدها منهل، والآن إيراسيما، وحتى وإن كان هاني محقًّا في اعتقاده بأنها ربما تبحث عن أبيها فيَّ، إن ذلك تأكيد آخر على صدق وعمق حبها، فعدا أن كل فتاة تبحث عن أبيها، بشكل ما، في رجل حياتها، أنا أيضًا أبحث عن أُمٍّ... أمٍّ قوية، مختلفة عن أمي التي كانت مستسلمة لإرادة أبي، أُم تمنَّيتها منذ الطفولة أن تكون حامية لي ومدافعة عني وعن أختي وعن نفسها أمام سطوة أبي... على هذا النحو، أمضيتُ أسابيعَ بانتظار إيراسيما، أُحدث نفسي عن نفسي وعنها وأتقلَّب في الفراش... إلى أن هبَطَت عليَّ ذات ليلة، ومعها كل الحلول والقرارات جاهزة، كما توقَّعْت. سمعتُ وقع خطوات تدبُّ في الشارع المجاور، ولكنني لم أتوقَّع بأنه سيكون حصانها، إلى أن وجدتها تجلس على بطني وأنا متمدِّدٌ في السرير وسط الظلام، قائلة: «هل أنتَ جاهز يا أميري؟».

وتزوَّجنا بعدها بأسبوع. كنتُ قد عرضتُ عليها أن نقيم أولًا هنا في

بيت مارينا، وخلال ذلك سأطلب مالًا من مانويل ابن خالي في برشلونة، نبني به بيتًا صغيرًا في حديقة بيت هاني، فأراحتني حين قالت بألَّا داعي لكل ذلك، فأنا أصلًا لم أكن راغبًا بطلب شيء من منهل. قالت بأن البيت جاهز هنا، على تلة في أطراف ريوسورو، وحين زرناه، وجدناه قصرًا حقيقيًّا يطل على البلدة كلها، ولكنه مهمَل منذ عشرين عامًا. أخبرتني أنه هدية من أحد أعضاء القيادة، هو بمكانة أبيها، وكان رفيقًا وصديقًا حميمًا لأبيها، تبنَّاها هناك بعد مقتل والديها، وحماها من مخاطر ومحاولات اعتداء كثيرة، هو الذي ربَّاها ويناديها: «ابنتي»، وأحيانًا: «ابنتي الوحيدة»، أو «كَنزي». نصَّبها زعيمة للحركة الشبابية في التنظيم، وهذا البيت، كان قد بناه للمرأة الوحيدة التي عشقها، امرأة من ريوسورو، ولكنها لم تحتمل طريقته في العيش والغياب، فانتحَرت بعد أقل من عام من زواجهما، فهجر هو البيت ولم يعد لرؤيته أبدًا... دعَّمها في فكرة الزواج أيضًا، حين أخبرته بمدى حبها لي ووعدها أن يخفِّف، بل وسيحوِّل مسؤوليتها تدريجيًّا، من العمل في معسكراتهم في الغابات خلف الجبال، إلى نقطة معلومات وتواصلات هنا في البلدة، وسيكفي أن تقوم بزيارات لهم على فترات محدَّدة أو عند الضرورة، أما عن الزواج نفسه، فستكون حفلة العرس في بيت هاني وزوجته تكريمًا لهما، والإقامة المؤقَّتة هنا في بيت مارينا، إلى أن نُكمل ترميم وتأهيل بيتنا.

وهكذا حدَث، فعشتُ مع إيراسيما قرابة العامين في ذروة السعادة التي يمكن تخيُّلها، بِمُتَعٍ عاطفية وجسدية وحوارية هائلة، كما عبَّرت هي عن أنها في أقصى سعادتها، وكانت تتحوَّل إلى طفلة وإلى أنثى رقيقة مدلَّلة حين ترتدي الفساتين وقمصان النوم النسائية في البيت؛ ذلك أنها لم تلبس سوى البذلات العسكرية طوال حياتها، وحتى بعد زواجنا، لم تخرج من البيت إلا عسكرية، على الرغم من حثِّي لها على تغيير ذلك، قائلًا لها بأنني منذ وِلدتُ وأنا مُحاط بالعساكر والثياب العسكرية، أبي وزملائه، والشارع، والحكومة، ومن ثمَّ في الجيش، وربما لذلك أميل

إلى ما ليس له علاقة بالناس العساكر، ألجأ إلى النساء، إلا أنني -ويا للقَدر العجيب- انتهيتُ أيضًا في أحضان امرأة عسكرية. فتضحك.

كم أمضينا من الليالي في الحُب والحوارات التي لا تنتهي بيننا، جالسَيْن في شرفة بيتنا الصغير المُطِلَّة على أضواء البلدة، ولم تحدُث بيننا خلافات حقيقية إلا في الرأي أحيانًا، فقد كنتُ أعارض هوسها بجيفارا وتعليقها لصوره في كل أنحاء الدار، بما في ذلك المطبخ، وكنت أقول لها بصدق: «لا أريد من قائدك جيفارا إلا شيئًا واحدًا: أن يُحرِّرني من استعمار عينيكِ لقلبي».

فتبتسم وتُقبِّلني، فأغنِّي لها المقاطع التي أتذكَّرها من أغنية (قارئة الفنجان) والتي لكثرة ترنُّمي بها كلما حدَّقتُ في عينيها مأخوذًا؛ صارت تحفظ بعض كلماتها متفرقة، وتحبها، بعد أن تَرجمتها لها وقلت بأن هذه واحدة من أجمل الأغاني العربية:

«بحياتكَ يا ولدي امرأة عيناها سُبحان المَعبود.. فمها مرسوم كالعنقود
ضحكتها أنغام وورود.. والشَّعر الغجري المجنون
يسافر في كل الدنيا.. قد تغدو امرأة يا ولدي يهواها لقلب.. هي الدنيا
لكن سماءكَ ممطرة وطريقكَ مسدود
مقدورك أن تمضي أبدًا في بحر الحُب بغير قُلوع
مقدوركَ أن تبقى مسجونًا بين الماء وبين النار
فبرغم جميع حرائقه.. وبرغم جميع سوابقه
وبرغم الحزن الساكن فينا ليل نهار
وبرغمِ الريح وبرغم الجو الماطِر والإعصار
الحُب سيبقى يا ولدي.. أحلى الأقدار»

وكانت إيراسيما تحب المطر كثيرًا، وتقول بأنها وُلِدَتْ تحت المطر وتتمنى لو أن موتها سيكون تحته. تُفلسِفه وتُحيله إلى حالة شِعرية

أثناء الحديث عنه. تقول بأنه حبل السُّرَّة بين السماء والأرض، ترتبطان ببعضهما بواسطة الماء عند هطوله. شيء شبيه بالحب وممارسته؛ لذا تكون النتيجة مزيدًا من جريان المياه ومزيدًا من النباتات والأزهار والثمار والطُّهر والحياة. لحظة امتزاج عناصر الطبيعة الأساسية: الماء والتراب والهواء؛ لذا علينا أن نضيف لها العنصر الرابع لتكتمل، وهو النار، نقتبسه مما يَتَّقِدُ في صدورنا وجذوة الحب في حياتنا... فتَخرج للتمشِّي كلَّما هطل المطر في الشارع، أو في الحديقة، أو تصعد إلى سطح الدار وترقص هناك، فأتبعها كي أشهَد تبلُّل شعرها، والتصاق ثيابها بجسدها، ممَّا يجعلها أشد جاذبية... تُفرِد ذراعيها وترقُص، وترقُص، كأنها تطير.

لكنها تغضب مني، حين أقول عند ذِكرِها لجيفارا، بأنني لا أستطيع حُب أي إنسان يقتُل إنسانًا آخر تحت أي تبرير، فتطيل النقاش قائلَة بأن التصدِّي للقاتل المتوحِّش كالرأسمالية والإمبريالية لا يكون بالورود والفن والمسرحيات؛ فذلك لا يردعه، ولا مناص من مواجهة سلاحه بالسلاح، وكانت في محاولاتها لتغيير وجهة نظري تُذكِّرني بأن جيفارا قد زار مصر والجزائر وفلسطين، وبأن النضال كان يتَّسم بأممية إنسانية وليست محلية، وبأن تنظيمها يَعتبِر الظلم الإمبريالي الواقع على البلدان العربية واللاتينية واحدًا، وأن قوى التوحُّش العالمي صنَّفتها ووضعتها في كيس واحد، أسمته «العالَم الثالث» ودعَّمت الديكتاتوريَّات فيه، ونهَبت -وما تزال تنهب- كل خيراتنا، وأنها تستغرب من سلوك بعض العَرب، وهم يتبعون دول الغَرب التي استعمَرَتهم وأذَلَّتهم وامتصَّت خيراتهم، يتبعونها ثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا مثل كلاب السيدات. لا تفهم تعاون وانقياد العرب لبلدان سفَكَت دماءهم، فيما يبتعدون عن التعاون والتحالف مع دول أمريكا اللاتينية وثقافتها وشعوبها المتعاطفة مع القضايا العربية... بينكم وبينهم دم مسفوح يا أمير، أما بيننا وبينكم فرابِطة دم ومصاهرة منذ الهجرات الأولى وحتى اليوم، وأنتَ وأنا مثال على ذلك.

جُلُّ أقوالها من هذا النوع، والكُتب التي طلَبَت مني قراءتها لم تُغيِّر رأيي، على الرغم من أنني صرتُ أعشقها أكثر، ولا أرى الدنيا إلا خضراء بلون عينيها، وأذوب شوقًا ولوعة لمجرد أن تغيب لساعات عن ناظري؛ لذا لم أتعنَّت في رأيي واعتراضي عندما أطلقَت اسم «جيفارا» على ابننا، فطالما ردَّدت أثناء حملها بأنها كانت تحلم منذ طفولتها أن تنجب طفلًا لتسمِّيَه جيفارا، وما كان لي أن أحرمها من حلم كهذا وهي المرأة التي فاقت كل أحلامي، وحوَّلت حياتي لأجمل حلم يمكنني تمنِّيه، وثمرة حبنا هذه، جيفارا الصغير، صار كقلبٍ ثانٍ لي، بحيث أن مجرد بكائه يبكي قلبي، وضحكته تجعل الكون كله ضاحكًا من حولي. لا أنكر، بأنني أشعر أحيانًا بالذنب وتأنيب الضمير حين أراني مداريًا ومتعلِّقًا به إلى هذا الحد، فيما أحرم أطفالي الآخرين من أبسط لحظات أُبُوَّةٍ كهذه، لكنني كنت أسارع بطرد التفكير بذلك؛ كي لا أجلب لقلبي الأسى والحزن فيؤثِّر لاحقًا بشكل ما على علاقتي بجيفارا أو أُمه، وكنت أسوق لنفسي مبرري الدائم ذاته، بأن لأولئك الأطفال أمَّهاتِهم المُحِبَّات والمسؤولات، وبأنني كنت واضحًا وصريحًا معهن جميعًا قبل إنجابهم، ولستُ أكثر حنانًا وحُبًّا لطفِل من أمه، فإذا كان قرار إنجابهم عائدًا لأمَّهاتهم أصلًا، فما ذنبي أنا؟ وحين أسهبتُ ذات مرة بحديثي عن «كاهوا» و«هاليب»، ولمَسَت هي في نبرتي الشوق إليهما، قالت بأننا، وبعد أن تستقرَّ، ويكبر طفلنا أو أطفالنا، سنقوم بجولة تعارف بين الإخوة.

المرَّة الوحيدة التي رأيتُ فيها دمع إيراسيما، هي عندما حدَّثتها عن ليلة دفني لأميرة الزهراء. كنت قد استيقظتُ في منتصف الليل على بكاء جيفارا، غيَّرت له حفَّاظته وحملته إلى الشرفة كي لا يوقظ أمه، وهناك، وأنا أتطلع إلى أضواء البلدة الهاجعة، تذكَّرت تلك الليلة التي كنت أحمل فيها جثمان صغيرتي، أحدِّق في أضواء بيوت بغداد وأحسد النائمين فيها؛ فبكيتُ، وإذا بإيراسيما تحتضنني من الخلف وتسألني عن سبب نشيجي. ضممتُ جيفارا على صدري وبكيت أكثَر، فأخذَته من

بين ذراعيَّ وحملَته إلى الداخل لينام، ثم عادت وفي يدها كأس من النبيذ لي... حدَّثتها بالتفصيل، وأنا أغصُّ بالدمع أحيانًا، وأخرى بالشراب أو الدخان.. فكانت تعانقني وتبكي لبكائي.

مرَّ الوقت الذي عشته مع إيراسيما سريعًا، وكنت أناديها، أغلب الأحيان، بمعنى اسمها وليس باسمها «يا خلاصة العسل» أو «يا خلاصة عسل حياتي»- سريعًا، حتى بلياليه الطويلة من الحب والأحاديث التي يمكن اعتبار كل ليلة منها حياة كاملة... أقول لنفسي بأنني أخيرًا وجدت جنتي التي أُريد، من حيث المكان والزمان والرفقة، وكانت بهجتها بحملها الثاني لا توصف، واتفقنا أن تتركَ لي أنا تسميته هذه المرة، وفي بعض حواراتنا، كنت أقول لها بأن المزيد من الإنجاب هو انتصار للحياة على الموت، وأن مجرد بقاء الطيبين، الخيِّرين، البسطاء، المسالمين وتكاثرهم هو انتصار على أقلِّيَّة الأثرياء الجشعين. وبالطبع لم يكن ذلك ليغيِّر قناعات رضعَتها مع حليب أُمها، فترد: «على العكس، علينا مواصلة الكفاح كي نهيِّءَ لأبنائنا عالمًا أفضل من هذا الذي نعيش فيه...»، بل وتشطح أحيانًا في خيالها وأحلامها، فتقترح عليَّ أن نذهب إلى البلدان العربية أيضًا، ونؤسِّس لحركات ثورية مناضلة ضد الإمبريالية وعملائها هناك، وحين أقول لها: «لا توجد لدينا جبال وغابات كالتي هنا لنختبىء فيها، وإنما مجرد صحارٍ»، تبرق عيناها بطفولية وتهتف: «يااااي، كم أتمنَّى رؤية الصحراء»، فأضحك قائلًا: «كم أُحبك يا مجنونة».

دون شكٍّ، تأثَّر أحدنا بالآخر إلى حدٍّ ما، وتغيَّرت بعض الآراء في ذهنه، ولمست في نفس إيراسيما أمنياتٍ دفينةً أخرى تتعلَّق برغبتها بالعيش في مدن حديثة، وبحياة مستقرَّة وعائلة. حدَّثتها كثيرًا عن برشلونة، وأعربَت عن أمنيتها برؤيتها مستقبلًا، وكذلك عن بغداد وعن قريتي الصغيرة على ضفاف دجلة وعن أمي وأختي الحبيبة انضباط. وما لم يتغيَّر في إيراسيما أبدًا هو شدة نشاطها وحيويتها وعدم نومها في اليوم أكثر من أربع ساعات. دائمة الحركة كنحلة، لا تستطيع المكوث دون

أن تفعل شيئًا، تعرف وتهتم بأدق تفاصيل البيت على الرغم من كِبَرِهِ. تقرأ وتداري حصانها كثيرًا، أثناء نومي. لم تحاسبني على عدم فعل شيء أبدًا، وإنما كانت تشاركني أحيانًا في هوايتي بصنع أحذية الأطفال، كما صنعتُ لها أجمل وأفضل أحذية جلدية ورياضية أنتجتها في حياتي... على نحو ما، كان هدوئي المعاكس لحركتها يريحها أكثر؛ لأنني بذلك أبثّ إلى نفسها بعض السكينة، والأهم، أنني أترك لها المزيد ممَّا تفعله. في المرَّات التي ذهبَت فيها في مهمات سريعة لأيام قليلة خلف الجبال، كنت أتمزَّق قلقًا وخوفًا عليها وشوقًا إليها، إلى حدِّ الشعور كأنني مريض، وعندما تعود أعانقها بلهفة وحرارة تفوقان لهفة وحرارة عناق جيفارا لها، وتدمع عيناي على صدرها، على العكس منه، حيث يضحك مبتهجًا، فتشير لي إليه وهي تضحك: «انظر، حتى جيفارا الصغير أقوى منك».

- لا أريد أن أكون جيفارا صغيرًا أو كبيرًا، وإنما أريد البقاء كما أنا، عاطفيًّا هشًّا. لي الفن الذي يرقِّقني، ولكِ السلاح الذي يُخَشِّنُكِ، يا مجنونة.

فتحضنني وتقول: «وأنا أحبك كما تريد أن تكون أنت».

كل لحظة مع حبيبتي «خلاصة عسل حياتي» إيراسيما، انحفرت في قلبي وذاكرتي إلى الأبد، وسأبقى أستعيدها حتى فنائي، وأكثر ما استعدتُ لاحقًا لحظاتُ وداعنا الأخيرة. ثمة شيء في قلبي كان مرتبكًا مضطربًا كاضطراب لقائنا الأول في حديقة هاني، وطالت نظراتنا وتعمَّقت في أعيننا أكثر ممَّا تحدَّثنا. قالت: «هذه آخر رحلة إلى ما خلف الجبل قبل أن ألِد طفلنا الثاني».

كانت حاملًا في الشهر الثالث، وكان المساء ممطرًا والريح هائجة. ذهَبت مع مرافقين شابَّيْن جاءا لاصطحابها كالعادة، لكنها الوحيدة من بينهم، التي انزلق بها حصانها من قمة صخريَّة وهوَت في وادٍ سحيق، فاختلط هشيم جسدها بهشيم جسد حصانها، وأعادوها لي في كيس، عجينة لحم وعظام دامية، غرستُ فيها وجهي جزِعًا منتحبًا، إلى أن سقطتُ مغشيًا عليَّ.

- 41 -

اعتقدتُ بأنني في كابوس، لا شيء في رأسي سوى الفراغ وألم ثقيل، كأن أحدهم ضربني بلوح خشبي أو قضيب حديدي، فيما جسدي متنمِّل وثقيل هو الآخر، لكنه لا يؤلمني، كأنه غير موجود، وإنما مجرد كيس رمل ثقيل مربوط برأسي، وحين عرفت أول الأصوات من حولي، وجدت هاني وزوجته، وآمارو وزوجته، وايرا وأختها، التوأم سيتلالي الخرساء، وأمهما، وبالوما، ووجوهًا أخرى كثيرة أعرفها من أبناء ريوسورو. كلها كفَّت عن الكلام دفعة واحدة حال فتحي لعينيَّ، وأطلَّت فوقي من كل الجوانب، حيث وجدت نفسي ممدَّدًا على سرير وسط صالون بيت هاني؛ ممَّا أعاد لي الشك في أنني في كابوس فعلًا. أغلقت عيني ثانية، عصرتهما بما استطعت من قوة وأعدتُ فتحهما. سألني هاني ووجهه يهبط نحو وجهي بلهفة حتى يكاد يلاصقه، ولمحتُ عينيه دامعتين: «كيفك يا أخي أمير؟».

لم أستطع الإجابة. كان ريقي ناشفًا ورأسي ثقيلًا. فرفَع هو رأسي، وأضاف تحته وسادة ثانية، ثم قدَّم لي قدح ماء، لكنني لم أستطع الحركة، فوضع حافته بين شفتي وسقاني منه قليلًا، ثم بلل كفَّه بالمتبقي ومسح وجهي. برودة الماء النازل في جوفي، وعلى جلدي جعلتني أنتعش قليلًا، أستعيد بداية وعيي وذاكرتي، وكارثتي، بفقد إيراسيما؛ لذا حين كرَّر عليَّ السؤال لم أستطع إجابته بلساني، وإنما بالدمع المنسكب من عيني، فبكى هو الآخر وهبط فوقي معانقًا.

لم أستطع الكلام على مدى ثلاثة أيام، وكان جوابي بالدمع أيضًا لجيفارا كلما وضعوه في حضني وسألني «ماما»؟ فيبعدونه عني سريعًا. كانوا يعاملونني كالمريض، وكنت أشعر بأنني مريض فعلًا وإن كان لا شيء في جسدي يؤلمني. مكثتُ في بيت هاني قرابة الشهر، لم أخرج منه. حركتي بين المقهى والصالون وغرفة نومي والمطبخ والحديقة، التي كنت أمضي فيها أغلب الوقت ممدَّدًا في الأرجوحة الشبكية التي

رأيت فيها إيراسيما لأول مرة، وهناك أكرِّر استعادة كل لحظة لي معها، وأنتحب شوقًا إلى عينيها الخضراوين، وحين قالي لي هاني مشجِّعًا إيَّاي على تجاوُز حالتي، بأن أحاول الخروج إلى السوق والناس وأعاود حياتي الطبيعية، من أجل ابني جيفارا ومن أجل جميع الذين يحبُّونني، كنت قد اتَّخذت قراري بالخروج من هذه البلدة كلها وليس البيت وحسب، وأحزنه قراري هو وعائلته وآخرين. حاولوا ثنيي عنه، لكنني أخبرتهم بأنني لم أعد أطيق البقاء هنا؛ لأن كل شيء سيذكِّرني بها، وسيقتلني، سيذكِّرني حتى الشجر بخضرة عينيها، والمطر بموتها، حتى أنني لم أستطع الذهاب إلى بيتنا لجلب حاجياتي الخاصة، اعتبرته بيتًا ملعونًا فعلًا، وأنا أتذكَّر ما روته لي عن متبنِّيها الذي شيَّده لحبيبته فانتحرت فيه. أتاني بها هاني كلها، ومن بينها القلادة الفضية، هدية كوثر التي فيها آية الكرسي، والتي لم تخلعها إيراسيما أبدًا منذ أن علَّقتُها في عنقها، فضممتها في قبضتي بقوة، وضممت قبضتي على صدري، ثم علقت القلادة في عنقي عازمًا على عدم خلعها منه حتى موتي، كما فعَلَت إيراسيما، أو سأهديها لابننا جيفارا عندما يكبر.

اقترحا عليَّ الذهاب إلى مديين عند مارينا لبعض الوقت، وترك جيفارا برعايتهما، إلى أن أتحسَّن ثم أعود، لكنني أبلغتهما بعزمي على عدم العودة إلى هنا أبدًا، وبأنني سآخذ طفلي معي وأُكرِّس كل حياتي من أجله؛ لأنه ثمرة حبي لإيراسيما، الحيُّ الوحيد المتبقي لي منها، وقبل أن أغادر أوصيتُ هاني بمتابعة أطفالي في بقية القرى، سجلتُ أسماءهم وأسماء قراهم له في ورقة، على الرغم من تأكيده بأنه يعرفهم ويعرف أمهاتهم وقراهم جميعًا، فهو الشاهد والعارف بكل تفاصيل أعوامي هنا أوَّلًا بأول، وتركتُ عنده ثلاثة آلاف دولار كي يوزِّعها عليهم، ثم كانت لحظة الوداع الأقسى علينا. تعاهدنا على التواصل، ورجوته أن يحاول زيارتي ولو لمرة واحدة مستقبلًا أينما سأكون؛ ذلك أنني لن أستطيع زيارته هنا. قال لي: «أنا ولَدٌ وحيد طوال عمري، كنت أتمنَّى لي أخًا

ذكَرًا، وها أنت صرت أخي؛ لذا سيكون رحيلك مثل اقتطاع جزء من قلبي وحلمي وحياتي».

- أعرف يا أبا نِيل، وأنا كذلك.

تعانقنا طويلًا واهتززنا بكاءً، بحيث بكى كل من كان حولنا، زوجته وأطفاله والجيران والزبائن القليلون الذين كانوا في المقهى صباحًا.

- 42 -

لم تكن رحلة العودة كرحلة المجيء. كنت أشعر بأن أحد شراييني معقود في إحدى أشجار ريوسورو وكلما ابتعدت السيارة، التي بعثتها لنا مارينا، يزداد امتطاط وتفتُّق وألم هذا الشريان، كما لم أشعر بالخوف والرعب نفسه من الموت والسقوط في الوديان العميقة عندما كانت تمرُّ السيارة في الدروب الضيقة المحفورة في سفوح الجبال الشاهقة، بل على العكس، كنت أنظر إليها برغبة من نافذة المقعد الخلفي الذي كنا نجلس فيه أنا وجيفارا. أُلصق وجهي في الزجاج وأدفعه نحو الهاوية، وللحظة كنا فيها على الحافة تمامًا ولا نرى تحتنا سوى عتمة أشجار كثيفة بعيدة في عمق وادٍ مهول. فكرت أن أفتح الباب وألقي بنفسي؛ كي أحسَّ بما أحسَّت به إيراسيما في لحظاتها الأخيرة؛ كي أموت كما ماتت مهشمة الجسد، معجونة العظام واللحم، وأنتهي مثلها، مجرد عجينة دامية؛ لكن جيفارا قطع عليَّ تلك اللحظة، تلك الرغبة، حين لامس ذراعي بكفه الصغيرة «بابا» وأشار إلى قنينة الماء التي بين ساقيَّ، فسارعت بسقيه وأنا أقول لنفسي: «لا بُدَّ وأن أبقى حيًّا، حتى وإن كان ذلك من أجل أن أسقي طفلي العطشان شربة ماء، وإن لم يعد لي غرض بحياتي بعد إيراسيما، فلأهبها لابن إيراسينا، أهبها لأطفالي. إن لم تعد حياتي تهمُّني أنا فلأمنحها للآخرين، الذين تهمُّهم».

استقبلتنا مارينا بحب حقيقي. احتضنتنا وقبَّلتنا كثيرًا. بدت سعيدة في حياتها، وزاد سعادتها قدومنا إليها. خصَّصت لي غرفة في شقَّتها

الواسعة، وأضافت سريرًا صغيرًا آخر لجيفارا في غرفة صغيرها: طفلنا، وأوصت الفتاة الخادمة في بيتها أن تعتني بنا قائلة لها: دلّلِي أطفالي الثلاثة هؤلاء.

كانت عبارتها الأمومية صادقة حين وصفتنا بأطفالها، وهكذا كان تعامُلها معي طوال شهور إقامتي معها، حتى حين تعود متعَبة في آخر الليل من العمل في مطعمها وبارها، والذي أخذتني إليه في بعض نهايات الأسابيع، فكنت أجلس في أحد أركانه المعتمة، أدخِّن وأنظر إلى صخب الراقصين السكارى، ولا أتوقَّف عن الشرب، بحيث لا أدري بعدها متى انتهت السهرة وكيف أوصلوني إلى سريري؛ لأنني لا أستيقظ إلا في مساء اليوم التالي دائخًا ومحطَّمًا. كنت أمضي جُلَّ وقتي بالشربْ والتدخين والصمت، وكانت هي تحاول إخراجي من حالتي، فتصطحبنا في عطلة عملها يوم الإثنين للتَّنزُّه في الحدائق أو زيارة المتاحف والمشاركة بأي احتفال شعبي يصادف ذلك اليوم، أو تأخذنا نحن الأربعة بسيَّارتها إلى حي جميل، أو مكان أجمل في أطراف المدينة. نفترش العشب ونأكل ونشرب كعائلة. تلاعب الخادمةُ الطفلين، وأنا ومارينا نتمشَّى ونتحدث. قالت بأنها سعيدة بحياتها الآن، وهي تمامًا كما تريدها، الشقَّة ملكها، والمطعم ملكها وهو يزداد نجاحًا، يعمل تحت إمرتها فيه سبعة أشخاص، وصار لها معارف كثر، وعلى الرغم من كثرة الانشغال وضغط العمل، إلا أنها تفكِّر بفتح مطعم آخر أقرب من هذا إلى مركز المدينة، وذكَّرتني بعرضها القديم لي فيما لو أردتُ البقاء للعيش والعمل معها، قائلة بأن ذلك سيكون رائعًا لطفلينا أيضًا حين يكبران معًا، أخوين في بيت واحد، وكم كانت تحلم في طفولتها بأن يكون لها أخ أو أُخت، وهي تتمنى لو يتحقق ذلك لطفلها على الأقل، فقلت لها بأنني لا أستطيع التفكير بأي شي الآن. أعادت عليَّ ضرورة العناية بنفسي، منبِّهةً إيَّاي إلى إهمال حلاقة لحيتي وشعري وملابسي، والأخطر إهمال صحتي، فنحن نكبر يا أمير، وها هو الشيب يدبُّ في شَعر رؤوسنا. عدا ذلك لم تطلب مني

مارينا شيئًا، ولم تفرض عليَّ شيئًا، بل كانت تفيض بهجة كلما أصبحنا معًا، مهما يكن تعبها، وعلى الرغم من كثرة تفاصيل العمل فهي لا تهمل أي تفصيل يتعلق بنا. كانت تحتضننا وتقبِّلنا جميعًا قبل ذهابها إلى العمل وعند عودتها منه، بما في ذلك الخادمة، وتقول بأنها سعيدة لأن لديها الآن عائلة كبيرة، وفي المرة الوحيدة التي اندسَّت فيها في سريري بعد منتصف الليل شبه عارية، والتصقت بي وقبَّلت فمي، فتململتُ وأبعدتها برفق، قبَّلتُ جبينها وأدرتُ ظهري... تفهَّمت ذلك، احترمته وانسحبت بهدوء دون أن تتغيَّر عاطفتها وتعاملاتها معنا بعد ذلك.

كنت أكسر عزلتي أحيانًا بالتجوُّل طوال اليوم في المدينة بلا اتجاه ولا هدف، أجلس لساعات في بعض باراتها ومقاهيها، لا أتحدث مع أحد سوى مع نفسي ومع أطياف إيراسيما وزهراء وانضباط، أو مع أمي أو أبي أو توأميَّ الصغيرين «كاهوا» و«هاليب»، اللذين أشتاق إليهما بشكل غريب. وأحيانًا مع طيف هاني الذي أكاد أسمعه يقول لي: «يراودني أنك تركِّز أكثر على الطفل الذي فقَدَ أمه وهو بحاجة إليك... أو الذي ولِد من علاقة حُبٍّ».

لا أدري بالضبط، كم أمضيتُ من الشهور هناك براحة وسلام، استعدتُ خلالها بعض نفسي وعزمتُ على التفكير فيما يجب عليَّ فعله في حياتي، إلا أنني وقبل أن أفعل ذلك، تلقَّيتُ خبرًا كالصاعقة، هزَّ سكوني وسخَّن دمي البارد حدَّ الغليان. أخبرتني مارينا بأن مانويل قد تزوَّج أختي انضباط، وجلبها للعيش معه في برشلونة، فكان جوابي بعد خَرَس المفاجأة لدقائق: «سأقتُله. نعم، سأقتُل هذا الخنزير».

- 43 -

حاولَت مارينا ثنيي عن فكرة العودة إلى برشلونة بكل السبل، لكنها فشلت، بل وحتى خشيت عليَّ من نفسي، من تهوُّرٍ غير محسوب، وهي تراني قد انقلب سلوكي من كائن ساكن هادئ وصامت إلى ثور هائج

ومجنون، صارخ، بالكاد يهجع، وحين كنت أقول لها: «لن أسمح لهذا الوحش أن يستغلَّ أختي الوحيدة ويحطِّمها كما فعل مع آخرين كُثر». كنت أشعر بأن روحًا من قوة إيراسيما تدبُّ فيَّ، وكلماتها ترنُّ في رأسي، كقولها بأن التصدِّي للقاتل المتوحِّش لا يكون بالورد والفن والمسرحيات، فذلك لن يردعه، ولا مناص من مواجهة سلاحه بالسلاح، وأُضيف: «لو أن كل واحد منَّا ضحَّى بنفسه للخلاص من أحد وحوش الجشع في العالم، وهُم أقلية؛ لعاشت بقية البشرية والأجيال اللاحقة بسلام...»، بل صرت أشعر بأنني أتحوَّل تدريجيًّا في الكثير من تفكيري وسلوكي إلى ما يشبه إيراسيما، بحيث أنني لم أعد أستطيع النوم لأكثر من أربع ساعات، يصعب عليَّ المكوث لدقائق دون حركة أوْ فعل شيء ما، وأردُّ على نقاشاتي مع مارينا بردود كنت قد سمعتها من إيراسيما في نقاشاتنا الطويلة، وفاجأني أن قالت لي مارينا بأنها قد سامحت مانويل، بل وأنها صارت تستعيد بعض المودة والامتنان له، ولا مانع لديها من التواصل معه إذا ما جاءت مناسبة لذلك. قالت إن الحقد لا يُجدي، لا يُثمر خيرًا، ولا يُتعِب إلا حامله، وبأننا لو قلَّبنا كل شيء على أكثر من وجه ومن عدة وجهات نظر؛ لاكتشفنا أن فيه جانبًا إيجابيًّا ما، مهما كان سوءه، وهي حين فكَّرت بخلاصة علاقتها بمانويل، اكتشفت بأنها انتهت سعيدة وبتحقيق ما تريد، ومثلما ساعدته لتكوين ثروته وليكون ما هو عليه، فهو أيضًا كان عاملًا وفاعلًا جوهريًّا في تكوين ثروتها وبتحقيق ما تريده، فقلت لها بأنني لا أستطيع التفكير واقعيًّا وعقلانيًّا مثلها على هذا النحو، وعدا كوني عاطفيًّا، وأن أختي انضباط هي أحبُّ أهلي إليَّ، فإنني لا أطيق الظلم والاستغلال والخداع، وإن كنت قادرًا على مسامحته لما فعله بي كما سامحتِهِ أنتِ، فإنني لمن المستحيل أن أقدر على التسامح معه على إيذاء أختي، فلم أسمح حتى لأبي أن يفعل ذلك عندما كُنت صغيرًا، فكيف أسمح لهذا الخنزير أن يؤذيها وأنا كبير!

بعد أن أيقنَت مارينا من تصميمي على العودة، وتخبُّطي فيما عليَّ

فعله للقيام بذلك؛ قرَّرت مساعدتي. كانت بطاقة إقامتي الأسبانية وجواز سفري العراقي مُنْتَهِيَا الصلاحية، لا سفارة عراقية في كولومبيا، وإن وُجِدَتْ فستكون في العاصمة بوغاتا، وحتى لو حصلتُ على جواز عراقي جديد، فكيف سأحصل على تأشيرة سفر إلى أسبانيا؟ كانت تراني كذئب يتخبَّط جريحًا في قفص، وماذا عن جيفارا الذي أريد اصطحابه معي! وبعد كل تَقَصٍّ واتصالات وتَحَرُّكٍ من قِبَلِها ينتهي بلا حَلٍّ، تطمئنني بالقول: «لا تهتم، لن أكفَّ إلى أن أجد لك حلًّا لهذه المشكلة. أعِدك. فقط اهدأ قليلًا واطمئن».

وبالفعل، بعد قرابة أسبوعين فاجأتني وهي تسلِّمني مبتهجة، جواز سفر إسباني باسمي، يحمل صورة قديمة لي، وفيه اسم ابني جيفارا، وبطاقة أسبانية له بصورة طفل صغير غير واضحة المعالم وبطاقات سفر لكلينا. فسألتها عن الوثائق: «مُزوَّرَة؟».

قالت: «بل أصليَّة. سافِر وأنت مطمئن». فعانقتُها شاكرًا، وأضافَت: «حاول أن تُسامح مانويل».

ثم ابتسمت بإيحاء، كأنها تمزَح أو تَسخَر من تَهديدي بقتلِه: «أمَّا إن لم تستطع مسامَحته، فطلبي منك، أن تقول له، قبل أن تقتله، بأن مارينا قد سامَحَته».

- 44 -

على الرغم من طول الرحلة المملَّة وتعبها، وحرصي على رعاية جيفارا، طعامه وشرابه وحمله إلى الحمام مِرارًا، واللعب معه أحيانًا، إلا أنني كنت أجد الوقت الكافي للتفكير أثناء نومه. قلق حقيقي من أن تسبِّب لنا هذه الوثائق -التي لا أعرف كيف دبَّرتها مارينا- المشاكل الكبيرة حال وصولنا إلى إسبانيا، كما أنني لا أنكر تأثير موقفها وأقوالها حيال مانويل. كنت أتقلَّب بين موجَتَيْ تفكير متضادَّتَيْن، في إحداها، وحين تحضر كل ذكرياتي وأشواقي ومحبتي لانضباط. هي أن أبطش

بمانويل، والأخرى أن أتجنَّب الاصطدام به، وأحاول إيجاد سبيل ما لإبعادها عنه وإنقاذها منه بسلام.

لم يكن صعبًا عليَّ تمييز انضباط وكوثر بين حشد المنتظرين في صالة الاستقبال في مطار برشلونة. فعدا أن انضباط كانت أطولَ الواقفين، واهتزَّت كقصبة في ريح، حال رؤيتها لي خارجًا من باب القادمين، فقد كانت هي وكوثر، الوحيدتين اللتين تضعان شال الحجاب على رأسيهما. لا أدري مَن منَّا سبق الآخر إلى حضن أخيه وضمَّه بقوة وبكاء. بكاء جارف يبدو أنه لفت نظر الجميع، وأبكى جيفارا الذي كنتُ أحمله في إحدى ذراعيَّ، فلمحتُ كوثر تضع باقة الورد التي كانت في يدها فوق حقيبتي وتأخذ جيفارا من يدي، فاحتضنتُ أُختي أكثر بكلتا ذراعيَّ ورحت أُقبِّل رأسها ووجنتيها وجبينها وكتفيها، وهي تُقبِّلني من رأسي ولحيتي وتدفن وجهها في رقبتي، شامَّةً إيَّاها، وباكية مهتزَّةً، إلى أن هدأنا قليلًا، فسمعتها تقول: «الحمد لله على سلامتك يا روحي».

ففاض الدمع ثانية من أعماق روحي، وانحنيت لأقبِّل كفَّها وهي ترفعني قائلة: «الحمد لله الذي أكرَمَني وكحَّل عينيَّ برؤيتك قبل أن أموت يا روحي أنتَ، وكانت هذه أكبر وآخر أمنيات أُمِّنا في الحياة».

فأبعدتها عني قليلًا متجمِّد العروق، محدِّقًا في وجهها الذي شاخ كثيرًا وتقاطعت فيه خطوط التجعدات مع حفر الندب القديمة في وجهها. هزَّت رأسها مؤكِّدَةً موت أمي وهي تقول: «كانت تلهج باسمك حتى لفظت آخر أنفاسها وهي توصيني بالسلام عليك، وفي روحها حسرة أنها ستغادر الدنيا دون رؤيتك».

إعصار من الحزن الحارق كان يضربني عَبْرَ كلماتها، طريقة لفظها ونظرات عينيها المفعمتين بالحنان والأسى، وشعرت للحظة بأن كل الحزن العراقي المرير يحضر أمامي، متجسِّدًا فيها بين يدي، فعاودت رميي لرأسي على صدرها كمن يلقي بنفسه في مياه دجلة بعد غياب طويل. بكيت كما لم أبكِ من قبل أبدًا، وأنا البَكَّاء، وهي تمسِّد بكفها

على رأسي مثلما كانت تفعل في صِغَرِنا. أشعُر بها كف أمي وهي تُفلِّي شَعري طفلًا نائمًا على فخذها أو صدرها، وسمعتها تقول: «لقد كبرتَ يا صغيري وابْيَضَّ شَعْرُكَ. لقد كبرتَ يا أمير روحي».

وبعد لحظات لا أدري طولها، رفعتُ رأسي عن صدرها. شعرتُ بكف كوثر تربِّت على كتفي وتفصل بيننا. أعطتني قنينة الماء التي كانت تسقي منها جيفارا، ثم صافحتني بعد أن مسحَت دمعها بطرف كمها وقالت: «الحمد لله على سلامتك يا أمير».

لقد كبرت كوثر هي الأخرى، وإن كانت ملامح وجهها لم تتغيَّر كثيرًا كما حدث لملامح وجه انضباط. أخذَت أُختي جيفارا من فوق ذراع كوثر الأخرى. ضمَّته إلى صدرها وقبَّلته قائلة، وهو ما زال مستغربًا لكل ما يحدث أمامه، وينظر إليَّ: «أوووه، ما أجمله. مَنْ هذا؟».

فقلت لها: «إنه ابني».

وردَّت سريعًا بحزم وابتسامة ذات مغزى: «أعرف بأنه ابنك، ولكن ما اسمه؟».

- جيفارا.
- جبارة؟
- لا، جيـ.. جيفاااراا.
- أوي، ما هذا الاسم الغريب! أنا سأسمِّيه.. جاسِم.

فضحكنا ثلاثتنا، وقالت كوثر: هيا بنا، السائق ينتظر في الباب، وشرطة المرور تطالبه بالتحرُّك.

فانحنينا أنا وكوثر في اللحظة ذاتها لحمل حقيبتي، وتدلَّت قلادتي الهدية منها خارجة من فتحة صدر قميصي أمام عينيها، فالتقطتها سريعًا بين أصابعها لتتأكَّد بأنها هي ذاتها. ثم أطلقتها ونظرت في عيني مبتسمة بغبطة.

جلَسَت كوثر في الكرسي الأمامي إلى جانب السائق، وجلسنا أنا وانضباط في المقعد الخلفي دون أن تُفلت طفلي من ضمَّتها على صدرها، تخاطبه بأمومة، وهو لا يفهمها، ويكرِّر الرد عليها بالكلمة ذاتها مشيرًا

إليَّ «بابا»، وهي تكرِّرها بعده كلما قالها: «نعم، بابا. هذا بابا». وبينما هي منشغلة معه على هذا النحو، قرَّبتُ رأسي من رأس كوثر التي كانت تجلس أمامي، وسألتها بالأسبانية عن حالها، فقالت بأنها بخير، وأن أختيها أكملتا دراستهما بنجاح وتوظَّفتا وتزوَّجتا وأنجبتا، وأن أمها قد ماتت، فربَّتُّ على كتفها مُعزِّيًا، وحاولت تغيير الحديث فسألتها عن هذه السيارة التي تُقِلُّنا، مع علمي مسبقًا أنها سيارة منهل التي أعرفها جيِّدًا. المرسيدس السوداء ذاتها التي استقبلني بها هنا قبل أكثر من عقد من الزمان. قالت إنها سيارة مانويل، وهذا الفِلبِّيني هو سائقه الخاص؛ لأنه لم يعد قادرًا على قيادة سيارته بنفسه، فسألتها لماذا؟ قالت: المسكين، إنه مريض جدًّا، وأنا لا زلتُ أعمل عنده أيضًا؛ ولكن في بيته وليس في المطعم.

أدركتُ بأننا ذاهبون إلى بيت منهل. أعدت ظهري إلى مسند المقعد وسألت انضباط عن حالها، فاكتفت بالقول الحيادي «الحمد لله»، وعادت لمناغاة جيفارا أو جاسم كما راحت تخاطبه: «هَلا بجاسِم. كُل الهَلا بجَسُّومي الغالي ابن الغالي».

لاحظتُ هدوءه بين ذراعيها، اطمئنانه لها وانسجامه معها، ثم سألتها متى جاءت إلى هنا، إلى برشلونة، «فرَدَّت: منذ شهرين تقريبًا. لا أدري بالضبط. أشعر بأنني في هذا العالم الغريب منذ زمن طويل، وإن كنت لم أرَ منه شيئًا، إلا أنني أشعر بالغربة لولا وجود كوثر ومنهل. لا أدري كيف تطيق أنتَ الغربة كل هذا العمر».

- اطمئنِّي، ستنتهي غربتكِ قريبًا وتعودين إلى بيتكِ.

ففاجأها قولي حتى اهتزَّت قائلة باستغراب: «ماذا تقول!؟ ومنهل؟!».

- سأخلِّصكِ منه، هذا السافِل.

فشهقت ودقَّت صدرها مذعورة: «ماذا تقول يا أمير؟! إنه زوجي!».

- إنه سافل، نصَّاب، حقير، ولن أسمح له بإيذائك. سأخلِّصكِ منه حتى لو اضْطُرِرْتُ إلى قتله.

- لماذا تقول هذا الكلام؟! وأنا لن أسمح لك بإيذائه أبدًا، وإن

فكَّرت بقتله فاقتلني قبله. إنه زوجي وابن خالي وصاحب فضل عليَّ وعليكَ وعلى الكثيرين، وأنت تعرف حكايتي معه منذ صغرنا.

- لا فضل له على أحد. إنه يستغل كل من يعرفه لمصلحة معيَّنة له، بما فيهم أنا وأنتِ.

- وأية مصلحة له عندي أنا العجوز الشمطاء الفقيرة التي تعيش وحيدة مع بقراتها والدجاجات في قرية نائية! فيما كان بإمكانه أن يتزوَّج من يشاء من أجمل الجميلات في العالم. أنت واهم يا أمير. أنت لا تفهمه. إنك تظلمه، وأنت تعرف بأنه قد أحبَّني صدقًا، وأحببته مُذْ كنَّا صغارًا، وأنا حُب حياته وهو حُب حياتي، ولم يخذلني في شيء أو يتخلَّى عني أبدًا، وكان يعرض عليَّ الزواج كلما تخاطبنا، وأنا التي كنت أعتذر وأرفض من أجل أمي، ومن ثم من أجله بعد أن فات قطار عمري.

- وما الذي حدث الآن لتِغُيِّري رأيك وتقتنعي بالزواج منه بحيث تجيئين إلى هنا من أجله؟

- إنه مريض يا أمير. السرطان ينهش كل جسده. إنه قد يموت في أية لحظة يا حَبَّةَ عيني؛ لذا فزواجنا ليس بزواج حقيقي بقدر ما هو تحقيق حلم عمرنا القديم الذي حرَمتنا منه الظروف؛ لذا فعلى الرغم من مأساوية الحال، فإننا سعداء بأننا قد حققنا حلمنا في نهاية الأمر، تزوَّجنا بعضنا، كما تعاهدنا، وأننا سنمضي آخر أيامنا معًا.

أخرسني قولها. أنا الذي عرفتُ معنى الحب الحقيقي، وعرفتُ مدى حبها له، لكنني ما كنت أعرف أنه يحبها بصدق إلى هذا الحد، وإن كانت كل مواقفه التي عرفتها وتسميته للمطعم باسمها وامتناعه عن الزواج بغيرها واستجابته لطلبها بجلبي إلى أسبانيا وغير ذلك، تشير كلها إلى أنه كان حقيقيًّا فعلًا في حبه لها. مع ذلك ما زال في نفسي شيء يأبى الوثوق به وتصديقه. فكرت أن أحاول إيصال ما أشعُر به إليها من توجُّس حياله، لكنني بقيت ساكتًا، مُفضِّلًا تأجيل الحديث عن ذلك إلى وقت آخر، وبعد أن أعرف المزيد، فيما ظلَّت هي تتحدث دفاعًا عنه وعن مناقبه

قائلة بأنها: «لم تعرف في حياتها شخصًا اشتكى من إضرار منهل به، على العكس فإنها ما عرفت أحدًا قد عرفه إلا وأخبرها بأنه قد ساعده بشكلٍ ما أو حل له مشكلة. هل تعلم بأنه قد بنى على حسابه الخاص في قريتنا مدرسة حديثة ومستوصفًا؟! فماذا...».

ثم سكتت، وأدركتُ بأنها كادت أن تقول: «فماذا فعلتَ أنتَ لأهلك وللآخرين؟!»... أو هذا ما سألته أنا لنفسي في داخلي مقارنة بما أسمعه عن أفعاله. فقلت لها: «ولكن كل هذه الأموال ينهبها بالنَّصْب على آخرين».

فقالت: «لا أعرف بأنه قد أخذ من فقير أو محتاج. لا أعرف بأنه قد ظَلَم أحدًا، وإلا لتعرَّض للمحاكَمة أو السجن ولو مرة واحدة في حياته، بل على العكس. إنه طوال عمره يسعى لتحقيق العدالة بطريقته. أن يأخذ من الأغنياء ليعطي الفقراء. إنه مثل عروة بن الورد مثلًا».

لم أتمالك نفسي عن الضحك لحظتها، وأنا أقول لها: «طبعًا، طبعًا، تجعلين منه فارسًا وشاعرًا وخير القُضاة والرجال، فهو حبيبك».

فابتسمت هي الأخرى، وأراح ذلك كوثر بعد أن وتَّرها حديثنا السابق، فأضافت كي تزيد من استرخائنا: «أو مثل روبن هود مثلًا».

فضحكنا، وقلت لهما مداعبًا: «طبعًا، لا بُدَّ وأن هذا الكلام هو بعض كلامه الذي حَشى به رأسيكما أيتها الطيبات المغفَّلات».

كنَّا قد وصلنا، ورأيت السائق الفِلبيني يضغط على جهاز سيطرة صغير في يده، لتُفتح أمامه البوابة العالية الكبيرة، فكان الذي دخلنا إليه قصرًا حقيقيًّا، فخمًا، بثلاث طوابق، وحوله حديقة واسعة زاهية بديعة التنسيق، وقبل أن ننزل من السيارة، بعد أن توقَّفت أمام مدخل البيت تمامًا. سحبتني انضباط من مرفقي وقرَّبت رأسها إليَّ قائلة: «أرجوك. أتوسَّل إليك يا حبيبي أمير، ألَّا تجرحه ولا تزعجه ولو بكلمة واحدة. أرجوك. إذا كنتَ تُحبُّني لا تفعل ذلك؛ لأنك ستجرح قلبي أنا، ولن أسامحك».

هززتُ لها رأسي بالإيجاب، فقبَّلتني من رأسي... وترَجَّلنا.

- 45 -

قادتني انضباط إلى باب غرفة واسعة أو صالة في الطابق الثاني. كانت كلها بيضاء تقريبًا، وجدارها الجانبي المطل على شرفة واسعة تطل على حديقة المدخل، كان كله زجاجيًّا: مجموعة نوافذ مترابطة وفي منتصفها باب زجاجي هو الآخر. في عمق الصالة، في المنتصف، ثمة سرير من أسِرَّة المستشفيات، محاطًا ببعض الكراسي وطاولتين عليها باقات ورد وأجهزة، منها طبية وأخرى هواتف وأزرار كهربائية، وفي إحدى زوايا الغرفة سرير آخر. عرفتُ لاحقًا بأنه لانضباط؛ لأنها تنام قريبًا من منهل، وهو بعجلات تسحبه ليلتصق بسريره الطبي ليلًا، وتجره إلى الزاوية عندما تستيقظ.

تقدَّمتُ بخطوات بطيئة، فيما تراجعَت انضباط للسير خلفي، وهي تحمل جيفارا بين ذراعيها. لم أتبيَّن جسد منهل ووجهه جيِّدًا وسط كل هذا البياض إلى أن وصلت إليه، فهالني منظره. بدا كأنه شبح بعيد أو مومياء. أقرَع الرأس تمامًا وبلا أية شعرة في الحاجبين أو الشاربين أو اللحية أو ما بان من أعلى صدره. رقبة رفيعة متغضِّنة. جلد رقيق، رأس لامع، عينان غائرتان وشفتان بالكاد يمكن تمييزهما لأن كل لون بشرته كان واحدًا. أصفر خفيف، يكاد يكون أبيضَ كبياض الشراشف التي تحته والتي تغطيه والوسادة العالية تحت جمجمته. كان شخصًا آخر تمامًا غير الذي عرفته، ولم يبق من ملامحه القديمة إلا القليل ممَّا يدل عليه، كالأنف والأذنين وشكل الرأس. منظر مخيف لإنسان، لم أرَ مثله إلا في صالة الولادات في مستشفى الكرخ. بدا كأنه ينتمي إلى أولئك القوم من الأطفال العراة حديثي الولادة، ولا شيء يميِّزه عنهم إلا حجمه ولون جلده.

ارتفعت ذراعه النحيلة من وسط بياض الشراشف فصافحتها، وأنا أخشى أن تتهشَّم في كفي. تَبَدَّل شعوري كله لحظتها إلى أسى عليه وعلى الحياة، وخوف غامض. ابتسَمَ قليلًا فتعرَّفتُ عليه من خلال ابتسامته، فهي أكثر شيء في ملامحه قد حافظ على شكله، لكن صوته أوطأ ممَّا عهدناه، بطيئًا، خافتًا حد الاختناق، كأنه يتحدث من بعيد أو من عمق بئر.

- أهلًا أهلًا يا فنان. الحمد لله على سلامتك. كم أنا سعيد برؤيتك مرة أخرى. لقد عُدتَ في الوقت المناسب.

تقدَّمت انضباط أمامي بعد أن أفلَت كفَّه من كفي. انحنَت بجيفارا عليه، فقبَّله قائلًا: «أهلًا أهلًا. مَن هذا الطفل الجميل؟».

- هذا جاسم... ابن أمير.

فردَّد مستغربًا مبتسمًا متسائلًا: «جاسم!».

ابتسمتُ وصحَّحتُ: «جيفارا. جيفارا، لكن انضباط أسمته جاسم، خلاص».

فعلَّق مبتسمًا: «آه، الاسمان جميلان، لكن جاسم أجمل. العراقي يبقى عراقيًّا. هناك بين الرافدين ابتدأ العالم وهناك سينتهي: هناك كتبت امرأة أول قصيدة وهناك ستكتُب امرأة آخر قصيدة حزينة تختتم بها الوجود، وفي نهاية الأمر عادةً ما يعود المرء إلى أصله. هل تريد أن نغيِّر اسمه في الأوراق الرسمية إلى جاسم؟».

- لا، لا. هذا الاسم الذي أطلقَته عليه أُمه، ولا أريد تغييره. فيما يمكن لانضباط ولمن يشاء أن يناديه شفاهَةً بجاسم، أو جبارة، أو حتى جرو بن الجرو.

وضحكنا نحن الأربعة، حيث انتبهت إلى وجود كوثر أيضًا واقفة خلفنا، واقترَحَت: «وبالنسبة لي، كحل وسط، سوف أُدلِّعه جُوجُو».

بعد أن اطمأنَّت انضباط على هدوء وسلامة لقائي مع منهل، قالت: «نترككم أنا وكوثر لبعض الوقت. سنُحمِّم جاسم ونغيِّر ثيابه ونُطعِمه».

عندما بقينا وحدنا، قربتُ أحد الكراسي جوار رأس سريره، وقربت رأسي إلى رأسه، وسألته: «كيف حالك يا منهل؟».

فتنهَّد وقال: «كما ترى يا صديقي. ينخرني السرطان اللعين بشراهة، ولن يتوقَّف إلى أن يقضي عليَّ قريبًا، ولا علاج له سوى جرعات الكيميائي الحارقة، التي أسقطت كل شَعري مقابل تأجيل الموت قليلًا».

ثم صمت، فأخذتُ كفَّه ثانية بين كفَّيَّ وضغطت عليها برفق كي

أُوصل تعاطفي معه، تاركًا له الحديث على راحته: «كنتُ أتوقع وأحسب لشيخوخة طويلة وجميلة هي الأخرى؛ ولكن غُدِرَ بي فجأة. إنه لشيء مؤسف حقًّا أن يموت شخص مثلي، فهم لعبة الحياة جيدًا وأجاد لعبها.. آه، الموت هو معضلتنا الكبرى، ومشكلتنا الوحيدة التي لم نجد لها حلًّا. أحيانًا تُرعبني فكرة الموت، وكيف سأكون مدفونًا إلى الأبد تحت الأرض، لا أرى النور ولا أستطيع التنفس أو الحركة، فأكاد أختنق لمجرد تخيُّل ذلك. كم هو مؤسف وغير عادل تقسيم الزمن، حيث لا نحظى إلا بوقت قليل وبالكاد نرتب فيه حياتنا في خضم الحياة، فيما تمتد وتفيض حصة الوقت للموت بلا نهاية وبلا فائدة ولا معنى، وأحيانًا أخرى أتمنَّاه، أشعر بالتصالح وبقبول فكرة الموت باعتبارها راحة أبدية وخلاصًا من كل شيء، ويكفي أننا حظينا بفرصة رؤية الحياة، أو رحلة الحياة، أو حفلة الحياة مهما كانت فرصتنا قصيرة».

صمَتَ مرة أخرى، ثم غيَّر نبرته: «على أية حال، ليست هذه اللحظة المناسبة للحديث عن الموت، ولكنني بصراحة، أحتاج لمن أتحدَّث معه عنه؛ لأن الجميع يرفض ذِكر الموت أمامي أو معي، وكلما ذكرته نَهروني، على الرغم من أنه أكثر الأشياء حضورًا في ذهني وأذهان الجميع عند رؤيتي. أكثر ما يخيف الناس من الموت هو تبدُّد الجسد، أما أنا فأخاف أكثر من تبدُّد الذكاء. وأنا وإن كنت غير متديِّن إلا أن لديَّ تصوُّرًا بأن الله لن يعاقبني، وإنما سيقيِّمني حقَّ قيمتي... آمل ألَّا تكون مثلهم يا أمير، وأن تتحدَّث معي لاحقًا عن الموت».

- هاملت يسمِّي الموت «البلد المجهول»، وأنا واثق من أنك ستنجح في البلد المجهول القادم، كما نجحتَ في البلدان التي سبقته.

فابتسم برضى، ضغط على كفي وقال: «أمَّا الآن، فقل لي، كيف كانت رحلتك؟».

- تمام، كلها تمام. كانت حياة كاملة. سأحدِّثُك عنها فيما بعد.

- هل واجهتَ مشكلة في المطارات بسبب الوثائق؟

- لا.

- حسنًا، هي قانونية فعلًا، ولكن فعلناها بسرعة. مستعينين بمغربي يشبهك تقريبًا.

وضحِكَ، فأدركتُ أن مارينا قد اتَّصلت به، وأنه هو الذي أنجز هذه الوثائق وبعثها لها، عقَّب: «على أية حال، لا بُدَّ من تجديدها بشكل ما لتكون أضمَن. سأتَّصل بالمحامي رامون، بعد أن ترتاح، لتُرتِّب معه كل ما يتعلَّق بها، ولكي يشرح لك أمورًا أخرى».

ثم مدَّ ذراعه الثانية، تناول من على الطاولة في الجهة الأخرى باقة ورد من بين باقات عديدة، وقدَّمها لي: «هذه ورود استقبالك. كنت أتمنَّى لو أنني أستطعتُ استقبالك بنفسي، مثل المرة السابقة».

-46-

خصَّصوا لي غرفة كبيرة في الطابق الأرضي، مجاورة للمطبخ، ببابين، أحدهما داخلي ينفتح على الصالة، والآخر خارجي يؤدِّي إلى الحديقة الخلفية، وفي الغرفة حمام واسع مُغَلَّفٌ بالسيراميك الفاخر، وسرير كبير لي، بجواره سرير بحواجز خشبية لابني جيفارا. قبل أن آوي للنوم في ليلتي الأولى، دلفتُ إلى المطبخ بحثًا عن كأس نبيذ أحتسيه، وحين رأتني كوثر أبحث في الثلاجة الكبيرة وفيما حولها، عرفَت ذلك، فأخبرتني بأن: «الكحول ممنوع هنا بتاتًا، بأمر السيدة أُختك، وكذلك التدخين ممنوع في الداخل؛ لذا اخترنا لك غرفة بباب خارجي».

وقبل أن أنام انتبهت إلى الشبه حدَّ التطابق، بين باقة الورد التي قدَّمها لي منهل اليوم، وتلك التي استقبلني بها قبل أكثر من عشرة أعوام، وعند خلع الورق الذي يلفُّها من الأسفل، فاجأني أن نهايات الأغصان كانت مجموعة في فردة حذاء طفل رياضي بحجم القبضة، أدهشني فعله مرة أخرى، وابتسمتُ له وحدي، مطمئنًّا على أن وعيه وذاكرته ما زالا جيِّدين

رغم تفشِّي المرض في بدنه، وبالفعل وجدته كذلك في الأيام التالية، لا يكفُّ عن مواصلة ترتيب تفاصيل أموره قائلًا بأنه محظوظ؛ كونه عرَف بدنو موته؛ ممَّا يتيح له فرصة ترتيب كل شيء بطريقته قبل أن يرحل. يتواصل مع معارفه والأطباء والمحامي من خلال أزرار هواتف بجوار سريره، يأتيه المحامي مرَّة في الأسبوع، هو ذاته الذي عرفته يسهر ويسكر معه في مطعم انضباط. كبر هو الآخر وازدادت صلعته اتِّساعًا، لكنه لا زال على مرحه وذكائه وانسجامه التام مع منهل، يمضيان بضعة ساعات بالأحاديث والتآمُر وتقليب الأوراق والضحك. هو الذي أخبرني بأن منهل قد باع كل أملاكه، باستثناء هذه الفيلَّا، سجَّلها باسم انضباط، ومطعمه الأول «انضباط» والشقة التي فوقه، وسكنت أنا فيها من قبل، سجَّلهما باسمي. كما دوَّن وصيَّته ليكون كل إرثه من بعده إلى انضباط، ولديه في البنك قرابة الخمسة ملايين يورو، وبشأن أوراقي وأوراق ابني كالجنسية وجواز السفر وغيرها، قال هذه أمور سهلة، أنا سأتبنَّاها، ولكن يجب أن ترافقاني في بعض المراجعات. أما عن القضايا التي أبعداني بسببها إلى كولومبيا، فقد تم تسوية كل متعلقاتها المالية، وبقي فقط الحق العام، وهو في العادة السجن لبضعة أشهر، لكنه سارع بتطميني قائلًا بأنه سيكون حُكمًا مع إيقاف التنفيذ؛ لأن القضايا الرئيسية تمَّ حلُّها، ولأنك بلا أية سوابق. أخبرني أيضًا بأن مانويل قد طلب في وصيته أن يتمَّ دفنه هنا وعدم نقل جثمانه إلى العراق، وقد أعد وبنى قبره في مقبرة إسلامية بتصميم خطَّطَه بنفسه لبَنَّاء مغربي، تكفَّل بجلب سيراميك خاص حدَّده له مانويل وشاهدتين جاهزتين، وحين سألت منهل لاحقًا عن سبب ذلك قال: «الأرض كلها قبر واحد لنا، كما لا داعي للإنفاق والتعب على نقل جثمان ميت، وبصراحة، حتى القبور هنا أكثر أمانًا من هناك، فما أكثر ما نبشوا قبورًا عبر التاريخ في العراق وبعثروها، وسيبقون يفعلون ذلك بأية حجة تافهة، أما هنا، فمهما غضب بضعة متعصبين حمقى من بضعة متعصبين حمقى آخرين، فلن يفعلوا أكثر من سكب علبة أصباغ على حَجَر القبور».

على مدى الأيام اللاحقة، كنت أكتشف المزيد من مفاجآت منهل، وأتوقَّع المزيد. من ذلك مثلًا، أن أختي انضباط أعطتني كيس أوراق بنكية ومن بينها دفتر توفير وبطاقة حساب باسمي، هو الحساب القديم ذاته الذي فتحه لي أول قدومي ولم أستخدمه أنا، فيما كان يستخدمه هو لتحويلات أموال إلى الخارج تتعلق بتجارته. وجدتُ في حسابي مئة وأربعين ألف دولار، وحين سألته عن ذلك قال: «هذا راتبك منذ أول عملك معي إلى أن صَفَّيْتُ كل أعمالي، الحقُّ حَقٌّ، فحتى في أعوام غيابك كنتَ أنت عاملًا عندي، واستخدمتُ أوراقك الشخصية لتجاراتي». وضحك. ممَّا قاله أيضًا: «(كلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له)، بالنسبة لي كان كسب المال لعبة سهلة وممتعة، بينما هو أمر صعب أو حتى مستحيل على كثيرين، وبالمقابل، حُرِمتُ من حلم الإنجاب، أما أنت، فكان الأمر معك معكوسًا. سهولة ومتعة الإنجاب، وصعوبة جني المال. هكذا هي الحياة، لا أحد ينال كل شيء».

كنت أقضي معه الكثير من الأوقات في أحاديث من هذا النوع، وكذلك مع أختي انضباط عندما ينام منهل. أخبرتني بكل ما مرَّ عليها في غيابي، عن موت أمي وعن عائلة أبي الأخرى. قالت بأنه سعيد الآن في حياته وخاصة أن ولديه التوأم «عقيد» و«عميد» قد دخلا كلية الشرطة كما أراد، وأرَتني صورة لهما بملابسهما العسكرية. شابَّان قويَّان، وسيمان، وأبي يتوسَّطهما. وهو يبحث لهما الآن عن عروسَيْن كي يزوِّجهما حال تخرُّجهما، وقالت عنهما انضباط بحب صادق، إنهما طيِّبان ورائعان. قالت بأنهم دعياها للعيش معهم، لكنها فضَّلت البقاء في بيت القرية ولم تنقطع الزيارات بين البيتين، وأن إخوتي التوأم والأختين الأخريين كانوا يكثرون من الأسئلة عني، ويتمنُّون اللقاء بي، أما أبي فقد كان يتحاشى ذكري تمامًا، وإذا ما جاء اسمي في سياق الحديث تبدو عليه ملامح غصة وسكوت، ثم يغيِّر الموضوع، وأخبرتني عن أن زهراء قد صارت ممثلة مشهورة وتشارك في مسلسلات شهر رمضان التلفزيونية هي وزوجها وابنتها.

لم أكن أخرج في الأيام الأولى من البيت إلا قليلًا، في بعض المساءات، بصحبة كوثر؛ من أجل أن يلعب جيفارا مع الأطفال في أراجيح الحديقة العامة المجاورة، وهناك بالطبع، كنت أتبادل معها الأحاديث، فعرفتُ بأنها تشعر بالوحدة بعد زواج أختيها وعدم زواجها هي وقد تجاوزت الأربعين، وإن كانت تزور أحيانًا بيتَيْ أختيها وتتسلَّى باللعب مع أطفالهن؛ لكنها لا تريد إعادة تجربة التعلُّق بأطفالهن، وبالتالي المزيد من التضحية بعد أن ضحَّت كثيرًا لأمَّيْهم.

أعطتني مجلَّة عربية خاصة بالمسرح، من تلك التي تصدر في لندن، وقالت إنها وجدتها في مكتبة «فناك» ذات مرة، ودفعها الفضول لمعرفة شيء عن هذا الذي يشغلني وأكثر ما يهمني في الحياة، كما ذكرتُ لها في أحد أحاديثنا في مطبخ المطعم، في الأيام الأولى من قدومي، ثم قالت: «بصراحة، لم أفهم منها شيئًا»، وضحكَت، فضحكتُ أنا لضحكها وشَكَرتها، وبعد أن قلَّبت صفحات المجلَّة قليلًا، قلتُ لها: «إنها مجلَّة جيِّدة وتصدر أسبوعيًّا، ليتكِ تأتينني بها كلما رأيتِها». فسرَّها ذلك، وراحت تجلبها لي بانتظام، ومن خلالها كنتُ أتابع بعض مستجدَّات المسرح العربي، والتي لم أجد فيها أي جديد حقيقيٍّ، مقالات بمواضيع مكرَّرة كنَّا نقرأها منذ أيام الجامعة، تتعلَّق بأزمة المسرح، شُحُّ الدعم الحكومي ونقص اهتمام الجمهور، ومقالات أخرى مُترجَمة عن تجارب عالمية قديمة وجديدة، كان يسرُّني أن أجد بينها أحيانًا مقالة عن مسرح الطِفل والمسرح المدرسي، إضافة إلى حوارات مع مسرحيين وصفحات أخبار عن المهرجانات والأعمال الجديدة في داخل البلدان العربية وخارجها، وهي أكثر ما كانت تهمني قراءتها أثناء تدخيني في الحديقة الخلفية أو قبل النوم.

قالَت إن مجيء انضباط إلى هنا قد خفَّف من شعورها بالوحدة، وأنها أحبَّتها ربما أكثر من أختيها، وهذا ما لاحظته منذ البداية في علاقتهما المتفاهمة والمنسجمة والمفعمة بالحنان والحب. كلتاهما تجاوزتا

الأربعين، أختان كبيرتان في العائلة، وقع عليهما عبء التضحية من أجل الآباء والإخوة الأصغر. لم تتزوَّجا ولم تُنجبا. طيبتان، بسيطتان، متديِّنتان، متحجِّبتان، وكنت منذ أول تَعرُّفي على كوثر، أرى فيها صورة شبيه باختي انضباط، وها هو القَدر يجمعهما معًا. أخبرتني بأن منهل لم يتخلَّ عنها أبدًا، وساعدها في سَداد القَرض المتبقي للبنك من ثمن شقة أهلها، وهي لها الآن، بعد موت أمها وزواج أختيها، وأنها انتقلت للعمل هنا في البيت معه، منذ أن تمَّ اكتشافه لمرضه ومسارعته ببيع محلاته وتصفية أعماله. كما أن أختيها تركا لها بيت العائلة الذي ورثته عن والديهنَّ في مدينة «أصيلة» في المغرب، وتُعلِّق على ذلك بالقول: «الحمد لله، هذه نِعَم كثيرة وكبيرة بالنسبة لي».

ثم تضيف بحزن شفيف وغصَّة: «ولكن، ما فائدة كل ذلك وأنا وحيدة!».

- 47 -

أصبح «جيفارا» أو «جاسم» أو «جُوجو» الحبيب المُطلَق لانضباط وكوثر، كانتا تُدلِّلانه بالعناية الفائقة وجلب الثياب واللعب والحديث معه بالعربية. كانتا سعيدتين به حقًّا، بحيث بدا وكأنهما شكَّلتا عائلتهما المستقلَّة داخل العائلة، هما الأبوان وهو الابن، وهذا أمر أراحني كثيرًا بالتأكيد، ومنحني المزيد من الطمأنينة والوقت للتفكير بنفسي مع نفسي، وفي بعض اللحظات فكَّرت بأن بعضًا من قدري سيطال ابني، فطوال حياتي كنتُ مصدرًا لإسعاد الآخرين أكثر من تركيزي على سعادتي الذاتية. كما أنني كنت دائمًا في ظل رعاية وإدارة امرأة ما، وهكذا لم يكن لي أي صديق حقيقي ذَكَر في حياتي باستثناء هاني. على الرغم من أنني عرفتُ وزاملتُ الكثيرين في مراحل حياتي، الطفولة، والمراهقة، والشباب، والجامعة، والجيش وما بعدها، وأغلبهم كان يعتبرني أو يخاطبني «يا صديقي» بما فيهم منهل؛ لكنني أبدًا لم أشعر، ولم أجد

ما يمكن اعتباره صداقة حقيقية، باستثناء هاني، والذي انتهى بالتحوُّل إلى أخ تقريبًا. على العكس من ذلك، كانت علاقاتي وصداقاتي بالنساء أغلبها حقيقية وعميقة، وهي التي رسمت كل مراحل وخطوط سَير حياتي. هكذا كنت أفكر وابتسم كلما رأيت جيفارا سعيدًا بين الأذرع السعيدة به لانضباط وكوثر.

بعدها، أصبحتُ أخرج للتجوال في المدينة. زيارة الأماكن والمقاهي والمباني التي عرفتها واحتساء كؤوس لا أجدها في البيت، الذي يتوفَّر فيه كل شيء إلَّاها، حَمل العَدد الجديدة من مجلة المسرح التي تجلبها لي كوثر، وتصفحها أثناء تناولي إفطار ثاني خارج البيت، حيث يلذُّ لي الجلوس في مقاهي الأرصفة في الصباحات الجميلة، رائحة القهوة، الخبز المُحمَّص، زيت الزيتون، التدخين الحُر، أصوات الباعة، ضحكات السائحات... ثم التمشي باتجاه البحر، والجلوس طويلًا على مصطبة مطلَّة على بِلاج الميناء القديم... وفي إحدى جولاتي، عرَجتُ للسلام على كارمن في بارها ذاته، المقابل لمطعم انضباط المغلق الآن، هو والشقة التي فوقه، واللذين أصبحا ملكي. وجدتها مشغولة خلف دكة البار تملأ كؤوس البيرة كما تركتها منذ أعوام، وإن بان عليها تقدُّم السن، شابت ذوائبها. ازدادت سمنة، تهدَّل ثدياها أكثر، وأهمَلَت العناية بنفسها تمامًا، لكنها كانت أكثر هدوءًا ورضًى وسعادة. لم تعرفني في بداية الأمر، أو لم تتوقَّع أن أكون أنا. حين جلست قبالتها خلف الدكة وطلبتُ كأس نبيذ، حيث راحت مباشرة تفتح إحدى القناني بآلية، ثم انتبهت فجأة، فرمَت القنينة وهتفت بصوت عالٍ، لفَت نظر كل الزبائن في البار: «أميييير. مستحيييل!».

ودارت لتخرج مسرعة من وراء دكة البار وتأتي لاحتضاني طويلًا بحميمية. ثم تبادلنا التحيات سريعًا والسؤال عن الحال. قالت بأنها بخير وكل شيء تمام. الصحة والعمل والمزاج، «ولا رجال في حياتي والحمد لله»، وضحكت؛ لذا تركَت نفسها تزداد سمنة على راحتها. «لم

يعد يهمني الرجال بعد أن حصلتُ على كنز حياتي (إندِبات)». لم أفهم في البداية قصدها، ثم تذكرتُ سريعًا أنها تعني ابنتها، ابنتنا «انضباط» أكبر أبنائي الأحياء، وقد تجاوزَت العاشرة الآن. فسألتها عنها وهي تعود خلف الدكة لإكمال ملء كأسي وتلبية طلبات زبائن آخرين. قالت: «إنها فتاة رائعة وجميلة وذكية ومتفوِّقة في دراستها. إنها كنز حياتي كلها. ستأتي بها النادلة من المدرسة بعد قليل».

ظلَّت كلمة «فتاة» تتردَّد في ذهني، وشعرتُ بأن دقات قلبي تتسارع. لا أعرف ما الذي حلَّ بي بالضبط. شعور غامض. مزيج من الخوف والفَرح، من الوَجَل واللهفة، من الرضى وتأنيب الضمير، وما إن أكملتُ كأسي، حتى دخلَت الفتاة، الطفلة الكبيرة الجميلة بثيابها المدرسية وحقيبتها على ظَهرها. ضفيرتان على جانبَيْ رأسها خطفتا قلبي، فراح يركض معها وهي تركض باتجاه أمها لتعانقها، بعد أن أفلَتت كفَّها من كفِّ النادلة حال دخولها من الباب الرئيسي. وجدتُ نفسي أنهض عن مقعدي، وكدت أركض أنا الآخر وأحتضنها. أحتضنهما معًا، لكنني بقيت مضطربًا مرتبكًا لا أدري ماذا أفعل، تاركًا الأمر لأمها. على وجهي ابتسامة بلهاء، وأُطمئن قلبي لصواب عدم مبادرتي، بعد أن رأيت كارمن تغمز لي مبتسمة.

ذهبَت الطفلة مع أمها خلف الدكة. رأيتها تضع حقيبتها وتأخذ مريلة/ صدرية عاملات، علَّقتها في رقبها وكانت على قياسها. أثناء ذلك، اقتربَت مني كارمن وهمست لي: إنها تُحب أن تتصرَّف ككبيرة دائمًا، تساعدني في البيت، وهنا عندما تجيء. ثم قرَّبت رأسها وبصوت أخفض: اذهب واجلس على الطاولة. سأطلب منها أن تقدِّمَ لكَ كأسك.

غمزت لي مرة أخرى، وقالت بصوت عالٍ مخاطبة طفلتها: «من فضلك يا حبيبتي، قدِّمي لذلك السيد كأس نبيذ من هذه القنينة».

ومن أبعد طاولة جلست عليها، رأيت ابنتي تتلقَّى الأمر من أمها بفرح، والأم تُنقِّل نظرها بيننا مبتهجة، ولكن، حين التَفَت الطفلة من

خلف الدكة حاملة الكأس ومقبلة نحوي، وعندما صارت في منتصف المسافة، نادتها أمها فتوقَّفَت. قالت لها: «هذا هو والدكِ».

فانقلب كل شيء. تجمَّدت الطفلة في مكانها. انقلبت حيويتها إلى تحجُّر، وتحوَّلت ملامحها الطفولية البريئة المبتهجة، من الصدمة إلى التفحُّص، إلى العصيان، إلى التمرُّد، إلى الغضب والتنمُّر. كما انطفأت الابتسامات والنظرات المتبادلة بيني وبين أُمها، ونحن نترقب بقلق خطوتها القادمة.

استدارت الطفلة وألقت الكأس بما فيه، بكل قوتها، في علبة الزبالة التي في أسفل مقدِّمة الدكَّة، ثم انطلقت راكضة صوب باب الخروج، ومن حسن الحظ، أن النادلة كانت قريبة منه، فالتقطتها في حضنها قبل أن تلقي بنفسها في الشارع. نهضتُ أنا سريعًا أساعدها بالسيطرة على الطفلة التي كانت ترفس بقوَّة للتخلُّص منها، ولكنني ما إن لمست ذراعها، حتى توقَّفت عن الرفس، ونظرت إليَّ بوجه صار بالغ الاحمرار لشدة الغضب، وصرخت بأعلى صوتها: «لا تلمسني».

ثم عادت إلى الداخل وألقت المريلة بعنف، فسارعَت إليها أمها وقادتها دخولًا إلى المطبخ. وقفتُ في مكاني للحظة، لا أدري ماذا أفعل. هل أخرج وأغيب عن ناظريها إلى الأبد، أم أدلف إليهما وأساهم في فهم وحل الموقف، وبلا تفكير طويل، وجدتُ نفسي أتبعهما إلى المطبخ. وجدتُ الطفلة جالسة على الكرسي، عاقدة ذراعيها على صدرها بقوة، وأمها جاثية أمامها على ركبتيها فوق الأرضية الدَّبِقة لتهدئتها، وتسألها برفق وحنان: «ماذا حدث؟ لماذا تفعلين هذا يا حبيبتي؟».

فأجابتها الطفلة: «أنا لا أخدم الحُقراء».

- ولكن هذا هو والدكِ الذي طالما سألتِني عنه وحدَّثتكِ عنه!
- لا، ليس أبي.
- بل إنه أبوكِ. وأنا أمك التي تُحبك، أُؤكِّد لكِ ذلك.
- لا أُريده.

كانت كارمن تمسِّد على ركبتَيْ طفلتها الصغيرتين وظهرها ورأسها

وكل أنحاء بدنها في لحظة واحدة: «إنه يُحبكِ، وقد جاء من سفره الطويل كي يراكِ».

- لا أُحبُّه.

التفَتَت إليَّ كارمن، ثم نهضت وقادتني قليلًا إلى الخلف، قرب باب المطبخ وهمست في أُذني: «لا عليك، لا تهتم، فهي غاضبة. ربما أخطأتُ في عدم تخطيطنا مُسبقًا وجيِّدًا للقاء. اذهب أنت الآن، وأنا سأتكفَّل بالحديث معها لاحقًا».

ألقيتُ نظرة أخيرة على الطفلة قبل أن أخرج، فوجدتها تنظر إليَّ بعينين تكادان تطلقان الرصاص، ثم أخرَجت لي لسانها رفضًا أو قرفًا، وحال استدارتي للخروج سمعتها تقول: «أكرهك».

وتلتها ببصقة أو صوت بصقة، فخرجتُ مسرعًا وأنا أشعر بأكبر إهانة في حياتي. إهانة لم أتلقَّ بقوتها لا من أبي ولا من معلمي الابتدائية، ولا في الجيش، ولا من أحد على الإطلاق. شَعرتُ بأن لسانها الذي أخرَجَته نحوي كان خنجرًا طعنني في صميم قلبي، وأن بصقتها رصاصة قاتلة في ظَهري، أو أن شاحنة قاذورات أُفرِغَت فوقي باستحقاق.

رحتُ أسير في الأزقَّة بلا هدى. لا أكاد أرى شيئًا، وحين تنبِّهني أبواق السيَّارات إلى أنني أقطع الشارع من مناطق ليست للعبور- كنت أتمنَّى لو أن سيارة تدهسني، تسحقني وتعجن لحمي بعظامي كما حدث لإيراسيما... أمشي وأمشي ويزداد شعوري بالانكماش، بالضآلة، وباحتقاري لذاتي. أمشي وأمشي ويزداد شعوري بأنني ألجُ بحرًا أو متاهة في سراب، أتوغَّل فيها دون رؤية شيء، أزداد اختناقًا، وفي نفسي أتمنَّى وأنتظر لحظة غرقي التام فيها، وغيابي إلى الأبد، بل نهايتي... تعاودني ذكرى ليلة لقائي الأول بالموت. جثّة وليدتي أميرة الزهراء في عُلبة أحذية، دفني لها سرًّا وهروبي، وخذلاني لها ولأمها، فأودُّ لو تنتقم مني انضباط الصغيرة على خذلاني لها هي الأخرى. تَحملني في كيس زبالة بار أُمها، وتدفنني تحت زاوية أي مبنى قديم.

لم أخرج من غرفتي بعدها لأيام، سوى مرتين، اشتريت فيهما من محلٍّ صيني قريب كل ما استطعت حمله من السجائر وقناني النبيذ الرديء. تمرَّدت على قوانين البيت ورحت أشرب وأدخِّن داخل الغرفة طوال الوقت؛ ممَّا اضطر انضباط وكوثر لنقل سرير جيفارا إلى غرفة كوثر. لم أعد أصعد لتناول الطعام معهم في صالة منهل أو في شرفته، فكانت تأتيني انضباط بالأكل أو تبعثه مع كوثر. أتساءل: «مَن أنا بعد كُل الذي مَرَّ بي؟ وماذا أريد بالضبط؟».

تُربِّت انضباط على كتفيَّ، بعد أن أخبرتها بما حدث، تحتضنني، تُقَبِّلني وتتوسَّل بي أن أرحم نفسي من تعذيب نفسي، وتقرأ على رأسي هامسة، بعض الآيات القرآنية والأدعية، ولكنها لم تبكِ كما فعلت حين حدَّثتها عن حبي لإيراسيما وموتها، بل وجدتها تزداد قوَّةً كي تقوِّيني، وتجتهد بإيجاد أي حلول لحالتي بعد أن أخبرَت منهل وكوثر بما حدث لي. تصف لهم تفاصيل حالتي بعد كل مرة تمرُّ بها عليَّ، وتتداول معهما عمَّا يمكن فعله لإخراجي من بئر الكآبة الذي سقطتُ فيه. صارت تكثِّف رعايتها لي بحيث كنت أتوَّهم أحيانًا بأننا قد عدنا أطفالًا، وهي تحميني من الأطفال الآخرين ومن منهل نفسه. ترعاني وتمشِّط لي شَعري. أتذكَّر متأرجحًا بين الصحو والنوم، بين الوعي والسُّكْر. أنني انتحبت على صدرها قائلًا: «أُريد أمي».

وبعد موجة بكاء عاتية، تذكَّرتُ أن أمي ميتة، فقلت: «أريد أن أموت».

وحتى بعد أن أهدأ، تظلُّ حمَّى حواراتي الهاذية مع نفسي تحرق داخلي: «تمضي الحياة بنا دون توقُّف، ومع كل يوم يمرُّ نشعر بأن وجودنا فيها يقترب من نهايته، ونحن ما زلنا لا نفهم معنى وجودنا فيها. لم تكن حياتي سوى أبناء وأحذية. أبناء وأحذية... وكلاهما للآخرين وليس لي. هل سيكرهني كل أبنائي يا انضباط؟ لماذا؟ أين علبة السجائر؟ إن

كوثر معها حق حين أسمتني ذات يوم (ثور ضائع). آن لهم القبض عليه وربطه... بل ذبحه وتوزيع لحمه على الجميع بعد أن وزّع حيامنه ولَوثَة متاهته على الجميع. شكرًا على المَجلة يا كوثر. هل نام جيفارا؟ ربما أن إنجاب طفل هو تجديد لعُقَدِنا مع الحياة، وإتاحة المزيد من الوقت بانتظار التوصل إلى إجابات معينة، وأنتَ جدَّدتَ عقدكَ مع الحياة سبعًا وعشرين مرة، ولكنك كنت دائمًا الطرف الذي لم يلتزم بهذه العقود. ربما لأن الأطراف التي تعاقدتُ معها على الحياة، لم تلتزم بعقودها معي. أعتقد بأنك تقصد زهراء وإيراسيما بهذا القول أكثر من غيرهما... لقد قالها هاملت: (أيّها الضعف الذي أُسمِّيك امرأة). وماذا؟ نكون أو لا نكون؟ ما الفرق؟ ما الجدوى؟ أين وضعتُ الكأس والقِداحة؟ أين هي زهراء الآن؟ لماذا فارقتِني مبكّرًا يا إيراسيما؟...».

شيئًا فشيئًا أخذت انضباط تُخرجني من حجرتي إلى الحديقة الخلفية، ونمضي الساعات الطويلة ليلًا بالأحاديث. ذكريات الطفولة وتحليلها، ما مرَّ بي وما مرَّ بها. علاقاتنا بوالدينا وبالآخرين، وتقول لي بأنه لا فرق تقريبًا في النتائج، أنتَ عصيتَ أبي فخسرتَ حياتك، وأنا أطعتُ أبي فخسرتُ حياتي. النتيجة تبدو واحدة، كما يُمكن أخذها على نحو آخر مختلف، أو حتى تقبُّل الأمر على أنه هكذا، وأن حياة الإنسان في مجملها هي سلسلة من التكيُّف على تقبُّل خساراته وصولًا إلى الخسارة النهائية. خسارة الحياة ذاتها. بشكل ما، إن طبيعة مواقفنا مع الخسارات هي التي تشكِّل حياتنا، ومهما فعلنا فإننا جميعًا أبناء طفولتنا وسنحمل أثر بصمات آبائنا على تكويننا، بِغَضِّ النظر عن طبيعة علاقتنا بهم، بل إن حتى عدم وجود أية علاقة بهم، سيترك أثره فينا ولو كُنَّا من صخر صوَّان، وعليه فمن الاستحالة ألَّا يكون لك أثر على كل أبنائك الذين أنجبتهم، مهما أوهمتَ نفسك بقناعة أنك كنت واضحًا مع أمَّهاتهم منذ البداية، وبألَّا علاقة ولا شأن لك بهم على الإطلاق؛ لذا فمن رأيي أن نبحث عن حلول ما، ضمن الممكن، لإيجاد سبل لتصالحهم مع أنفسهم بهذا الشأن، ولتصالحكَ أنتَ مع نفسك أيضًا.

على هذا النحو الذي بدا لي عميقًا، كانت تتحدَّث انضباط أحيانًا. أظنُّ بأنه كلام تقتبسه من منهل أو هي متأثرة به حين يتجلَّى متفلسفًا في بعض جلساتنا التي كانت تطول في الشرفة، يسترسل بهذا النوع من الأحاديث كأنه وحده، دون مقاطعة مني، فيما تصيبه أحيانًا حالات من الخرَس التام وعدم الرغبة بنطق كلمة. يطيب له تبادل الأدوار ويكتفي بالإنصات لي حين أتحدث عن حياتي وتجربتي على هذا النحو التحليلي. ممَّا كان يقوله لي: «أنت محظوظ يا أمير، لم تضطر لعمل شيء لا تحبه، لم تجرِ كالوحش وراء مكاسب، لم تؤذِ أحدًا عن قصد، وليس لك أعداء مثلي».

- ربما أكون محظوظًا، ولكن ثمة حزن عميق في داخلي أجهل مصدره.

- إنها مقبرة الأحلام القديمة وجثث الإجابات عن الأسئلة القديمة. سيحزن كلُّ مَن تأمَّلها في داخله جيِّدًا، أما أنا فحزني معاكس، وهو آتٍ من المستقبل لا من الماضي مثلك ومثل الآخرين، يحزنني عدم امتلاكي للمستقبل، يحزُّ في نفسي أنني لن أحظى بفرص المشاركة في الألاعيب البشرية القادمة، ولن أجد الوقت لاختراع المزيد من الأحلام الجديدة، ولا الفرصة لصنع المزيد من الأسئلة والإجابات المستقبلية.

- أمَّا أنا، فحتى أنني لم أحقِّق شيئًا من حلمي الأول الذي أردته لحياتي وتمرَّدتُ على أبي من أجله، بينما أنت حقَّقت كل ما تريده.

- هذا ليس دقيقًا. كل الأشياء نسبية، والحقيقة الوحيدة هي الشَّكُّ. الشَّكُّ في كل شيء.

وحين لامس في حديثه ذات مرة علاقة الأبناء بالآباء، وربما ليخفِّف عني بشكل ما، قال: «لا تهتم. لا تُوهم نفسك بحمل ذنب كبير هو في الحقيقة ليس ذنبك وحدك، فمثلًا، ألم تلحظ بأن أغلب قصص الأطفال وأفلام الكارتون وأفلام الأطفال خالية من وجود ودور الآباء؟! إننا نعمل لتنشئة أجيال منفصلة، مستقلَّة؛ ليسهل انقيادها للسوق، فتتحوَّل بإرادتها إلى مجرد عُمَّال ومستهلِكين».

- حتى هذه تاجرتَ فيها؟

فضحكَ بزهو يُذكِّره بإجادته للعبة الحياة وذكائه فيها. استعاد لذَّة تبجُّحه، وقال: «نعم، كما أدخلتُ يدي حتى في ميدانك، المسرح، ساهمت في إنتاج أعمال لشباب موهوبين هنا في برشلونة، لكن المشروع كان خاسرًا اقتصاديًّا، وإن كانت التجربة ممتعة. ربما أنكَ أصبتَ بالتخلِّي عن تبديد حياتك في المسرح، والاكتفاء بعيش الحياة ذاتها، كما هي».

ويواصل ضحكه.

من أنواع الأحاديث الأخرى الطويلة مع انضباط، كانت تتبنَّى الرؤية الدينية معي، فأجدها مُحِبَّةً لهذه الرؤية أكثر من غيرها، وربما تعتبرها تمرُّدَها الوحيد على أبينا الذي لم يجعل للدين وجودًا في حياتنا، وأن انتصارها عليه كان بانحيازها إلى أُمِّنا في هذا الجانب، مثلما تعتبر زواجها المتأخر والشكلي انتصارًا آخر على أبينا، وكلها انتصارات ناعمة وحكيمة كما يصفها منهل: «هي التي لم تُرِد شيئًا لنفسها فحازت في النهاية على كل شيء، سلامها الداخلي، مرضاة والديها، مرضاة نفسها، ومرضاتنا وحبنا لها. كل الذين عرفتُهم، كانوا يريدون مني شيئًا إلا هي؛ فأعطيتها كل شيء».

كانت تحدِّثني عن القسمة والنصيب والمصير. عن الإيمان بالقَدر: خيره وشرِّه، كرُكنٍ أساسي في الإيمان، أوافقها أحيانًا، لكنني أخالفها، بل وأطالبها بالكفِّ عن الإلحاح، حين تطرح عليَّ حلولًا غير عملية من أجل خلاص روحي وتبرئة ذمتي أمام الله، كما تصف. أرجو منها التوقُّف عن ذلك، فتقول: «هذا حرام يا أمير، وأنا لا أريد أن تقابل ربنا يوم القيامة وأنت مُحمَّلٌ بالحَرام، فعلى الأقل، حاول أن تتوب إلى الله وتستغفره عن ذنوبك وتصلِّي وتصوم».

تؤيِّدها كوثر حين تكون حاضرة معنا. فأقول لهما: «هذا تمثيل على الرب، مثل أغلب طقوس المتديِّنين». فتسارعان بإنهاء الحوار؛ كي لا

أنفعل أكثر وأتجاوز على الدِين أكثر. تطلبان منِّي الاستغفار، وتختمان الكلام بنصيحة، تبدو غير جادة، وكأنهما تريدان تبرئة نفسيهما: «على الأقل، اسْتَشِرْ شيخًا أو إمام مسجد، ليجد لك تخريجة ما».

كان الثلاثة في البيت يتعاونون لإخراجي من هبوطي، بكثرة وطول وتنوُّع الأحاديث، فعدتُ تدريجيًّا إلى مشاركتهم موائد الطعام، وكانت تسعدني رؤية انضباط ومنهل يتهامسان ثم يضحكان كطفلين ويتمازحان. يشاركاننا أحيانًا سر ضحكاتهما وطرائف من ذكريات علاقتهما، أو حتى بالسخرية من بعضها ومن نفسيهما، كسخريتها من قَرْعَته ثم انتهائها بتقبيلها، وكانت ذروة المفاجأة وإحداث التحوُّل بالنسبة لي، هو الاحتفال الذي رتَّب له ودبَّره الثلاثة دون علمي. كان ذلك في ليلة عيد ميلادي، والذي كنتُ قد نسيته أصلًا.

يبدو أن الأمر كان مجرد أمنية عبَّرت عنها انضباط في جملة عفوية عابرة، والتقطها منهل بجدية وحماس لتطبيقها، وهو الشغوف بمفاجأة الآخرين وإبهارهم عبر توظيف ذكائه واجتهاده ومساعيه لتحقيق ما قد يبدو للآخرين مستحيل التحقيق.

- 49 -

مَهَّدوا لي الأمر منذ الصباح، أثناء تناولنا الإفطار في شرفة صالة سرير منهل. كلهم قبَّلوني وهنَّأوني بمناسبة عيد ميلادي وأخبروني بأنهم يعدُّون لي حفلة خاصة هذه الليلة. حاولتُ ثنيهم عن ذلك وأنني لم أعتد الاحتفال بعيد ميلادي، وفي أغلب الأحيان يمرُّ حتى دون أن أتذكَّره، لكن حماسهم وبهجتهم وقولهم إنها ستكون بسيطة وصغيرة جعلني أوافق؛ لذا لاحظتُ حيويتهم تزداد وتهامسهم يتكرَّر، وانسحب منهل مبكِّرًا بعد الإفطار وراح ينشغل باتصالاته الكثيرة عبر الهواتف المجاورة لسريره. قالت لي انضباط إن عليَّ أن أحلق شعري ولحيتي على الأقل، فقلت لا داعي لذلك، لكنها ألحَّت وقالت لا بُدَّ من ذلك، ولو مجرد

تشذيبات. تذكَّرتُ وذَكَّرتها أن إيراسيما كانت تحب أن تراني هكذا، فقالت كوثر: «ليس هكذا بالضبط، وإنما مثل جيفارا، فيما أنت الآن طويل اللحية، وشَعر رأسك طويل كفتاة». وابتسمَت، فابتسمتُ لها قائلًا بأنها على حق، فاقترَحت عليَّ أن أُرافقها الآن إلى صالون حلاقة مغربي للرجال وللسيدات، تعرفه جيِّدًا وستوصيهم بالمطلوب، ثم تذهب في مهمة أخرى، فأفرَح ذلك انضباطَ وحثَّتنا على الاستعجال، قائلة بأنها ستتولى هي لملمة أواني وبقايا الإفطار. في الطريق، قالت لي كوثر بمزاج ومرح: «ولكن احذر أن توقِعك إحداهن، فهنَّ جميلات».

طمأنتها مبتسمًا وبالقول إنني «خلاص، قد كففتُ عن ذلك وكبرتُ»، فاعترضت قائلة بأنني في عزِّ الشباب، وأنها سمعت الكثير من الناس يقولون بأن أفضل وأنضج سنوات العمر هي بين الأربعين والستِّين؛ لأن الواحد منا يكون قد ترك حيرة الشباب والكثير من الفنطازيَّات خلف ظهره، وصار يعرف نفسه أفضل، ويعرف ما يريد جيدًا وبوضوح.

دخلَت قبلي وتبعتها إلى صالون ذي ديكور شرقي مغربي جميل لم أر مثله منذ زمن. الأرائك والستائر وشكل المرايا المُقَوَّسة بإطارات تشبه نوافذ عمارات إسلامية، ورائحة البخور تملأ المكان. تحدَّثَت وحيَّت بحرارة مَن تعرفهنَّ جيِّدًا، وأوصت إحداهن بالمطلوب ثم غادرت قائلة: «سنلتقي في البيت هذا المساء».

عند عودتي إلى غرفتي ودخولي إلى الحمام، وقفت أمام المرآة أتفحَّص برويَّة قَصَّةَ شعري ولحيتي وشاربي، فوجدتها بالفعل تشبه قَصَّات جيفارا في صوره الأشهر، وهنا سارعتُ إلى خزانة الملابس، أخرجت من حقيبتي القبعة ذات النجمة التي أهدتني إياها إيراسيما. وضعتها على رأسي، فهالني شِدَّة الشبه إلى هذا الحَدِّ، أطلتُ النظر والاستدارات والحديث مع إيراسيما متمنِّيًا لو أنني انتبهت فعلًا إلى ذلك أيام عشرتنا، لكنت طلبت من حلَّاق ريوسورو أن يشذِّب شعري على هذا النحو، وقلت لها في المرآة: «ليتكِ هنا الآن، لِتَرَيْ أختي

انضباط، كما كنتِ تتمنّين كلما حدَّثتكِ عنها. ليتكَ هنا الآن... ولو زائرة كطيف، لتطمئنّي عليَّ وعلى جيفارا الصغير الذي صار ينادي انضباط (ماما)، وهي ترد عليه في كل مرة من أعماقها (يا روح ماما).. ليتكِ معنا يا خُلاصَة العَسَل».

أطلتُ الحديث في المرآة، وبعد الاستحمام وجدت نفسي أرتدي البذلة الوحيدة التي أحتفظ بها من ثيابي القديمة. بدلة عرسنا التي أهداني إياها هاني وأعجبَتها كثيرًا، فكنتُ أرتديها لها في مناسباتنا الخاصة. سوداء مع قميص أبيض وفَراشَة عنق كما كانت تسمِّيها، وليس ربطة عنق. تعطّرتُ من عطري الوحيد الذي قرّرت ألّا أغيِّره مدى الحياة؛ لأنها هي التي أهدتني أول قارورة منه، وكانت تحبه. ثم وضعت قبعتها الجيفارية على رأسي، ورحتُ أتبختر أمام كل مرايا الغرفة، وأتحدث معها كأنها حاضرة، كما أُوالي تناول الكؤوس والتدخين دون توقُّف، إلى أن سقطتُ على السرير بكامل نشوتي وحزني وثيابي، ولم أستيقظ إلا في آخر المساء على لمسات وقبلات انضباط، وهي توقظني بالرفق ذاته والحنان اللذين كانت توقظني بهما في بيتنا الطيني البعيد. قالت: «وجدتُكَ غاطًّا في النوم عند الغداء ولم أوقظك، ولكن الآن، قد حان وقت العشاء والاحتفال وكل شيء جاهز، فجهِّزْ نفسك سريعًا، وأرجوك ابْقَ بهذه الثياب، فأنت فيها جميل جدًّا كعريس».

وعدتها، ولكنها لم تخرج إلى أن رأتني أدخل إلى الحمام، وهناك استحممت مُجدَّدًا بماء بارد، وشعرتُ بصحو وحيوية عجيبين، وإن كنت جائعًا بعض الشيء، ثم عاوَدتُ ارتداء الثياب ذاتها وتعطَّرت، لكنني بقيت حائرًا إن كنت سأضع القبعة أم لا. إلى أن سمعت طَرْقات على الباب فأذنتُ بالدخول، وإذا بها كوثر، ترتدي زيًّا مغربيًّا باهرًا، فشهقت قائلًا: «واااو، ما هذا الجمال! ما أجملكِ!».

تبسَّمَتْ بسعادة حَدَّ الضحك، حتى تَورَّد خدَّاها خَجلًا. ثم التفَّت حول نفسها مستعرِضة، وقالت: «أقنعتُ انضباط بأن ترتدي ثيابًا مغربية أيضًا».

فزادت بهجتي وقلت لها: «ولماذا لم تقنعيني أنا أيضًا؟».

فضحكت: «لا، فهكذا أنت جميل أيضًا».

عندها، استشرتها في ارتداء القبعة من عدمه، فقالت: «ضعها لأرى».

وبعد أن وضعتها قالت: «أنت في الحالتين جميل، والأمر متروك لك... هل تعني لكَ الكثير؟».

- جدًّا.

- إذًا ضعها في هذه المناسبة العظيمة، وهيا اتبعني. الكل بانتظارك.

قادتني إلى المصعد بدل الدَرج، ومن هناك ارتفعنا إلى ما فوق الطابق الثالث، الذي لم أدخله أبدًا. صعدنا إلى السطح، وما إن خرجتُ من باب الغرفة العلوية بعدها، حتى استقبَلتني ضَجَّة ووجدت أمامي منظرًا هائلًا يستحيل نسيانه. بقيت أستعيده في لحظات كثيرة لاحقًا. كان الجو معتدلًا والشمس على وشك الغروب، وقد تمَّ فرش أرضية السطح الواسع كلها بسجاد أخضر كسجاد الملاعِب، ووُزِّعَت المصابيح الملونة الشرقية والغربية بتناسق في كل الأنحاء، وفي المنتصف، امتدَّت طاولة عريضة طويلة، عامرة بشتى أنواع الطعام والشراب، وحولها كان الكثير من الناس رجالًا ونساءً وأطفالًا، لم أتبيَّن وجوههم أوَّلًا؛ بسبب تأثير الأضواء والمفاجأة، وكلهم انفجروا بالتصفيق والهتاف، وحتى الصفير، حال دخولي واقترابي منهم، ووجدتني أشهق بكلمة «يا إلهي»... وأكملها في نفسي: «كيف دبَّر منهل كل هذا، ذلك الشيطان المريض ونصف الميت!». لقد جمع كل أطفالي في برشلونة وأمهاتهم، وبعضهنَّ جئن بصحبة أزواجهن وأصحابهن، ومنهنَّ مَن كنتُ قد نسيتهنَّ تمامًا، لكنني تذكَّرت وجوههن أثناء تبادل التحيات دون تذكر اسمائهن. لقد أحضَر كارمن وابنتها انضباط، وابنة عمها وابنتها مني «أميرة»، وطفلًا أصغر من زوجها الذي عرَّفتني عليه، أما دوشكا وإيبا فقد عرفتهما على الفور، وكانتا أكثر الحاضرين احتفاظًا بشبابهما وجمالهما، ومن خلالهما تمَّت

دعوة بقية المثليّات اللواتي كانت علاقتي بهن عن طريقهن، ثم إحضار كل أبنائي الأربعة عشر في برشلونة، وأمهاتهم، وإخوتهم من آباء آخرين مع الآباء أنفسهم، باستثناء اثنين. قال لي منهل لاحقًا، بأن الأفغانية قد انتقلت منذ خمسة أعوام للعيش في باريس التي وُلِدَتْ فيها، وأن امرأة الوزير اعتذَرت عن الحضور لأسباب خاصَّة، كما أخبرني بأن الوزير قد مات منذ عام، ثم عقَّب ضاحكًا: «ولكنه مات سعيدًا بفضلك».

كان منهل يجلس على رأس الطاولة، وتجلس إلى جواره انضباط، وعلى جانبها الآخر، على كرسي مرتفع، يجلس الصغير جُوجُو، وقد ألبسته انضباط ثيابًا رجالية عراقية كثياب منهل تمامًا، بشماغ أسود وعقال، ودشداشة بيضاء وعباءة قهوائية مُطرَّزة الحواف بخيوط ذهبية... والأدهى من ذلك، أنها وبالتعاون مع كوثر، قد خَطَّا بأقلام الكُحل حاجبين وشاربين لكليهما، فبديا كأنهما نسختان من رجُل واحد، صغيرة وكبيرة، بحيث كانا موضع دهشة وإعجاب الجميع، الذين أكثروا من التقاط الصور معهما، ومع انضباط التي لم أرها بهذا الجمال من قبل، بعد أن رافقَتها كوثر في المساء إلى صالون الحلاقة والتجميل الذي أخذتني إليه، فتمَّ تغطية كل ندوب وجهها بالكثير من المكياج المدروس، وألبسوها هناك أزهى الثياب المغربية وأغلاها عندهم.

كانت تلك أجمل حفلة في حياتي على الإطلاق، وخاصة أنني حين سلَّمت على كارمن، وكانت بجوارها ابنتنا انضباط بكامل زينتها. نهضَت الصغيرة، وصافحتني قائلة: «عيد ميلاد سعيد»، فاحتضنتها من فوري، وبادلتني الاحتضان. قبَّلت خدَّيْها وقبَّلتني... فتح ذلك شهيتي وبهجتي لكل ما تلاه من أحداث، حتى نهاية الحفلة في الثانية عشرة ليلًا. ولا أدري فيما إذا كانت كل الأمهات قد أخبرن أبناءهن بأنني والدهم أم لا.

غنَّينا ورقصنا ولعبنا وتمَّ السماح لمن يشاء أن يدخِّن ويشرب، وكان يقوم على خدمتنا ثلاثة شباب بزيٍّ موحَّد، يبدو أنهم عُمَّال مطعم مغربي قد تعاقد معهم منهل، حيث أقاموا طاولة موادهم وأوانيهم وصناديقها

في إحدى زوايا السطح، ولم يكفُّوا لحظة عن الانتباه وإجابة طلبات الحاضرين. عرفتُ ولاعبتُ وتبادلتُ الكلمات مع أغلب أبنائي، ولكي أكسب المتمرِّدين منهم، لم أتردَّد بعرض إحدى أنجح مسرحياتي المرتجلة التي كنت أقدِّمها لأطفال القرى المحيطة في ريوسورو. استعنت ببعض الوسائد من المقاعد الفارغة، وبعض المناديل والمناشف والملاعق وغيرها، كما استعنت بابنتي انضباط لتؤدِّي دور الفارسة الشجاعة، فأدَّته ببراعة وسعادة، وبعد أن انتهت المسرحية راح الصغار يصفِّقون ويهتفون «أُخرى.. أُخرى.. أُخرى»؛ فارتجلتُ لهم مسرحية جديدة، عن أب بحَّار بقبَّعة فيها نجمة حمراء، يذهب في رحلة طويلة ليصارع تنِّينًا شرِّيرًا في جزيرة، وكلما واجهته صعوبة وشَعر بالضعف أخرج صورة أحد أطفاله من جيبه وقال له: «أنا أُحبك، ومن أجلك أغيب وأتحدَّى الصعاب، من أجل عالم خالٍ من الشَّرِّ، من أجلك وأجل أمك وإخوتك وأصحابك، فإذا ما طالت غيبتي أو تهتُ في البحار أو قَتلني التنِّين، فلا تغضب عليَّ بسبب غيابي، وإنما واصِلْ طريقكَ وأحلامك، وتأكَّد بأن روحي تراقبك وتحرسك عن بُعْد... وتحبُّك وتقويك، مثلما أن تذكُّري لكَ يقوِّيني». وكان البحَّار يذكُر اسم أحد أبنائه مع كل مغامرة، فجعلتُ الأسماء هي أسماء أبنائي الحاضرين كلهم تباعًا... أتذكَّر أنني تأثَّرت جدًّا، وأنا أرتجل هذا العمل، وعلمتُ لاحقًا أن أغلب الحاضرين من الكبار قد أدركوا ما رميتُ إليه، بحيث اعترفوا بنزول دموعهم، وفي آخر الحفلة، أصرَّت دوشكا وإيبا أن أعمل على كتابة هاتين المسرحيتين وستساعدانني في ذلك، وفي ترجمتهما كي ينشراهما ضمن سلسلة مطبوعاتهما للأطفال.

يصعب عليَّ وصف كل المشاعر والانفعالات التي انتابتنا طوال ذلك الحفل العظيم بالنسبة لي، وحتى للآخرين. كنتُ شُعلة مُتَّقِدَة من المشاعر، تمطر على الجميع وتغرف منهم. كنتُ في ذروة اتِّحادي وانسجامي كممثل وأب وأخ وابن وصديق... كنتُ جميع ذواتي في ذات

واحدة في تلك اللحظات، بحيث عبَّرتُ لانضباط ومنهل عن أمنيتي لفعل شيء كهذا، أجمع فيه عائلة هاني وأبنائي البعيدين في كولومبيا، فرحَّبا بالفكرة ووعدا بالإعداد لها لاحقًا... في تلك الليلة طلبتُ أن ينام جوجو في حضني.

- 50 -

صحوتُ فجرًا. سحبتُ ذراعي بهدوء وحذر شديدين من تحت رأس طفلي كي لا أوقظه، وبالحذر ذاته وبخفَّة نادرة، رحت أعلِّق الهدايا في أنحاء غرفتي. الرسوم والصور التي قدَّمتها لي -مؤطَّرةً- أمَّهاتهم. بعض ألعابهم التي تبرَّعوا بها لي لأنهم لم يعودوا يستخدمونها، والبطاقات المُزَيَّنة بالورود والقلوب والعصافير والقطط والفراشات والكلمات. لم أَدَعْ شيئًا من كومة الهدايا تلك، مهما بدا صغيرًا، إلا وأوجدت له شكلًا ومكانًا لتعليقه. بما في ذلك الورق الملون الذي غُلِّفت به الهدايا، والخيوط وشرائط اللاصق التي رُبطت بها. علَّقت كل شيء في كل الأنحاء، بما في ذلك في سقف الغرفة وعلى أبواب خزانات الملابس وباب الحمام، ووجهَيْ باب الغرفة، وأعلى مساند السرير وقواعد المصابيح المجاورة لها... وعند انتهائي، تنقلَّتُ في كل الأرجاء بخطوات صامتة كي أرى ما فعلته من كل الزوايا. تحوَّلت الغرفة فجأة إلى مهرجان ضاجٍّ بشتى الألوان والالتماعات. من غرفة واسعة بيضاء الجدران بديكور حديث، إلى غرفة طفل مليئة بالرسوم واللعب والأشكال والألوان. تحوَّلت إلى حفلة دائمة تذكِّرني بحفلة الأمس، ورحتُ أفكِّر، كم سيُدهش هذا جوجو حين يستيقظ، وسيُدهش انضباط وكوثر حين يَريانه، ويُدركان مدى أثر ما فعلوه لي في قلبي، وكيف أنه أخرجني تمامًا من بئر الكآبة الذي كنت قد سقطتُ فيه مؤخَّرًا، لكن كل ذلك لم تُتَحْ له الفرصة ليحدث؛ لأن انضباط حين دقَّت عليَّ الباب في الصباح، كانت مذعورة وترتجف، وهي تحثُّني على الصعود سريعًا معها

لرؤية منهل الذي لم تستطع إيقاظه، ولم أستطع أنا الآخر، فضغطتُ على زر مناداة الممرضة التي كانت تراجعه يوميًّا، ثم على زِرِّ الإسعاف، وهناك أزرار أخرى كثيرة. تقوم بالاتصال هاتفيًّا، ومنها أزرار كُتب قُربها: «المحامي»، «السائق»، «المسجد»، «البنك»، وأسماء أشخاص آخرين.

راحت حالة منهل تزداد سوءًا بسرعة، وأصرَّ الأطباء أن يبقى في المستشفى. كَفَّ عن الحركة والكلام وكان يكتفي بالنظر إلينا بعينين غائرتين، حزينتين، خائفتين... توحيان بالكثير من الكلام الحبيس، وكانت انضباط بجواره في الليل والنهار، تقرأ على مسامعه القرآن بصوتها الجميل، الخاشع، الخائف، وتوشوش في أذنه أحيانًا، دون أن تتأكَّد فيما إذا كان يسمعها أم لا.

وبعد ثمانية أيام في المستشفى مات منهل، وارتدت انضباط ثياب الحداد السوداء، فصارت تشبه أمي، وتذكِّرني رؤيتها بها دائمًا. كانت تجيد التحكُّمَ بحزنها، وراحت تزيد من طقوس عباداتها. رفضت العودة للصعود إلى الطابق الثاني، وأخذت تنام في غرفة بين غرفتي وغرفة كوثر في الطابق الأرضي، وكم من مرة استيقظنا على صوتها وهي تجوِّد القرآن بصوت ساحر وحزين. مرات كثيرة كنت أحمل فنجان قهوتي وسيجارتي وأجلس قربها بصمت وهي تواصل القراءة، كذلك كوثر وجوجو. الذي صار يحاول تقليدها بالتَّرنُّم ومَدِّ الكلمات. «وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ. قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ. هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ».

تطلب من السائق أن يأخذنا جميعًا إلى المسجد في أيام الجمعة. تدخل هي وكوثر وجوجو إلى صالة صلاة النساء، وأبقى أنا في الخارج منتظرًا، فيما تعتقد أو تأمل أو تُوهم نفسها، بأنني كنت أدخل إلى صالة صلاة الرجال، لكنني لم أفعل؛ لأنني لا أعرف كيف أصلِّي أصلًا.

أمَّا صباح كل خميس، فكانت تذهب إلى المقبرة، وحرصتُ أنا على التواجد الدائم في البيت ومرافقتها إلى حيث تذهب، باستثناء الذهاب إلى المقبرة، وحين اتَّسعت دائرة تحرُّكاتها، حيث الذهاب إلى الأسواق لجلب الأطعمة العربية وشراء الثياب التي كانت أكثرها لجوجو ولكوثر وهدايا تبعثها مع السائق لأبنائي وأمهاتهم.

رحتُ أُقلل من رفقتها؛ لأنني أشعر بملل خانق، من طول ساعات التجوال في الأسواق والتقليب والحديث عن المشتريات، فأمكثُ في البيت أغلب الوقت، وعندها شرعتُ بكتابة مسرحياتي للأطفال، وأولها مسرحية الفارسة الجميلة الشجاعة، والتي كتبتُ منها نسخة للكبار أيضًا. جعلتها بعنوان «هاملتة»، مزجت فيها بين ثلاث شخصيات: زهراء وإيراسيما وهاملت.

كنت أشعر بغور الحزن في قلب انضباط، وأُدرك أن تكثيفها للتديُّن وإكثارها من الخروج من البيت إلى المسجد والمقبرة والأسواق، ما هو إلا محاولة لإشغال نفسها عن حالة الفراغ والفقد الكبيرة في حياتها، وابتعادًا عمَّا يُذكِّرها بمنهل، حتى أنها باحت لي بذلك صراحة، بعد أن ملَّت من الخروج الذي اعترفت بأنه لا يعجبها. قالت بأنها لن تطيق تمضية بقية حياتها هنا. اقترحتُ عليها أن تقوم بالسفر سياحة في كل أرجاء العالم التي تعجبها، ولدينا الإمكانية والوقت الفائضان لذلك، فقالت بأنها لا تحب السفر، وليس ثمة ما يغريها فيه، ففي رأيها أن الجبال والأنهار والشوارع والمقاهي والبيوت هي ذاتها في كل مكان، لا جديد فيها ولا معنى لرؤيتها، وبالنسبة لها يكفيها مكان صغير لها علاقة عاطفية حقيقية به، كبيتنا في القرية، ويكفيها من كل الناس شخص أو بضعة أشخاص

تحبهم ويحبونها، وقالت: «أنتَ أحَبُّ الناس إلى قلبي، فأرجوك ألَّا تفارقني بعد الآن أبدًا يا أمير». وبكت، فوعدتها بذلك صادقًا.

حرصتُ على أن أكون معها أغلب الوقت، لكننا في الأوقات التي نبقى فيها صامتين تشرد بذهنها، وألحظُ الدمع ينزل من عينيها وهي ساكنة تنظر إلى الفراغ... وبعد مرور أربعة أشهر على وفاة منهل، أصبحَت تزداد صمتًا وذبولًا وحزنًا وحنينًا إلى العراق، وتزداد ندوب وجهها غَورًا وتَغضُّنا، فأرَدْتُ إشغالها وإسعادها بشيء ما؛ لأن الوقت كان يمر علينا طويلًا وثقيلًا وهي تزداد انطواءً، وهنا، عدتُ إلى ما كنتُ ألجأ إليه في مراحل كهذه، وهو صناعة أحذية الأطفال، والتي علَّمتها إياها أيضًا أثناء شهور استراحتي معها ومع أمي في بيتنا، بعد إنهائي للخدمة العسكرية، فأعجبتها الفكرة وحوَّلنا نصف الصالون الأرضي إلى ورشة لصناعة الأحذية الصغيرة. صارت تشاركنا فيها كوثر والسائق أحيانًا وعامل الحديقة الذي كان يمرُّ عليها كل يومين، فيما كان رامون المحامي يستغرب ممَّا نفعله، وهو العارف بحجم ثروتنا. فهذه الفِيلَّا وحدها، لا يقلُّ ثمنها عن أربعة ملايين. بل وتساءل عن ذلك صراحة، مستغربًا أو ضاحكًا، ثم أجاب على نفسه بنفسه قائلًا: «على أية حال، لا غرابة في ذلك، فأنتُم من عائلة مانويل وجيناته ودمه، لكم تصرفاتكم الخاصة والغريبة»... صمتَ، ثم أضاف قبل أن يفتح حقيبة أوراقه الأسبوعية لأُراجع معه الحسابات: «مِثل كُل العائلات».

عرفتُ منه بأن منهل وانضباط قد طلبا من أمهات أبنائي أن يفتحن بأسماء أبنائهن حسابات بنكية خاصة؛ كي يبعثوا إليها بمبلغ شهري كنفقة أو راتب، ويكون ذلك حساب توفير لهم في مستقبلهم ودراستهم الجامعية، عرض عليَّ كل الحسابات التي أعطته إياها الأمهات باستثناء زوجة الوزير والأفغانية، قال إن زوجة الوزير رفَضت، أما الأفغانية فلم يعثر على عنوان لها في باريس، ولكنه سيواصل التقصِّي، وسألني عن مقدار المبلغ الذي نريد تحويله شهريًّا إلى كل من هذه الحسابات.

فسألت انضباط، وأجابت على الفور: «منهل قال خمسمائة يورو». وما إن غادر المحامي حتى أعادَت عليَّ انضباط فكرة أن نفعل الأمر نفسه مع أبنائي في كولومبيا. أن نسعى لإقامة حفلة جامعة ونفتح لهم حسابات. أسعدتني فكرتها؛ لأنني وجدتُ فيها فرصة أيضًا لشغلها عن حزنها أكثر. اقترحتُ عليها أن نسافر إلى هناك. فكرَّرت الرفض؛ لأنها لا تُحب السفر، وقالت فلنجمعهم هنا مهما كلَّف الأمر، «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا»... وهكذا رحنا نخطِّط بحماسة لجلبهم من هناك وجمعهم بالذين هنا، وكنتُ سعيدًا أن ذلك سيكون فرصة عظيمة لرؤية أخي هاني وعائلته وولديَّ «كاهوا» و«هاليب»، وسأعرض على من يشاء منهم البقاء هنا.

اتَّصلتُ بمارينا لتكون وسيطتنا مع هاني، والذي سيكون بدوره وسيطنا مع أمهات أبنائي، وتبنِّي ترتيب الأمور هناك، وصرنا نجعل حصة هذا الموضوع هي الأكبر ضمن جلساتنا الأسبوعية مع المحامي. كنت أشعر بأن هذا الفعل، وهذا الأمل قد أعاد إلى انضباط حيويتها وطبعها الإيجابي في التعامل مع الحياة، مهما كانت عتمة بعض مراحلها، بل وجدتُ بأنها تخطط لما هو أبعد من ذلك، فقد فاجأتني بطلبٍ، اعتبرَته أهمَّ طلب في حياتها مني، وبأنه سيكون هديَّة عمرها ومكافأة لها، فبعد أن تحدَّثَت عن كوثر بحب شديد، قائلة بأنها شعَرت بأُخوَّتها منذ أول يوم رأتها فيه.

- إنها أُختي التي كنت أحلم بأن تكون لي منذ صغري، تمامًا كما حدث لك مع هاني. هي تكاد تشبهني في كل شيء، نفهم بعضنا بالنظرات ونتفق في رؤيتنا لكل شيء، وأشتاق إليها لو غابت لساعات. أشعر بأنني لن أستطيع العيش بدونها بعد اليوم، وحلمي وطلبي أن نبقى معًا لما تبقَّى من حياتي. أنا وأنت وكوثر وجاسم. لا أريد أن أمضي بقية عمري وحيدة، ولا أن تمضي هي بقية عمرها وحيدة. أفكر بعد أن نُنجز احتفال جمع أبنائكَ كلهم، وترتيب سبل دعمهم والتواصل معهم،

أن نبيع هذا البيت وننتقل للعيش في بيتها، الذي على البحر في مدينة «أصيلة»، وطالما حدَّثتني عنه وأرتني صوره، أو أن نعود للعيش في بيتنا في العراق. أنا لا أستطيع البقاء هنا يا أمير، لا شيء لي هنا ولا علاقة لي بهذا العالم. لا أعرف اللغة ولا الناس ولا يمكن لي أن أتعلَّم كل ذلك مجدَّدًا وأنا في هذا العمر. كما أنني، وبصراحة، لا أريد ولا أطيق البقاء في هذا البيت.

وبالطبع، تفهَّمتُ ذلك، أنا الهارب من البيت الذي عشتُ فيه مع إيراسيما، بل ومن كل الأرض التي وطأتها بحصانها هناك، وحين كانت تجدني موافقًا على ذلك مبدئيًّا، لكنني لستُ براغب بالعودة إلى العراق. تستطرد في عرض أحلام ومشاريع تغريني، كأن تقترح عليَّ إقامة مركز ثقافي في القرية وفيه قاعة للمسرح كي يبدأ منها الصغار الحالمون به، كما كنتُ أنا حالمًا حينها ولم أجد مناخًا لحلمي، أو أن أقوم بتأسيس شيء كهذا، أو فرقة مسرحية في بغداد، وذكَّرَتْني بأن منهل قد بنى مدرسة ومستوصفًا ومسجدًا، وساعد كل إخوته وأهله ماديًّا، إلى أن استقرُّوا في بيوتهم الخاصة، وقالت علينا أن نفعل ذلك مع أبي وإخوتنا هناك أيضًا. وهذه الأمور هي وحدها التي تبقى بعد موتنا، كما فَعل منهل.

قلت لها: بالطبع سنفعل ذلك قريبًا، أما عن العوة إلى العراق فلنؤجِّلْها ولنجرِّب أولًا في أصيلة، وهناك أيضًا يمكننا أن نشيِّد شيئًا. مركزًا ثقافيًّا أو مدرسة أو مستوصفًا. فأضافَت: «أو مسجدًا». وكرَّرتُ بعدها: أو مسجدًا.

وهكذا كنَّا نعاود أحاديثنا الطويلة، نتداولها، نوسِّعها ونفصِّلها بمتعة في أغلب الأحيان، فعادت الأحاديث والأحلام لتكون هي حياتنا الحقيقية. تُريحنا ونجد لوقتنا وأنفسنا معنى فيها. إلى أن وصلَت إلى لحظة البوح بأمنيتها وطلبها الرئيسي مني، وهو أن أتزوَّج من كوثر. ولشدَّة المفاجأة وجدتُ نفسي أهبُّ واقفًا من الكرسي، وأدور حول نفسي لا إراديًّا، ولا أدري ماذا أقول، وحين التقَت عيناي بعينيها قالت: «أرجوك».

فهرشتُ شَعر رأسي ودرتُ حول نفسي ثانية، وأنا اسمعها تقول، وهي تنهض لتضع ذراعها على كتفي: «أرجوك يا أمير. إن لم يكن من أجلكَ، فمن أجلي وأجلها وأجل جاسم، إنها إنسانة طيبة تشبهنا تمامًا. أنا أُحبها».

ثم قرَّبَت فمها إلى أذني وهمست: «وهي تُحبُّكَ».

فعادوتُ جلوسي على الكرسي وأنا ما زلت لا أعرف ماذا أقول، وكيف أفكر، فيما هي تُملي عليَّ وتواصل حديثها بخفوت وحماس وحب: «نعم، قالت لي بأنها أحبَّتْكَ منذ عرفتكَ أول مرة، عند قدومك إلى هنا، وأنها كانت تتعذَّب وتبكي كثيرًا لوحدها وهي تراك مع نساء أُخريات؛ وبأنها لم تستطع حتى التفكير في رجل آخر؛ لأنك كنت تهيمن على كامل قلبها وتفكيرها».

قلت: «ولكن... ولكن أنتِ وهي تعرفان كيف هي حياتي وطبيعة شخصيتي وطبيعة علاقاتي، وكل هؤلاء الأبناء».

- نعم، ومع ذلك فهي ما تزال تُحبُّكَ، وأنا على يقين من أنها ستقبَلُكَ كما أنتَ، بكامل ظروفك، ولا أظن بأن امرأة أخرى سترضى بالزواج منك، إذا ما عرفَت كل الذي تعرفه عنك كوثر... وهذا دليل آخر حقيقي على حبِّها لك، والحُب نعمة ورزق يا أمير. فكما يقول نبيُّنا عن خديجة: (إني رُزِقتُ حُبها)، فلا ترفض هذا الرزق وهذه النِعمة، وأنتَ كبرتَ، ولا بُدَّ أن تُعِدَّ منذ الآن مَن يكون لك رفقة في بقية حياتك، ولا أجد أنسب من كوثر لك، ولا مَن هي أكثر تفهُّمًا ومعرفَة واستحقاقًا لك منها.. أرجوك.

- لقد سبق لي وأن تزوَّجتُ مرتين، ولا أعتقد بأنني مستعدٌّ للزواج مرة أخرى، بل إنني لا أصلح للزواج بتاتًا.

- ولكنها هي تصلح للزواج، وهي مستعدَّة للزواج.

صمتُّ للحظات ثم قلت لها: «دعيني أفكِّر بالأمر لاحقًا على مَهل».

فشعرتُ بها تكاد ترقُص فَرحًا. احتضنتني بقوة. قبَّلَت رأسي كثيرًا، ثم اختفَت بسرعة، كفراشة حطَّت على رأسي قليلًا ورَفرَفَت بأجنحتها الزاهية نشوانة، ثم طارَت.

- 51 -

في الساعة الثالثة من بعد منتصف الليلة التالية، وعلى الرغم من تَعب السَّهر والشرب ونشوة النقاش مع دوشكا وإيبا في شقَّتِهما حول تعديلات نصوصي المسرحية التي سلمتها لهما، إلَّا أنني لم أستطع النوم عند عودتي، فرُحتُ أتصفَّح العدد الأخير من مجلة المسرح، الذي تركَته لي كوثر على الطاولة المجاورة لرأس السرير. وفي صفحات الأخبار القصيرة، فوجِئتُ بصورتين منفصلتين: قديمة للدكتور ياسين مبتسمًا وهو يرفع في كفِّه إحدى الجوائز التي نالها، وحديثة لزهراء وهي ترتدي السواد وتضع على عينيها نظارات سوداء عريضة. «وفاة المُخرِج العراقي دكتور ياسين، إثر جلطة قلبيَّة أثناء التدريبات على عمله المسرحي الجديد، وأرملَته الفنانة زهراء، تَعِدُ بمواصلة العمل على المسرحية وإخراجها كما كان يتمنَّاها»... طار النوم من عينيَّ، طارت المَجلة من يدي، طرتُ إلى الحديقة الخلفية أُدخِّن. جبتُ الحديقة الواسعة كلها، درتُ حول البيت الكبير، وعدتُ إلى سريري أتأمَّل صورتها ثانية، قَصَّة الشَعر القصير ذاتها باستثناء خصلتين من الشيب على الجانبين زادتاها جاذبية. تُرى كيف كانت ستبدو إيراسيما بشعرها القصير الشائب؟ وجه زهراء جامد، أو الأصح صامت، ناطق في الصورة، قوة، كبرياء، تَحدٍّ. وددتُ لو أنها بلا هذه النظارات السوداء، لكنت جلبتُ عدسة مُكبِّرة وحدَّقتُ في عينيها أقرأهما، وليس هناك مَن هو مثلي يجيد قراءة عينَيْ زهراء، وها أنا أقرأ خلف هذه الملامح المتماسكة: زهراء وحيدة، تائهة، حزينة، خائفة. قد تسقُط في أية لحظة من على حافَّة خشبة المسرح وتتهشَّم، كما سقطَت إيراسيما من على حافة الجبل وتهشَّمَت. عليَّ

أن أُسارع إليها قبل فوات الأوان، أُنقذها وأُنقذ نفسي، أو أدفعها لتسقط وأسقط معها، أو أتصادم معها حتى نُحطِّم بعضنا ونتهشَّم. لن أتردد هذه المَرّة، لن أخاف، لن أهرب، سأبحث عنها، سأجدها، سأواجهها، سأسمعها وأُجبرها على سماعي، وليكُن ما يكون... كنت أحمل المجلَّةَ مفتوحةً على صورتها وأدور في الحديقة مُدَخِّنًا وحول البيت، أتوقَّف تحت كل مصباح، أُحدِّق فيها وأُخاطبها، إلى أن بدأت أول أنوار الفجر تُزيح العَتَمَة، حيث وجدتني على قناعة تامَّة من القرار الذي اتَّخذتُهُ، أو هو الذي اتَّخذني، وعلي الإسراع بإبلاغ انضباط به، قبل أن تتمادى بأملها وتخطيطها لزواجي وتُشرِك كوثر... دلفتُ إلى غرفتي، تركتُ المجلة على السرير، غسلتُ وجهي بماء بارد، تَمَضمَضتُ وخرجتُ إلى الصالة، مُنتظرًا انتهاء انضباط من أدائها لصلاة الفجر، وقلت لها: «خلاص، لقد توصَّلتُ إلى القرار النهائي، أَعتذِر، لا أستطيع الزواج بكوثر... وسوف نعود إلى العراق».

«انتقامًا من موت طِفلتي في العراق، أنجبتُ سبعة وعشرين طفلًا في إسبانيا وكولومبيا». بهذه العبارة يفتتح محسن الرملي روايته (أبناء وأحذية)، ويهديها «... إلى الذين بَعثرَت الأقدارُ أحلامَهم؛ فرمَّمُوها بأُخرى».

حيث تحفل هذه الرواية بالتنوُّع الثَّريِّ في الشخصيات والأحداث والأماكن والمواقف والأفكار والعواطف، مُشيرةً إلى تشابُه ما هو إنسانيٌّ في العمق، على الرغم من الاختلاف في الثقافات. وتعيد طرح التساؤلات حول مواضيع إنسانية كبرى، والمفاهيم التي طالما أعادت الآدابُ الخالدة طَرْحَها في مختلف العصور: الخير والشر، الحب، الحلم، الحرية، القَدَر، الموت، الأخلاق، والعلاقات العائلية وأثرها في رسم مصائر الأشخاص. كل ذلك بأسلوب الرملي الذي وصفته صحيفة (الغارديان) العالمية بأنه «ينحو -أحيانًا- للتَّشَبُّه بتولستوي، في تركيزه على التفاعل بين الشخصيات خلال تدفُّق نهر الزمن (الذي يمرُّ من بينهم ومن حولهم)، وفي إحساسه بالحياة الفردية وعلاقتها بالمجتمع... محسن الرملي من نجوم الأدب العربي المعاصر».

سبق وأن حَظِيَتْ أعمالُه باهتمام القُرَّاء والنُّقَّاد، شرقًا وغربًا، وتُرْجِمَتْ إلى عدَّة لغات، كرواياته: (الفَتيت المبعثَر) التي فازت ترجمتها الإنكليزية بجائزة أركنساس 2002، و(تَمْرُ الأصابع) و(حدائق الرئيس) اللتين تَرشَّحتا ضمن القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية 2010 و2013، ونالت الترجمة الإنكليزية لـ(حدائق الرئيس) جائزة القلم الدولي 2016. ورواية (ذئبة الحُبِّ والكُتب) التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة الشيخ زايد للكتاب 2015.

ISBN 978-9933604707

صورة الغلاف للمخرج السينمائي: عباس فاضل